

المرحلة ٧٩٧

المتجهة إلى فبينا

الرحلة ٧٩٧ المتجهة إلى فيينا

(رواية)

Trip 797 to Vienna

طارق الطيب

Tarek Eltayeb

الطبعة الأولى / ١٤٣٥ هـ، م ٢٠١٤

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ معر ببرل - قصر النيل - القاهرة

تلفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٥

E-mail: clainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

خالد فهمي

فتح الله الشيخ

فيصل يونس

مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البوادي

لوحة الملاف: جوستاف كlimt

تصميم الملاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٤٦/٢٠١٣

. N 978 - 977 - 490 - 3

الرحلة ٧٩٧

المتجهة إلى فيينا

رواية

طارق الطيب

دار العين للنشر



الكتاب والتراث التراثي

بطاقة فهرسة

فهرسة أئمـة النـشر إعداد إدارـة الشـون الفـية

الطيب، طارق.

الرحلة ٧٩٧ المتجهة إلى فيينا: رواية / طارق الطيب.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص: سـمـ:

تدملـك: ٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٦٥٤٦ / ٢٠١٣

لن أتقاسم معك الأحلام
لا أحب أنصاف الأحلام
سأهديك الحلم كاملاً
لا تفسريه
عيشيه!

١

ليلى عارية مستلقية على ظهرها على السجادة الفارسية الوثيرة في شبه غفوة نادرة لم تشعر بها منذ مراهقتها. هي الآن بين اللوم والصحو أو بين شرفات الحلم ومشارف اليقظة. لا تعرف لأي منهما تستسلم أو إلى أيهما ترتقي. عارية، دون أن تشعر بأدنى خجل. لم يحدث مرة وهي في عريها طوال عمرها أن تتجاوزها هذا الخجل المزمن حتى وهي بمفردها؛ فما إن يصدر حس أي ذكر غريب أو طرقات على الباب إلا وتلمس شعرها المسفر بهلع وتنأكد من حزم ملابسها، أو ترکض لمكان خفي كطريدة. للمرة الأولى في حياتها تتأمل جسمها العاري بارتياح وفرح طاغيين. هو إلى جوارها مسترخ وادع وقد انتظمت أنفاسه الصاعدة وهدأت.

كفها معشقة في كفه. ترفعهما لتأكد أن هذه كفها وأنها في كف رجل يشار إليها العري والفراش، رجل ينزلل كيانها فتشعر بالسکينة. أساورها تصلصل برنين يثير شهوة الأذن. تشعر بابتسامته الراضية على وجهه الناعس. تشد كفه نحوها فيلامس ساعده الدافئ ثديها بلذة. تقبل كفه بمسرة غامرة، وترى نفسها في سكرة ممتدة.

لا تدري السر الذي جعلها تفتح هذه الغرفة البعيدة المغلقة في بيت آدم. لم تكن فضولية ولم تفعل هذا من قبل حتى في بيت أعز صديقاتها. هو أيضا لا يدرى لماذا لم ينطق بحرف واحد ليوقفها أو حتى يومئ ليمنعها برفق، وهو يعرف أن هذه الغرفة هي الوحيدة في بيته التي يغلقها ولا يسمح بدخول أي كائن إليها سوى "إيزيس" قطته الوديعة. تدخل ليلى وقف منبهة في حجرة تبدو لها غير عادية، حجرة حية ذات روح، يدخلها المرء فتحتضنه بحنان، وتشعره بإحساس طمأنينة وأمان ونسيان لكل العالم خارجها. الحجرة قد تبدو لكثرين حجرة عادية، فهي شبه خالية من الأثاث، فيها سجادة تبدو سميكه للغاية، مما جعلها تبدو عالية عن الأرض أو كأنها بساط الريح. في الركن شمعة حمراء مشتعلة يفوح منها عطر أخذ لم يسبق لها أن شمت مثله، عطر من الجنة يجتاحتها فيرتعش جسدها. تعود خطوة للخلف، فتصطدم بصدره؛ فيعتذران معا في آن.

ترى خلفه شالها الأزرق الذي نسيته قبل ثلاثة أعوام وثلاثة أسابيع ويومين بالضبط في فيينا، مسدلا على الحائط بلمسات فنان. كما لو كان خلفية لإحدى ليالي قصص ألف ليلة وليلة. تمسها حالة من السرور كلمسة

نسيم في عصر صيف حار. هي مستقرة في قلبه إذن منذ زمن طويل. الآن البسمة التي في قلبها وروحها والتي انطبع على وجهها وكل جسمها لا تضاهيها أي بسمة في العالم. يلتقي ناظراً معها للشال، فيوللي ظهره لها. تلتقص به في حنو فيشعر بحلماتها تمس ظهره مساً مهيباً مخدراً. تتحرك نحو الشال، فيصير خلفها. يمسها بصدره من ظهرها ويضع ذقنه في ثقة على كتفها فتشعر بشعر ذقنه يشوّكها بلذة وتأنفاسه تلفحها بوداعة على جيدها. تروح عبر أزرق شالها إلى السماء. تلوّح للحلم المنتظر، تنظر وتنتظر!

تهمس لنفسها:

"هل يتحقق الحلم الآن؟ هل آدم هو رجل الحلم؟"

عندما يتحقق الحلم يتبدل الواقع أعدب وأشهى، وأنا الآن أستعدب
هذا الواقع وأشتهي هذا الرجل بلا حدود ولا قيود!"

تلتوي يميناً نحو الشمعة، يغمرها العطر من جديد بثوب الرجفة. تتقدّم نحو الشمعة. يضيء وجهها كأن نوراً يخرج منه. ضوء الحجرة يتسرّيل لوناً فضياً كضوء القمر لا تعرف من أين يأتي؛ هل من نافذة بعيدة أم من مصباح خافت أم الشمعة وحدتها كانت كفيلة بكل هذا.

الآن للشمعة سطوة الضوء وللرائحة سطوة السكينة. السكون يبني بعاصفة في الحس لا ريب آتية! تقرأ خلفه - جوار الشال المعلق - في خط ديواني جميل مزخرف على الحائط:

"أَنَا لَكُ؛ فَكُنْ أَرْضِي وَأَرْضِ قَلْبِي وَكُنْ سَمَائِي وَأَسْمُ بُرُوجِي،
حَتَّى أَنَا لَكُ فَأَنَا لَكُ"

كان المكتوب كان لها وعنها. للمرة الأولى تخلص في لحظة من ثقل ماضيها ومن قلق مستقبلها، تشعر أنها تلمثم روحها من الماضي وتؤمن عليها في المستقبل، لتكون بروحها وجودها ووجودها في حاضر يبدأ الآن.

للمرة الأولى تطيل النظر في عيني رجل وترى لونهما وعمقهما، فتشعر أن النظرة تروي عطشا بعيداً مزمنا لم تتبه له، وأنها تريد المزيد. للمرة الأولى يقترب منها رجل فيشعر جسمها ويرجحه ويزلزلها دون أن يلمسها. يجذبها إليه بسحر غامض فتستجيب بغريرة مسحورة. كم مرة انكمشت كقطة بائسة كلما تركها زوجها وراءه ككتلة طين بلا ملامح، كلما اعتلاها بقوسها في ظلام الغرفة؟ فلم تعرف هل هو من ضاجعها أم وحش خرافى جاء من دغل خلف الجدار! للمرة الأولى يشعر هو أنه مسيّر ولأول مرة تشعر هي أنها مخيرة. في لهفة يخلع كل منهما للآخر ملابسه. كأن كليهما يخلص أحدهما الآخر من أسر ما.

أنفاسها تهدج مع اقتراب وجهه. يقطف القبلة الأولى، هكذا هي القبلة التي سمعت عنها ورأتها، القبلة البكر الحسية الناعمة القوية التي تمنتها. يتادلان شهد الرضاب. صهد رائحتها يغلفه فيشدّها نحوه برفق، تروح إليه. جبهته على جهتها. أنفه على أنفها، يتادلان الشهيق والزفير الخافت، وصدره يلامس نهديها الدافين. جسمه يتغير، يتمدد فيها. كفها

تحسّس جسمه حتى تصل إلى كفه، فتعاشق الكفان. تحس بشعور ذقنه يدغدغ وجنتها، رقبتها، كتفها، ثديها. تقبله بلهفة في كل موضع من وجهه وصدره بشفتين محروتين. يقبلها بشفتين من نار في كل موضع استطاع إليه سبيلاً، ويتحرر حسها للمرة الأولى في حياتها عاليًا منفلتاً طبيعياً في هذه الغرفة الهدئة؛ حروف قليلة تتكرر لصوت امرأة تحرر جسمها بأذين مبتهج، تفك به أسر روحها من سجن بعيد وتنسى قسوة العالم للحظات. تترك العنان الأزيلي الراقد فيها للوحش المت:red الذي يخرج من قممه صاعداً لأقصى مراتب الوله. تدور معه في رقصة تمتها طوال عمرها. رقصة يضمها فيها المحبوب فلا تعرف جسمها من جسمه؛ صوتها من صوته، اسمها من اسمه، يعصرها، يدوخها، فتصعد معه أو تهبط. لا يهم؛ خفيفة هي الآن كريشة تهادي مع نسيم الوجود.

مثل ملابسهما التي انسابت على الأرض، انساباً هما أيضاً فوق السجاد العالية، كتمالين من الشمع يذوبان ثم يتشكلان في جسم واحد وروح واحد. يلتهم شفتتها بعضات شبقة تخرج من غريزة طبيعية دفينة. لطعم رضابها مذاق مذهل. تصطك الأسنان بالأسنان في صوت أكثر إثارة. تشعر به يشمها بشوق ومتعة. كلما استنشقها تشعر أنها تحول لعطر يضيع في صدره ليعيدها مجدداً ويستنشقها مرات. في رائحة صهد العشق عبق تعرف عليه الآن. ها هو بفيضان مشاعره يساعدها على الوصول إلى معارف أخرى مغايرة، وبهذه التي تتحرك بوعي فطري يعيد تشكيل تضاريس جسمها، يمس شفتتها فيمنحهما لوناً وردية، وكلما مصهما بشفتيه أعاد تشكيلهما ليأخذها هيئتهما المنتصبة المتوجهة. ينحدر

بيديه على كتفيها فينفتحهما كما لو كان نحاتاً مصرياً قدماً موهوباً، ثم تنزلق كفاه ليضمها فيلين خصرها كأنه من صلصال لين، يضم كفاه فيضيق الخصر تحتهما، وتترفرج كفاه ليرسم معلماً رديفاً للمتلين. لسانه أينما وقع على جسمها يقرأ بشرتها بارتوا، ينحها مذاقاً ورائحة وهوية، وهي كمادة خام غفل طيبة، تنتظر انتهاءه واثقة من قدرته على الخلق.

ينزلق بجسمه بين فخذيها ويرفع كفيها المتعاشقتين في كفيه عند رأسها. وينظر في عينيها. تميل بوجهها في عنق مثير وعيناها لا تفارقان عينيه. شعرها هالة مجنونة من سواد أسطوري. تتسم بينما وجهه غارق في عبوس الشهوة. يلحس أذنيها وجيدها ووجنتها وغير معرضعاً شفتها نازلاً لكتفها، لثديها، لصدرها، لطنها، تأوه وهي ترفعه بأصابعها المعشقة في أصابعه.

يلتحم الجسم في الجسم، يستكين توترة الساخن المشدود داخل توترها الندي الطيع. تفتح كل مسامها كوردة تغتسل بمزيد من الندى وعيناها تشهقان في عينيه أن يتوقف؛ بل أن يستمر؛ أن يستمر إلى الأبد، تضرب صدره ضربات دلال؛ ضربات زجر مرید، وهو يشد شعرها شداً يلذّها بالألم. تفتح كل جيوبها السرية ليغوص أينما وكيفما أراد، فيهتز كيانها، تعابه بنظرة عشق ممزوجة بامتنان، فرد العتاب بحرث لأرض بكر تستقبل مطراً بإحساس جديد للمرة الأولى في الحياة!

يتعالى صوتها تدريجياً، فيتشهي بحسها حين تنطق اسمه بحنة الأنين:

"آدم.. آه دم.. آه دم!"

تحشرج أنفاسهما والجسمان يتفضسان. تخرمش ظهره بأظافرها بلا شعور. بعض شفتها السفلية. تلتوى تحته كأنها ستهرب، يجذبها بعافية لنجد نفسها فوقه تمارس رقصة الجسم على الجسم، مع الجسم، في الجسم. رأسها يرتفع وعنقها يتمدد كهرة متلذذة وينفلت شعرها ويسعى. أسنانها تجز على لذة؟ على جنة تتراءى لها في أفق غاف داخلها، مستسلمة هي الآن بكل حنو الأنثى الراضية، وعيناها بنظره وله بعينيه معلقتان.

متعاشقين حجرا في حجر ينظران لالتصاد يفكانه لإمتاع العين ويردانه لإمتاع الجسد، شعرها الفوضوي الهائج يغطيهما. يتبدلان الواقع دون أن يدرريا، يرفعها فتشعر بخفتها. ترمي للخلف ببطء وإغراء، وهو يريحها على راحتى كفيه، فيسقط شعرها الغزير مدغدغا قدميه، بينما يغوص بوجهه في صدرها. حلماتها البستان كحبتي عنبر داخل فمه تتتصبان فيقرأ سورة انتصابهما بلسانه الساخن. يخرج اسمه منها فيخرج اسمها منه:

"ليلي.. ليله.. ليلاه!"

"آدم.. آه دم.. آه دم!"

ترد عليه وحرف الهاء يخرج من لسانيهما معا هامسا هائجا هادرا، بهيام لا كابح له.

جسمها الآن ليس ملكا لها؛ بل هو - على العكس - ملك لها تماما للمرة الأولى، حتى شعرها يقرأ عليها حالة قدميه الغارقتين في نشوة

للمس الهامس. جلستها المتربعة في حجره تتيح لهما شم عبق الالتصاق والالتحام، كرائحة لوز مهروس في ندى الصباح، تعصر جسمها في جسمه، وتمني أن تروح داخله للروح التي ناقت إليها.

بصوت أثني مرت وعطشان في آن تضحك بسحة كأنها تنتخب. تبتسم ثم يقطب جبينها كأنها تألم. ينطقان معا بكلام وحروف عتيبة لم ينطقا بها في حياتهما؛ كلام مبهم مفعم بحروف اللذة والاستهاء. يخرج البوح ولهان. يتاجيان. موقع اللذة تداهم كل ما تقع عليه عيناه منها، تلتذ من طاقة لا تعرف مصدرها، يصير لحاسة النظر حسية سترفها من الآن، معه، مثلما عرفت نعمة شم عبر الجسم؛ مثلما عرف لسانها طعم الحياة وأدرك السر المكنون، فصار يلهج بكلام أول الخلقة.

لقاء مؤجل منذ بداية البشرية، تعذب من غيابه الكثيرون، وهما الآن يربطان حبلًا سرياً أزلياً ويصححان مساراً مؤجلًا. يريدان الغور أبعد، فلا مناص إلا من الانزلاق في غريزة وحشية قديمة هي منبع الحياة وأصلها. لا شبع ولا ارتواء. يهرسان الجسم في الجسم. تشعر به في أقصى أفق في جسمها. لم تشعر في حياتها بهذا الامتلاء والانتماء، يغوص فيها ويتأمل عينيها؛ عيناً أثني من ملايين الأعوام تدوران من اللذة في بياض يجعل حشرجة صوته تعالى وتوتره يزداد شبقاً. يعاين بطنهما الناعم المندى المتماوج برقصة شوق، وتشعر هي بخرابة داخلية ملتذة تعلم الإدمان، تخرجها عن شعورها وتسكرها فتهيم في غنج. يتماوهان بانسجام حتى يصعد صوتهمما عالياً لأعلى مكان في السماء. صوتان يصرخان بالتناوب،

ثم بالتوافق، ثم بالخفوت، وتخور كل القوى كهبوط طائر السمان من رحلته الطويلة على أول شط، ويفيض الجسدان بنشوة مرهقة بلذة فوق الاحتمال، يستسلمان للوهن المخلص بعد العافية المنفلتة. جسمه على جسمها يغطيها، يحتويها، يعشقها، يذوب فيها ولا يريد أن ينفصل عنها. تقله عليها يثبت عشقه على بدنها وروحها كوشم يخلب لها ويزيدها ثقة بوجودها، بجمالها، ببهائها، ببقية جسمها المنسي وروحها الغائبة.

ينعس هو مستكينا هادئا. كفها معشوقة في كفه. تقبل كفه مرات، كأنها تتلمس بشفتيها حقيقة وجوده، تقاوم النعاس والصحو وتدع نفسها في السكرة التي بينهما.

بعينيها شبه الناعستين تلاحظ ليلي وجود وشم واضح على كتف آدم الأيمين مرسوم بخط جميل يحمل الكلمة "فيروز" تخمن أن صاحبة هذا الاسم شخصية ذات وضع خاص مرت في حياته، حتى يشتمها على جسمه بهذا الوضوح وفي هذا المكان. تخنق فضولها فورا، لا تريد أن تعود من السموات التي تسرى معه الآن فيها بسؤال يعيدها إلى الأرض، بل تقوم بتصرف عجيب لم يتوقعه آدم الذي ينظر لها في هذه اللحظة ويقرأ فضولها الخجول. تقبل موضع الوشم بمحبة كأنه اسمه أو اسمها، فيحتويها غامسا أصابعه في شعرها الأسود الكثيف ويقبلها قبلة ندية طرية بطينة حارة تحرر فيها شفتاها وبرعشان طلبا للمزيد؛ فتسرى معه مجددا إلى النجوم!

يسكنان الآن جنبا إلى جنب لزمن استثنائي خارج الزمن. ليلى بعد هذه الساعات الهاشة لن تخس بأي ندم لو غادرتها الحياة فجأة. لكنها - في الوقت نفسه - لم تشعر في حياتها برغبة ملحة في الحياة مثل هذه اللحظة. يا الله! تشعر أنها تستمد سعادتها من سعادته. أخيرا بعد هذا العمر الطويل البطيء الثقيل الذي كانت تجره خلفها، أصبح لها رجل يخفف عنها، رجل سيكون مرآة روحاها، وأصبح الزمن منذ تلك اللحظة ينبع بعمر جديد.

يفتح عينيه يجدها تتأمله بعينين تقipضان بشرها وعشقا. يقترب ويلشم شفتها فتغمض. يعتدلان في جلستيهما وجهها لوحة فتلامس ركتابهما وتتشابك أصابعهما مجددا. عاريان يتاملان جسميهما بلا خجل، بانتشاء، بارتوا، بفرح. أنفاسهما الهادئة بفرحة غامرة كأنها تهز لهب الشمعة في ركن الغرفة. الشمعة الحمراء القرمزية في زجاجها الشفاف. اللهب يتراقص والضوء خافت ومريع، مخدر ومنعش. من على هذه السجادة الفارسية الوثيرية يتشكلان وقوفا من جديد في مشهد إلهي بطيء. تدخل القطة "إيزيس" في هذه اللحظة. تقف تحثهما وتظل تدور حولهما بين أقدامهما مرات، كأنها تربطهما بشرط غير مرئي وتوؤكد هذا الارتباط بدورانها في شكل العلامة الlanهائية في الرياضيات. يقفن متقابلين وينطق لسان ليلى بما لم يكن مخطط لها في هذا اللقاء:

"زوجتك نفسى إلى الأبد على سنة كل آلهة المحبة الأزلية، وكل
رسلهم، وعلى صداق المحبة المسمى بيـنا!"

تقول ليلى هذه الجملة لآدم في صوت واثق عميق وهي تنظر في عينيه

بعشق لا يغيب، بعد فناء جسمها في جسمه، ذلك اللقاء الذي لم يكن ملطفا له إلا لترى مخطوطاته، ويعلمها - كما قال - كيف تقتل شبح الخوف الساكن فيها بالحرف والخط والنف والجمال.

"قبلت زواجك إلى الأبد ورضيت بك امرأة لما تبقى من عمري
على صداق المحبة المسمى بيتنا!"

يرد آدم بصوت قادم من أعماق روحه.

كان لهب الشمعة شاهد لهما وعليهما. اللهب في ركته يحتفي وبهتر راقصا. فتدبر القطة إلى جوار الشمعة وتستلقي في وداعه بعد أن أدت مهمه قدرية أوكلت إليها. كل شيء ساكن في خشوع؛ الجدران، الثريا المطفأة المدلاة من السقف، وقطع الأثاث خارج الغرفة. كانت ليلى تسأله بصمت:

"هل مارسا الجنس؟ أم مارسا الحياة في فعل الجنس؟"

لم تنشغل كثيرا بالسؤال، قالت لنفسها بما يشبه الهمس:

"مارسة الحاضر بعيدا عن فلسفة أجمل في هذه الحالة."

كانا ينظران معا للشمعة وإلى إيزيس ويداهما متعاشقتان. ترتعي ليلى في حضنه فيتعانق الظلان على الجدار في ظل واحد.

حتما قام آدم وحواء بالطقوس نفسه في لقائهما الأول على أرض الله!

2

بسم الله الرحمن الرحيم

فيينا في 30 مارس 2012

أختي العزيزة ليلي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله العلي القدير أن تكوني في أحسن صحة وأسعد حال

نحن بخير وكل شيء يسير على أحسن ما يكون بإرادة الله

أشكرك على الإيميل الذي وصلني قبل أسبوع قليلة بباركتك

بمولد ابني البكر عبد الله ونحن في غاية السعادة بالمولود الجديد

وفاطمة ترسل لك أطيب التحيات وتتمنى أن تراك قريبا

كيف حالك أرجو أن تكوني مرتاحه في عملك بالمدرسة الألمانية
وكيف حال زوجك فاروق لعله بخير. لم نتواصل منذ زمن طويل
وهل ما زال يسافر كثيراً إلى المانيا كيف أحوال حاتم ورانيا بارك الله
لهم وربنا يسهل لهم الأمور كما علمت من إيميلك أن الأولاد
سوف يذهبوا كالعادة في الصيف جدهم في الإسكندرية وفاروق
تعود على السفر إلى المانيا مثل كل سنة والبقاء هناك بعض الأسابيع
وأنت لا ترتاحي في المانيا وتتصايقي من دوشة الأهل في اسكندرية
والنسمة رغم انك تحبي المكان، لدى اقتراح وحل جميل متأكد من
انك ستتوافقني عليه بإذن الله

فاطمة كانت قد تقدمت لتحضير درجة الدكتوراه في جامعة
جراسن كما تعرفين وقررت الانتهاء منها هذا العام بإذن الله وعليها
أن تزور كثيراً من المكتبات في الصيف وتعكف على الرسالة في
البيت بجهد كبير وأنا كما تعلمي كثير العمل والأسفار وإجازتي
دائماً متقطعة وقصيرة وابتنا عبد الله جاء في وقت لم نرتب له لكنها
إرادة الله ولا راد لقضائه

أتمنى أن توافقني على الحضور في شهور الصيف الثلاثة للبقاء
معنا في هذه الفترة وسألولها لك صراحة أنا نتمنى أنا وفاطمة
أن تتمكنى من الحضور إلى فينا لرعاية عبد الله خلال هذه الفترة
بسبب تحضيرها للرسالة وأيضاً حتى تقضي معنا هنا بعض الوقت
فرحالتك السابقة لفينا قبل ثلاث سنوات كانت قصيرة جداً لم
 تستطعي فيها روئية كل ما عيت

انتهزيها فرصة واهربى من صيف القاهرة الحار واستمتعي بالوقت
معنا

مرسل لك كل الأوراق الالزمة للحصول على فيزا وعليك
بالإسراع بالذهاب إلى السفارة النمساوية في القاهرة وسوف تسر
الإجراءات على ما يرام إن شاء الله بلغى فاروق وحاتم ورانيا أطيب
تحية وألف سلام وأتمنى من الله العلي القدير أن يناسبك العرض
وتكوني عونا لنا ون يكون عونا لك تقبلي تحيات فاطمة وعبد الله
وأرسل لك آخر صور الأسبوع وسأتتابع معك من هنا أمور الفيزا
إن شاء الله

والسلام من رب العالمين ختام
أخوك
ياسين

* * *

عرجت ليلي على مكتب البريد في طريق عودتها من المدرسة و وسلمت هذه الرسالة، بعد أن ترك ساعي البريد إشعار الاستلام لدى جارتها منال في الدور الأول. حين تسلمت المظروف الأصفر السميك، تنهدت ارتياحاً أن الرسالة من أخيها. تخمنتها فخمنت أن بداخلها بعض الصور. فكرت أن تقرأها في البيت في هدوء، فالجو حار خانق والطريق مزدحم والضجيج مستمر بلا معنى، وهي مرهقة من يوم عمل طويل وترغب في العودة للبيت بأسرع ما يمكن.

لم تنتظر وصولها إلى البيت، بلهفتها المتعادة فضت المظروف في الميكروباص. كانت هناك رسالة وبضعة أوراق باللغة الألمانية عليها اختام، أعادتها للمظروف وسجّلت مجموعة الصور تتأملها بفرح أمومي، وهي تبحث في ملامح الطفل عبد الله عن ملامح ياسين أخيها الأكبر أو حتى عن أشبه له في العائلة.

سرحت مع الصور طويلاً. ثم أخرجت الرسالة لنقرأها، لكنها وجدت أن جارها في الميكروباص يشبّ برأسه بفضول وقع يريد أن يقرأ معها. أحسست به حين كانت تتأمل الصور. قرأت الرسالة على عجل وهي تخفيها. بمواربة عن عين هذا المتطفل. ثم أعادت كل شيء للمظروف وهي تتأمل أربعة طوابع كبيرة الحجم تشكل في مجموعة منظراً بدليعاً لقصر الشونبرون الرائع في فيينا. سرحت بذهنها إلى ذكريات رحلتها الأولى لهذه المدينة الساحرة! حتى أعادها جارها من فيينا إلى الميكروباص، كان يتزحّج ليلصق فخذه بفخذها. نظرت إليه فأشاحت بوجهه عبر الزجاج بسماجة غبية، فاضطررت لوضع حقيقتها بينهما.

* * *

قبل ما يقرب من ثلاثة سنوات سافرت العائلة كلها إلى فيينا، هي وزوجها فاروق وابنها حاتم وابنته رانيا في زيارة لمدة أسبوعين، لكن حاتم أصيب بتسمم من أكلة تونة في اليوم الرابع في أحد المطاعم. خضع بعدها للعلاج طال لأيام واستهلك بقية أيام الزيارة، وعندما شفى عادوا إلى مصر. لكنها تذكر تماماً يوم زيارتهم لهذا القصر مع آدم سراج الدين

الذي كان موسوعة في شرخه المستفيض الواضح لزمن القياصرة ولغرف القصر وتاريخه وحديقته الكبيرة والمائة ألف وردة التي تُزرع كل عام في بهو الواسع.

كان آدم يختار بلياقة المعلومات البسيطة الواضحة لترجمتها ليلى للعائلة. أشعرها وقتها بشقة لم توقعها أو تخيلها. صارت ممتنة له؛ خاصة وهو يتوقف عن الحديث عندما يتكلم حاتم أو رانيا ليتباهي لسؤالهما، على عكس ما يفعل فاروق أبوهما أو نتعل هي أيضاً في أغلب الأحيان. تتذكر جيداً أنه علمها الدرس الأول في كيفية الإنصات للطفل، وأنه يومئذ أصر على دعوة الجميع لأقدم حديقة حيوان في أوروبا داخل القصر الكبير، من أجل حاتم ورانيا!

دعاهم يومئذ إلى "جلوريت"، المقهى البعيد في الطرف العالي من ساحة القصر الذي كان يجلس فيه القيسرون وقت الأصيل لتناول القهوة. لن تنسى ليلى روعة المكان والنظر وهدوء آدم وطريقته وهو يكمل شرحه وردوده على كل الاستفسارات، بينما فاروق مهمتهم بالسؤال عن أسعار كل شيء ومقارنتها بالأسعار في مصر، مستغرباً من قدرة الناس على العيش في هذا الغلاء! لم تنس ليلى مذاق القهوة وقطعة الجاتوه "صاخر تورته" اللذيدة الممزوجة بحديث واثق وصوت مميز من آدم سراج الدين.

نسيت ليلى وجودها داخل الميكروباص وهي منسجمة مع متعة الذكريات. لسنوات شعرت أنها بعيدة وقريبة في آن، حدقت في طابع البريد وكأنها دخلت فيه بسحر، واستطاعت بسهولة أن تستعيد تفاصيل

أيام فاتنة وتسسلل عائدة إلى القصر. استغربت أنها تعرف لون عيني آدم بوضوح تام. شعرت بالتباس حين أرادت أن تتذكر لون عيني فاروق. التبس الأمر عليها وتشوّش تفكيرها. أصابها عبوس مفاجئ بينما السائق ينادي على اسم المحطة التالية.

قفزت ليلي سريعا من الميكروباص. كانت في سرحانها قد ابتعدت حوالي خمس محطات على الأقل عن محطة نزولها. لكنها ابتسمت بانتشاء أنها عاشت لحظات في عالم آخر رغم انحصارها في الميكروباص ورغم فضول بعض ركابه.

* * *

الحر الشديد جعلها ترکن إلى مقهى يجلس فيه رجال ونساء وشباب وشابات. أرادت أن تقرأ الرسالة مرة أخرى في هدوء وتطلع على بقية المحتويات. طلبت عصير ليمون وثبتت لو أنها استطاعت تدخين سيجارة في هذا المكان، لكنها تتوقع رد فعل الموجودين إذا تجرأت. تنازلت عن الفكرة واستبدلت التدخين بقطعة لبان، ثم فتحت المظروف. أعادت المرور على الصور بسرعة وقرأت الرسالة، فصدرت منها ضحكة مسموعة. لم تنظر لأحد من المحظيين حتى تئد بنفسها فضيحة ضحكتها.

ما أضحكها هو أسلوب رسالة أخيها. لقد تغيرت لغته. صار ياسين آخر. لم تعد له الشخصية المتمردة التي قاتل من أجلها في مصر، وسافر إلى دولة في شمال الكورة الأرضية ليعيش فيها بحرية. هذا الشاب الذي كانت له معارك مضنيه مع والدنا بسبب قمصانه الضيقه وبنطلو ناته الشارلسون

وشعره الطويل وسوالفه المتداة، ياسين الذي لم يكن يذهب أبداً للمسجد لا في رمضان ولا في عيد ولا حتى في يوم الجمعة، من كان يسخر من الشيوخ ويكره طريقة حديثهم ووعظهم، وكان يردد دوماً:

"إذا بدأت نبرة الموعظة تظهر فاعلم أن الناطق بها قد بدأ في الكذب!"

"ماذا حدث لك؟ ما كل هذا التغيير والورع يا شيخ ياسين؟"

قالت في سرها وهي تعجب من تحوله للنقض في بلد جديد بعيد لن يحاسبه على حريته، بينما كان يتمرد في بلد كان يحصي عليه أنفاسه! ثم تساءلت مجدداً:

"رسالة تبدأ بذكر الله وتنتهي بالدعاء كرسائل الناس العاديين كما كان يقول. ليس فيها لا نقطة ولا فاصلة، وما كل هذه الأخطاء الإملائية والحووية في رسالة واحدة؟ لقد كنت توبيخني على أخطائي الصغيرة حتى لم أعد أستطيع القراءة أمامك أبداً!"

جاءها عصير الليمون، شربت نصف الكوب دفعة واحدة. طعم الليمون وأسلوب الرسالة الورع أعادا إليها ذاكرتها كأنها قلبت صفحة كتاب؛ أيام بعيدة وغائرة لكنها تبرز الآن في وقتها المناسب بكل نصاعة.

استعرضت شخصية ياسين، لم يمنعه تحرره الذي ارتضاه لنفسه من محاربتها في ما تحبه، كأنه يخلع شخصيته المتمردة التي يتمتع بها على عباتها ويكون شخصاً آخر، تذكر تماماً يوم أن دخل إليها بهدوء فلم

تشعر به ككل مرة، لأن أمها لسوء حظها أسقطت قطرات من الزيت في مفاصل باب الشقة كي يتوقف صريره. تقوم عادة بهذا الفعل كل حين، لأن أصوات الأبواب تقلقها في نومها، لكنها لم تعرف أن أمها أيضاً أوقفت بذلك عالمة الإنذار التي تنبهها لوصول أحد إلى الشقة. دخل ياسين غرفتها فجأة، في الوقت الذي كانت فيه منكوشة الشعر، تربط شال أمها حول خصرها بعقدة على جانب جسمها الأيسر. ذراعاها تتماوجان في رشاقة، وساقاها منفرجتان وجسمها يهتز مع النغمات ويصل إلى حد الجنون، كانت منهنكة تماماً في الرقص، الهواية الأحب إلى نفسها آنذاك، وتجد في حركاتها تماهياً تماماً مع الوجود، تختار شريط كاسيت لموسيقاها المفضلة، التي تساعد عضلات جسمها على الانسجام مع النغمات. كان الرقص على موسيقى مقدمة أغنية ألف ليلة وليلة لأم كلثوم، كافياً لأن تقضي بقية اليوم مسترخية، ممتعة بسلام نفسي نادر، وكأنها نفخت عنها هواجسها المقلقة مع كل حركة.

قصة ليلي مع الرقص لم تكن جديدة على ياسين، عندما اكتشفت أمها موهبتها في الرقص كانت في الصف السادس الابتدائي، لم يكن صدرها نهض من مكمنه بعد، ولم تبرز لها مؤخرة، مع ذلك كانت تجيد تطوير جسمها بما يتلاءم مع توائر النغمات، في هذه المرحلة، وفي الصباحات العديدة التي زخرت بها الإجازات، كانت أمها تقف لتأملها مندهشة من موهبتها العجيبة، فرحة ومنبهرة بها وتتخشى عليها في آن. منها أختها كانت تطلب على سطح الترابيزة المتوسطة الصالة، والتي يتناولون عليها الطعام، بعد أن تزيح المفرش الكروشيه جانباً. بينما كان ياسين ينضم في

هذه الأوقات إليهم دون أن يشي مظهره بتحول سيحدث بعد سنوات، بل كان أحياناً ينضم إلى أخته، يخلع العصا من المقشة، ويدخل مندجاً راقصاً ببراعة في الدائرة التي ترسمها ليلى لنفسها، كأنها حدود، أو مجال غير مرئي لأحد آخر غير عيون حواسها. تنسى الأم نفسها وأعمالها المنزليّة وتتجذب لهذا الفريق السعيد وقلبه يرقص معهم فرحاً.

ليلي لا تذكر متى بدأ ياسين يُضيق عليها الخناق. بدأ بالكف عن الانضمام إلى جمعهم ثم بدأ انتقاده، لكن أمّه لم تلتفت في هذه الأثناء إلى تذمره، مما جعل حفلات الرقص الصباحية تستمر حتى انتهاء ليلي من المرحلة الإعدادية، لكن وربما لأسباب عديدة منها جدية ووسامة الرجلة التي بدا عليها في مرحلة لاحقة، ونفوره التدريجي من هذا النوع من البهجة، هو ما جعل الأم تنهي متعتها بهذه الأوقات وتنتاسها، مكتفية باجترارها كذكريات ماجنة، ثم انحازت تماماً فيما بعد لyasin في رفضه النهائي لرقص ليلى دون تبريرات.

عندما دخل ياسين كانت ليلى في ذروة الانتشاء، تنفس بحر كاتها ولفاتها حول نفسها كل ما من شأنه أن يضايقها، تسمرت فجأة محملة في أخيها، وهو يكبت غيظاً يكاد يفتك به، اتصلت نظرتهما وامتدت، توّقعت أنه سيزجرها بصوته ويخرج كالعادة، لكنه طور غضبه بما لم توقعه هذه المرة، امتدت يده عليها للمرة الأولى؛ صفعها بشدة، ونزع سلك التسجيل فقسمت فجأة، ثم خرج من الغرفة، وصفقَ الباب خلفه.

* * *

شعرت ليلي بسکينة تسرى كالنسخ في عروقها بعد أن شربت عصير الليمون. نظرت إلى ساعتها فوجدت أن الوقت يسمح لها بالبقاء لنصف ساعة أخرى. اجتاحها ارتياح غامض خمنت أن مصدره يمكن في الرسالة، فطلبت كوبا آخر من عصير الليمون. تبهت أن جسدها منذ أن جلست قد بقي في وضع استعداد وقلق غير مريحين، يحثانها على الوقوف والإسراع بالعودة إلى البيت دون سبب مقنع؛ فزوجها اليوم ذاهب للفرجة على مباراة – يعتبرها مصرية كما يقول – في استاد القاهرة بين الأهلي والزمالك وأصطحب معه حاتم الذي يحاول أن يربيه ليكون نسخة منه. رانيا عند خالتها منذ ثلاثة أيام بعد أن أغلقوا مدرستها عقب تصدع في بعض المباني والقصول، حتى يأتي الخبر لمعاينة المدرسة والسماح بعوده الدراسة مرة أخرى؛ إذن لا داعي لهذا الاستئثار المزمن في كل تأخير، هذا الإحساس المقلق لتلميذة تأخرت في العودة من المدرسة أو من عند صديقتها.

أعادت جسدها تدريجيا من حالة الاستئثار إلى ارتياح في الجلوس والبال. مرت نسمة نادرة في هذا الجو الحائق تهادت معها ريشة وسقطت على مائنتها. أمسكت الريشة تأملها، واستسلمت لخواطر تنزل عليها مثلما تهادت هذه الريشة. قدر ما بهم يرتب أحدها لا حول لها فيها ولا قوة. أحدها تجر الذهن نحو أفكار بعينها؛ نحو مكان بعينه؛ وربما نحو شخص بعينه، فقبل سنوات حين كانت في فيينا، دخل حاتم عليها المقهى يطير من السعادة بعد أن اقتنى مجموعة من ريشات الطيور النادرة مثبتة بشكل جميل على خلفية من الورق المقوى، كتب تحتها أسماء هذه

الطيور. يومها جرى حاتم من حضنها - بعد أن تفرجت معه عليها - إلى آدم الذي ترجم له معظم أسماء الطيور من الألمانية إلى العربية وأماكن تواجدها في القارات، لكنه اعتذر أن معلوماته عن الطيور ضعيفة لكن لديه موسوعة مصورة لطيور العالم كلها، سيحملها معه في مرحلة قادمة ليشرح لها التفاصيل التي يريدها. تعجبت ليلي من سكون وفرحة حاتم في حضن آدم وهو يكلمه كأنه يتحدث مع شخص كبير دون أن يخفي حنينه كأب. لم تر من فاروق تعاملًا مشابها مع حاتم. يسرق منه طفولته بحجة أنه رجل. هذا المنظر هز قلبها ولم يذهب عن بالها أبدا.

الريشة أعادتها لتلك اللحظة الموشومة في الذاكرة. استعادت تفاصيل اللحظة باشراح وامتنان. قبلت الريشة وفتحت حقيبتها ووضعتها داخل دفتر التليفون الصغير بعناية. وقالت:

"هذا فأل خيرا"

في حسها الداخلي لمع فرح ما من مكان بعيد وزمان أبعد، رغبت أن تسير أغواره بصدق، فمصدره لم يكن حتماً هذا الفرح بالطفل الجديد عبد الله، ولا بتوقع زيارة أخيها ياسين الذي لم تره منذ زيارته الأخيرة قبل عامين وبضعة أشهر، بل السبب الذي يجعلها متخففة هكذا هو فعل فكرة العودة مرة أخرى إلى فينا؛ العودة إلى مكان شعرت فيه بطيف سكينة امكان يشبه روحها.

فيينا؛ هذه المدينة التي هزت مشاعرها وسحرتها. تذكرتها مرات، وحاولت ألف مرة أن تتجنب بعض تفاصيلها أو تمحوها من ذاكرتها،

دون جدوى، بل اكتشفت أنها كانت تستدعيها لتهرب - عبر ذكرياتها القليلة النادرة فيها - من حالات الكآبة وما أكثرها في حياتها.

في استعاداتها المتكررة لأحداث فيينا، لم تقدر أن تفصل روح المدينة العتيقة بمعمارتها المميزة وعقب ترايئها وهدوء أهلها عن صورة آدم، هذا الشخص العجيب الذي أثر فيها بعصف أسئلته المباغنة وأفكاره العميقه وذوقه المختلف. لم تكتشف في آدم ما يؤكد قناعاتها عن نمطية الرجال وأنهم كلهم في النهاية رجل واحد منسوخ إلى ملايين. لم يمهلها فيضان أسئلته وقتذاك لتسائله: "هل هي عادته أن يلقي أسئلته الحائرة - كما قال - على كل من يلتقيه فيحيره، أم وجد فيما يبعث منها من موجات أثناء بقائه قربها ما جعل غريزة الفضول تنشط لديه دون سابق إنذار. هز هذا الإحساس المخالف من مسلماتها وأعاد إليها صفحة من الطمأنينة والأمنيات.

في ملل حياتها الطويل ثمنت أن تلتقي بشخصية مثل آدم. سئمت حياتها الرتيبة دون مبالغة من فاروق زوجها الذي تستغرب كيف وافقت على الزواج منه بهذه السرعة، ولم تتعرض على قرار أخيها ياسين قبل ست عشرة سنة، ليكون فاروق رفيق حياتها. هي لا تكرهه ولا تحبه. إحساس مؤلم أن تعيش دون أن يكون للأيام مذاق مميز؛ تتشابه الأيام معها كأنها تعيش نسخة مكررة من يوم واحد بلا طعم وبلا روح، ولا أمل في أضعف الأمنيات التي قد تقود إلى نوع من التغيير ولو حتى إلى الأسوأ! أما أن تستمر مع شريك دائم في حالة حياد عاطفي وفكري،

فستؤدي هذه الحالة مع الوقت إلى كارثة الخواء الروحي. كل ما خرجت به من دراستها لشخصية فاروق طوال الفترة السابقة أنها حفظت عاداته جيداً، متى ينام ومتى يوقيطه صياح ديكه الداخلي، ومتى يكذب ود الواقع اتهامه للآخرين بالتفعية دون استثناء، وحالته عندما يستغرق في تنظيف أنفه بإدخال إصبعه بالتناوب في منخاريه أو التجشُّو بفجاجة أثناء تناول الطعام. يفكِّر في نفسه أكثر من تفكيره في الآخرين، ويبالغ في الاهتمام بمظهره أمام الناس ويترك لها أسوأ مناظره في البيت. رجل لا يعرف أن التجمُّل للمرأة من دواعي سرورها وغبطة قلبها، وأن التودُّد لها يشحِّن نفسها وروحها بالقبول على الحياة. فشلت ليلَي في إرضائه وفي إراحة بالها برضاه. تغبُّش في ذهنها مغزى الزواج، وتنبهت لفداحة الارتباط المتعجل في مؤسسة الزواج وفي التزامبقاء المؤبد دون محنة. لم يتبهَّ مرة إلى زيتها وملبسها، بل لم يلتفت إن أطلَّت شعرها أو قصرتِه. لا يشيَّ على طعام أو شراب جهزته ولا حتى عطر فاح من مشارفها. كل شيء يسير بشكل روتيني قصير الأجل، حتى حين يمْدُحها الضيوف لما نادتها اللذيدة العاهرة، يزداد فخره كأنهم يتحدثون عن مطعم يمتلكه.

* * *

باغتتها فجأة حالة استنفار، ذاك الإحساس المقلق وفكرة العودة إلى البيت. تغير حال المقهى إلى ضجيج لأن المبارأة كانت على وشك البدء، دفعت حسابها سريعاً وحين تأخر عليها النادل، لم تنتظر بقية الحساب وانصرفت. بدا الشارع شبه خال من الناس. رفعت يدها فوق التاكسي

تحت يدها المرفوعة قبل أن تنزلها، ذكرها الحال بالأفلام القديمة، حين كان الشخص يغادر بيته وينادي: "تاكسى!" فيقف أمامه التاكسي في ثوان كأنه خرج من قمقم. فرحت بأنها ستكون في البيت بضع ساعات وحدها. توق لهذه الوحدة التي نادراً ما تتوافر لها.

الطريق كان هادئاً إلا من صيحات استحسان أو استنكار من المقاهمي المنتشرة على الأرضية. السائق أوقف شريط القرآن وحوّل مؤشر الراديو ليستمع لوصف المباراة وعينه على الناس بانتظار زبائن آخرين يتلقفهم في الطريق.

وصلت للبيت، اتجهت فوراً التأخذ حماماً ساخناً تهرب به من أفكارها المشوّشة، أو بالأصح لتغسل عنها كل هذه الأفكار التي تراودها منذ أن فتحت المظروف: هل تسافر؟ هل تبقى؟ وهل تسافر مع العائلة أم وحدها كما ذكر أخوها؟ في حقيقة الأمر كانت ترغب في أن تصفي أفكارها من شوائب الطريق واليوم والسأم، وتستسلم لحلم يقطنة آخر هي في أشد الحاجة إليه الآن.

حين انزلقت بخفة إلى ماء البانيو الساخن شعرت بارتياح وانسجام. كان الراديو الصغير في الحمام يبث بعض الأغانيات. قليلاً كانت الأغاني تشكل لها مجرد حاجز رومانسي ضد ضجيج الخارج، منذ زمن ليس قصيراً تعودت على وضع الراديو هكذا، حتى أنها لا تغلقه أثناء وجودها بالخارج، إن لم يطربها انتشار شدوه في الأركان أثناء غيابها، على روح المكان تستكين أو على الأقل يطرد شبح الكآبة الجاثم في البيت. مر موجز

الأباء دون أن تتبه له، بعده جاءت أغنية أم كلثوم (عودت عيني على رؤياك) انسجمت مع الأغنية التي لم تسمعها من زمن طويل:

| | |
|----------------------|----------------------|
| غضن الأمل وانت روبيه | زرعت في ظل ودادي |
| وافق هواه أنا حبيه | وكل شيء في الدنيا دي |

هذه الأغنية بالذات تعيدنا إلى طفولة بعيدة، بل تذكر صيفاً بعينه أرسلتها أمها ل لتحضر "عيش محمّص" من فرن حنا. كان بعيداً والطريق هادئ والعربات قليلة والأغنية تتبع كشعاع من نور من المحال والبيوت عبر إذاعة أم كلثوم. طوال الطريق كانت هذه الأغنية تصاحبها كلما عبرت على دكان سمعت المقاطع تتكرر إلى أن وصلت حتى فرن حنا. كانت في الأغنية تصدر من راديو بعيد من داخل المخبز رغم الضجيج. كانت في العاشرة، وقفت في الزحام. وقف جوارها صبي له رائحة صابون معطر، جنبه في جنبها متتصقاً بها من شدة الزحام ويحاول بصوته المسرع لفت نظر البائع ليأخذ منه النقود، هي تصرخ مثله. كان البائع يوزع الخبز على الكبار ويختار من الصغار من يعرف أهاليهم. التصاقها الجانبي بهذا الصبي النظيف أسرى فيها رعشة خفيفة جديدة عليها تماماً. رعشة داخل جذع جسمها سرت كموجة هادئة حتى انتهت من الأطراف. ابتعدت عنه لكنه بسبب الزحام عاد والتتصق بها جانبياً دون قصد. رائحته ودفء جسمه أثاراً فيها شعوراً الذيذا لم تفهمه. لم تعد تنادي مثله على العيش. صارت تتأمله بخفر ووجهه قريب جداً منها حتى لا تكاد ترى ملامحه من هذه المسافة. كانت تمد يدها بلا صوت. حين استلم الصبي الخبز، وقبل

أن يستدير، تنبه إلى أنها لم تأخذ خبزها. أعطتها خبزه لتحمله وقف بعيداً وسألها بكم تريده. أمسك النقود منها وعاد يسرع بصوت أقوى حتى حصل لها على خبزها. هذه البطولة الصغيرة التي قام بها شادي - وهذا اسمه - جعلتها تشعر بامتنان لننساه. مشياً معاً لمسافة طويلة تجاه بيته، ترددت في أن تسأله عن محل سكنه، واكتفت بتأمله والاقتراب منه واستنشاق رائحته بعمق. رافقها حتى بيتها البعيد، ثم قال لها إن عليه أن يعود فهو يسكن في درب الشهداء، خلف الفرن. حكى لها عن هوایته في جمع الطوابع. وصف لها مكان بيته فأوھمته أنها تعرف المكان. عاد وهو يلوح لها. ظلت تنظر له ورائحته العاطرة لا تفارق أنفها رغم ابعاده. في تلك الليلة حلمت به.

ظللت لأيام تمني قدومه بألبوم الطوابع. تمنت أن تقول لأهلها إنه صديقها الذي تعرفت عليه في الفرن، وتخبر أخاها أنه وسيم ورائحته عاطرة وأنه اشتري الخبز لها بنفسه وأنها تريد أن تتزوجه في المستقبل. صارت تشم الصابون الموجود في البيت بحثاً عن رائحته. سالت أمها مرة عن أنواع الصابون المعطر، فاستغربت الأم من مغزى هذا السؤال. منذ ذاك الوقت وصارت ليلى كل ليلة تستحضر رائحة عطر الصابون. تحلم بشادي أحلاماً وردية وتذكّر أولى دغدغات روحها عند الفرن، ولا تفهم معنى أن تسخن وجنتها هكذا حين تذكّر هذه اللحظات.

تذكر هذه الأحداث الصغيرة كحفة من الرمل، كلما أوغلت في التجربة وأضيئت الأعوام إلى عمرها ازدادت، حتى أصبحت خبرتها

كجبل راًبض، وكلما داهمتها الليالي القابضة تتساءل:

"هل تصل النساء جمعاً إلى النتيجة نفسها التي وصلت إليها أنا
في النهاية؟ وإذا وصلن إلى ما وصلت إليه: كيف يواصلن الحياة
مستمتعات؟ أم يخدعن أنفسهن؟ أم ترى أن جميع النساء مثلها
 مجرد جسد فارقه روحه؟"

وهي في الثانية عشرة جاءها الحيض للمرة الأولى، كانت يومئذ في حصة التاريخ. شعرت أولاً ببعض يكاد يفتك بالمنطقة أسفل سرتها، ثم بشيء ساخن يتسلل منها، هلت و لم تعرف ماذا تفعل، خشيت أن تكون قد فقدت سيطرتها على نفسها وأنها تتبول بلا إرادة. رفعت يدها للمعلمة تستأذنها أن تخرج للحمام، لكن المعلمة وبختها، وقالت إنها تهرب من الدرس وصارت تنهال عليها بكل الأسئلة، عليها فقط، وهي لا تعرف ماذا يحدث لجسمها، ولماذا هذا الكابوس، ولماذا تحولت المدرسة إلى ما يشبه الشيطان أمامها. بعد الحصة دخلت مدرسة أخرى استلمت من الأولى، ولما طلبت باستعطاف مذلول من المدرسة التالية أن تذهب للحمام، لم تسمح لها أبداً. ظلت جالسة مكانها يتسلل منها شيء ساخن، يبرد تحتها، وهي في قمة الخجل والانزعاج والخيرة. انتهت الحصة. جرى الجميع، بقيت هي لوقت طويل متختببة في دكتها. رفعت مريبتها فوجدت بقعة دم صغيرة بقعت سروالها الأبيض ونشعت على المريءة من الخلف. ذهبت لحمام المدرسة متخفية عن عيون أي أحد، حين دخلت انهارت في بكاء ونشيجه مؤلم. خلعت سروالها وبدأت تغسله من

صنبور الماء البارد وهي تنتصب، ثم خلعت المرييلة وطلت لوقت طويل
تحاول إزالة البقعة بماء بارد ودموع حارة. لبست سروالها وخرجت وهي
تشعر بقشعريرة.

أحسست أنه أطول زمان في تاريخها استغرقته في العودة إلى البيت، رغم
أن أحداً رعما لم يشعر بها، إلا أنه تهيأ لها أن كل من ينظر لمرييلتها
ويكاد يكتم تهكمها.

في البيت أرادت أن تخفف من أحمالها، تمنت حضنا يلملم ما تناثر من
روحها، سمعت عن العادة الشهرية، وعن الدم المتدفع دافنا بين الفخذين،
لكنها لم تعرف السبب، ولم يشرح لها أحد ما قد يعيتها إن حدث الأمر
معها. أمها لم تخفض صوتها وهي تحكي جارتهم عن هذا الحدث الذي
لا يستثنى بتاتاً، لكن ربها أصحابها بسبب تناقض المعلومات، رعب جعلها
تصدق أنها عندما أخبرتها:

”لابد أنك كذبت عليّ في شيء ولم تقولي الحقيقة، وهذا عقاب
ربنا، وكلما كذبت سينزف دمك حتى تخفي وتصير مثل أم
نوال المسلولة“

وأم نوال هي جارتهم العجوز المصابة بالسل. تسير بوهن وبانحناء
جانبية ولها سعال غريب الصوت يقبض النفس.

هكذا تربت ليلي منذ ذلك التاريخ على أن أي كذبة هي السبب فيما
سيصيبها من نزيف كل شهر، نزيف يمتص حياتها ويسحبها تدريجياً
للموت. لكنها كانت تستغرب، كيف يكذب أخوها كل هذا الكذب

البيّن - الذي تعرفه - ولم يُصبه يوماً ما أصابها. كانت تذهب مرات إلى "سبت" الغسيل، بعد كل كذبة تكتشفها له، ت يريد أن ترى مرة سرواله ملوثاً بالدم مثلها، ل تستريح من خلال هذه الموازنة الضمنية الأخوية!

وصلت لحالة نشيج من البكاء المكتوم وهي تستدعي هذه الأحداث. انتبهت إلى أن ماء البانيو قد برد، مستعبداً إحساسها يوم أن برد عليها سروالها المبلول والذي مرضت بعده بالتهاب مثانتها. فتحت صنور الماء الساخن فشعرت بارتياح وانتقال مؤقت لدفء من نوع آخر، يأتيها مع وصول صوت أم كلثوم البديع يكرر المقطع الذي يقول:

قربك نعيم الروح والعين
ونظرتك سحر وإلهام
عايشين على الأمل البسام
وبسمتك فرحة قلبين

تذكرة هذه الأيام البعيدة: الفرن ودغدغة روحها الأولى وشادي ورائحة الصابون، لكنها تأملت كلمات الأغنية من جديد. فابتسمت ابتسامة عريضة:

"ترى.. أين أنت الآن يا آدم؟ يجب أن أعود إلى فيينا. لابد أن
أوافق على السفرا"
هكذا قالت في سرها.

* * *

خرجت ليلي من الحمام منتعشاً، لكنها بقيت مشوشة فكريًا؛ فذكرياتها تداعى دائمًا بفوضوية حين تكون وحيدة. لا تستطيع أن

تحكم في مسارها. تستسلم كل مرة على أمل أن فتح الباب لبعض الذكريات قد يسهم في التخلص من الموجع فيها، وأنها قد تتمكن من الإمساك بالأبهى منها والإبقاء عليه، لكنها تفشل دائماً، ويرهن لها الزمن أن الذكرى السيئة ما زالت قادرة على طرد الذكرى الطيبة من الذهن أو على الأقل تشويهها.

الأغنية نفسها التي ذُكرَتْها بالرغم من الجميل نفعتها بذكرى أخرى أليمة، اعتقدت أنها تجنبتها وهي في البانيو وأزاحتها لمكان بعيد. أغنية أم كلثوم نفسها التي كانت تملأ الشوارع والحرارات والبيوت وتخرج من كل نافذة وباب في هذا اليوم البعيد. تتذكر الآن ذاك اليوم الخريفي الذي عادت فيه من المدرسة، كانت في الثالثة عشرة، وفي أسبوعها الأول في المدرسة الإعدادية، سعيدة بمريلتها الزرقاء الجديدة وبلوزتها البيضاء وضفيرتها السميكة السوداء ذات الشرائط الحمراء، كانت تردد كلمات الأغنية بشكل خاطئ لكنها سعيدة ومنسجمة باللحن، كان الشيخ عزوز جالساً أمام بقالته والراديو يطلع بالأغنية نفسها لأم كلثوم، متربعاً على مقعدة الواطئ يتأمل المارة ويقوم لتلبية احتياجات المشترين ببطء ولا مبالاة. ينشط دوماً بمجرد سماع الأذان، يقوم بطقوس الوضوء باستعراض يعرفه أهل الشارع. يصب من إبريقه على كفيه وقدمه أمام محل متتمماً بأصوات عالية يعقبها تحضارات وبقص، ليذهب بعدها إلى الزاوية القرية تحت إحدى العمارات الحديثة لأداء الصلاة، ثم يعود بعدها ليفرّ مسبحته مغمضاً عينيه عائشاً داخل أوراده في عالم آخر. نعمته الناس بـ"الراجل البركة". حتى أبوها وأمهما ييجلانه باستمرار بالصفة

نفسها ولا تسمع منها اسمه إلا بهذه الصورة.

هذه الصورة التي رسمها لنفسه في عقول الجميع جعلتها تردد في إخبار أحد بما فعله معها ذات ظهيرة، فمن ذا الذي سيصدقها! هي لم تفهم وقتذاك أسباب تلك الأنفاس الساخنة والارتكاك الذي شمل حركته، فبدا كما لو كان شخصية مذعورة تهرب من أسد داخل فيلم كرتوني. حدث كل شيء بعد أن عرجت على دكانه لتشتري "فضّام"، الخلوي التي تعشقها. سالت الشيخ إن كان عنده "فضّام"، فأكمل أوراده وهو يبرش لها بعينيه بما معناه: "نعم" وقفت خلف الفترينة تشبّث بحثاً عنه. قام ودخل المحل وطلب منها أن تدخل لتساعده، ووضع لها سلماً قديماً مربوطاً بدوارنة. دخلت وصعدت وهو يدعى أنه يسند لها السلم حتى لا تقع. سندتها في الصعود وأوحى لها أن الخلوي هناك، كلما صعدت درجة أشار إلى رف أعلى، لكنها لم تجده شيئاً، داهمتها إحساس غريب لم تعرف ما هو توجست، أحسست بغرابة نظره، ثم شعرت بأن إصبعه الغليظ ينغرز في فلق مؤخرتها بالتحديد. نزلت من السلم مهرولة بينما كان يقترب منها ويزنقها في الحائط وسط المعلمات والجوالات، ويده تسحب يدها الصغيرة لتحسس قضيبه، الذي كان في هذه اللحظة يتورم من تحت جلبابه بشكل غير مفهوم لها، بينما يده الأخرى تعصر صدرها وتفرّك حلمتها. قبل أن يسحبها بقبضته الغليظة من رقبتها ليقرب وجهها من الكائن العاشر في الظلام، أفلتت وعبرت كعادتها من تحت "البنك" وخرجت إلى الشارع، محاولة استنشاق أكبر قدر من الهواء تنسى به رائحة كريهة تزكم الأنف تشبه رائحة الغراء.

اختلط في ذهنها ما حدث لها مع شادي قبل عامين من هذا التاريخ. اختلطت رائحة الصابون مع رائحة غراء كريهة، وذكرى دغدغة التلامس الطفولي مع الإصبع الغليظ المنغرس في مؤخرتها؛ ملامح شادي وملامح الشيخ عزوز؛ إضافة إلى خوفها من التصرير بما حدث لأحد. هل كان عليها أن تخبر ياسين، أو أختها، أم أن ما حدث لها عيب لا يجب أن تصرح به، هل كانت مخطئة لأنها تعشق الحلوى أم لأنها دخلت الدكان أم لأنها وافقت وصعدت السلم، أم لأن الشيخ عزوز وجد في جسمها ما أثار شهيته. هذه الحكاية تحديداً تمددت في وعيها أكثر من حجمها الطبيعي، أعادت إنتاجها عشرات المرات، وساهمت دون قصد في إنتاجها قبل الأوان، لم يكن لها التأثير السلبي كما يقول علم النفس، هذا ما أدركته بعد عشر سنوات من حدوثها، لكنها ساعدتها على أن تضع كل لفتة يقوم بها أي رجل على لوح التشريح، وجعل لقصص التحرش أولوية عند الحكيم مع صديقات المدرسة، وأصبحت هو ايتها الإنصات للموضوعات الجنسية التي تحكيها البنات للتعرف على هذا العالم، حتى في مبالغتها عن قياس قضبان الرجال والأولاد ووضعيتها أسفل الملابس.

"لا بأس!"

قالتها لنفسها - لأن كثيراً من الواقع التي مرت تحت بصرها أو صلتها إلى حقيقة مهمة فيما بعد - إن عقل الإنسان عضو معطل عند الغالبية، وأنها كي تخرج من دائرة الناس العاديين يجب أن تستخدمنه، واكتشفت أنها في أوقات الضيق والضجر بالحياة، تغور إلى ذكرى بعيدة تثير فيها

أحساس ضاعت منها طويلاً: البحث عن هذا العقل الذي يشاركها ولو جزءاً يسيراً من أفكارها المهملة. تقب عن هذا العصف المباغت اللذيد الذي يدغدغ الفكر عبر أسئلة تعيد ترميم ما ضاع في رتابة الحياة. لقد سُمِّت عبر سنوات طويلة سماع الأوجبة السطحية المكررة المتداولة المخدرة. تحتاج الآن إلى من يفهم روحها ويرم ما أصابها من عطب.

لَا تدرِّي لماذا أصبحت تربط فيينا منذ أن زارتَها، يمكن أقدم في خيالها يطلق جمود التحدي في الحياة؟ يطلق أسئلة بلا هواة تشکل في كل شيء وتعيد ترميم الأعمدة البالية، أو تدميرها وإنشاء غيرها.

بهذا الإحساس المخدر، أرادت أن تقترب من فيينا عملياً، أن تبحث عن السبيل إلى التسليم الذي يخفف من تنهداتها. راحت إلى الباب توب فتحته وبحثت عن الرحلات المتجهة إلى فيينا. أرادت أن تستعلم عن مواعيد السفر، أن تتخذ خطوة واضحة للشروع في التنفيذ. وجدت رحلة يومية تتجه من القاهرة إلى فيينا بعد الظهر، لفت انتباها أن الرحلة تحمل رقم 797. تأملت الرقم وأوقفت الشاشة عنده، لا تدرِّي ما السبب الذي جعلها تستريح له، وجدت فيه سحرًا ما يجذبها. كأن هذا الرقم هو مفتاح لباب جنة قرية قادمة أو بعيدة آتية؛ إلى جنة آدم، رقم سيحملها إليه لتشعر بأمان نتفقده. أراحتها أكثر غيبوبتها السريعة مع رقم الرحلة 797. أحسَّت أن الرقم 7 يمثل آدم وأن الرقم 9 يمثلها هي، تهيا لها رمزاً يحوطها به آدم. أراحتها هذا، اكتفت به شعوراً يغمرها بطمأنينة. نسيت بقية المعلومات التي كانت تبحث عنها.

على المائدة استقر المظروف الأصفر السميك بانصور وأوراق الدعوة إلى فيينا، رفعته لتأمل الطابع الملائئ مرة أخرى، الطابع العريض الذي يصور قصر "الشونبرون" قربت الطابع تدريجيا حتى أنفها، كأنها أرادت أن تشم عطر هذه الحديقة - الجنة ذات المائة ألف وردة التي تعطى فناء القصر كل عام، ربما أرادت عبر خيالها أن تمحو برائحة هذه الزهور، ولو للحظات، ذكريات الروائح الكريهة العالقة التي لا تخلص منها الذاكرة بسهولة!

3

يَا وَيْلِي لَوْلَيْ لَاهِ بِلَلَّيْ
فَمَا جَدُوا إِلَّا فَوَادَ وَالْهَيَامُ سَرَابٌ

تأمل آدم هذا النص المنسوخ بالخط الثلث البديع على رقعة جلدية عتيقة بيد خطاط متمكن، الحروف بدت باهتة والرقعة متهرئة، كان واضحاً أنه قد أسيء حفظها. قدمها إليه مدير المكتبة ذاك الصباح، وقال إنه حصل عليها من مكتبة "خسرو بك" في البونصة، التي تحوي الآلاف من المخطوطات القيمة النادرة بالخط العربي والتي يرجو أن يكفر بترميمه لها - وإعادتها لهم بعد ذلك - عن سينات الغزوات المساوية قبل أربعة قرون، تلك التي أتلتفت واستولت على الكثير من المخطوطات قبل أن

تعرض مجددا للعدوان الصربى على سراييفو في الفترة من 1992 إلى 1995 حيث وُجهت فوهات المدفع نحو المكتبة وأحرقت مجددا أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطه.

استفسر المدير عن معنى النص.قرأ آدم النص بصوت مسموع ثم ترجمته له. فسأله:

"هل تعتقد أنه بإمكاننا أن نرم هذه المخطوطة؟"

ابتسم آدم وقال دون أن يفكر كثيرا:

"من أجل ليلي لابد أن ننقدها!"

استغرب المدير:

"ومن تكون ليلي؟"

"هي صاحبة هذه المخطوطة"

رد آدم وهو يبتسم تلك الابتسامة الهدائة، ولم يفهم المدير الذي كان متوجلا، فسأله:

"كم من الوقت ستحتاج لترميمها؟"

"ليس أقل من أسبوعين. ستحتاج لتحليل وفك دقيق، وستحتاج لمواد ليست كلها بحوزتنا الآن."

"أطلب كل ما تحتاج. سنوفره لك."

خرج المدير مختالاً؛ فهو يعلم أن لديه أفضل مردم عربي في أوروبا كلها.

عاد آدم يتأمل النص بروية، فالخط منسوخ بشكل بديع لا يُضاهى، لوحة فنية تجذب الأنظار. أحمسَ بانشراح خفي يراوده ويعيده لسنوات قليلة ولّت. أعاد القراءة مرة أخرى بتأنٍ:

يَا وَيْلِي لَوْلَيْلِي لَاحِبَّلَيْلِي فَمَا جَدُوا فَلَوْلَيْلِي سَرَابٌ

انتبه إلى اسم ليلي. قرب وجهه كثيراً من الاسم الذي بدا باهتاً وبقي لحظات كأن سحراً مسه. تساؤل:

"ترى كيف حالك يا ليلي الآن؟ وهل سأراك مرة أخرى؟"

سرح بذاكرته عبر المخطوطة المتهلة راغباً في ترميم مقطع من ذاكرته. تذكر الحوار الطويل الأول مع ليلي قبل سنوات، حين رافقها لمحفظ تاريخ الفنون في فيينا. كانت مفتونة بشكل المتحف ومعماره الداخلي، وظلت تتوقف كثيراً وتدور حول نفسها، تنظر لأعلى وهو ينظر إليها وإلى ما تنظر إليه، ويشرح من تلقاء نفسه ما يلمحه تساولاً في عينيها. أخذها أولاً لقسم المصريات في الدور الأرضي. تعجبت ليلي من كمية المقتنيات من التماثيل والمواميوات المصرية في هذا القسم من المتحف. سأله:

"كيف تم نقل كل هذا إلى هنا؟ ومن سمح بهذا؟"

"هذا حديث يطول، لكن ليس هناك حاكم واحد في مصر احترم تاريخ القدماء كما يليق بهم أو كما يجب، الكل تاجر بالتاريخ

العرق مقابل تاريخ قصير الأجل لا يدوم! كل من حكم تنازل عن
بهاء تاريخ يخص كل الناس لمصلحة نخبة من الحمقى!

لما رأى دهشتها تف ips من وجهها مزوجة بأسى، تابع:

"لا عليك! فمن يعلم؟ ربما هذا التزييف من الآثار إلى أوروبا
رحمة لها من الضياع والإتلاف، فمن أدراك، ربما يأتي يوم
يطالبون بدمير هذه 'الأصنام' ومحو هذا التاريخ من الوجود!"

ضحك ليلي وقالت:

"فعلاً! لا كرامة لصنم في وطنه!"

صعداً بعدها للدور الثاني من المتحف، اختار لها البدء بأهم القاعات من وجهة نظره، وبدأ يشرح لها اللوحات الشهيرة بالتفصيل لوحات "روبنز" و"برويجل" و"بوش" و"فيرمير" وغيرهم من رسامي أهم حقب الفن. كان يتراكمها تقرأ بنفسها المعلومات الواردة تحت كل لوحة. ثم يضيف أهم ما يتعلّق باللوحة من تفاصيل نادرة أو منسية.

يومئذ أرادت عائلة ليلي أن تشاهد متحف التاريخ الطبيعي على الجانب الآخر من ساحة الإمبراطورة ماريا تيريزيا، والذي يحوي أيضاً كمية نادرة من الحيوانات والطيور المحنطة وبين مسار الحياة الطبيعية منذ أول التاريخ، ولما كانت ليلي لا تحمل رؤية هذه الكائنات المحنطة وترى في تحنيطها شططاً، اتفقوا على أن يذهب زوجها فاروق مع حاتم ورانيا لمتحف التاريخ الطبيعي، وهي ستذهب مع آدم لمتحف تاريخ الفنون

ويلتقيون جميعاً في كافيه متحف الفنون الداخلي.

"هل راق لك المتحف ومقتباته؟"

سألها آدم بعد أن انتهيا من مشاهدة لوحات نادرة في ست صالات كبيرة، فردت:

"متحف تجاوز الروعة، لكنه تاريخ ميت!"

تعجب هو من المبالغة:

"هذا صحيح، لكن من التاريخ الميت نستعيد الحياة."

ثم باعثها بسؤال بدا كأنه لا علاقة له بأي حديث:

"ما الأهم بالنسبة لك في حياتك شخصياً: الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟"

صمتت ليلى طويلاً، حتى تخيل أنها استقلت سواله أو أنه تجاوز بفضوله منطقة شخصية، فدعاهما للذهاب إلى كافيه المتحف المستدير الذي ستقلي فيه العائلة فيما بعد. المقهي هو أيضاً قطعة فنية داخل المتحف بتصميمه العماري البديع. كان الضوء ينساب من طاقات عالية على الأرضية المرمية ذات الرسومات البدعة بالأسود والأبيض المتناقضة والمنسجمة بإدهاش مثير في آن.

اختار ركنا هادئاً وسألها عما تشرب، قالت:

"قهوة."

ضحك وقال:

"لا تثيري غضب النادلة المساوية، فهي ستسألك: أي قهوة
تريدين؟ وستسرد عليك أكثر من عشرة أنواع في جملة واحدة
لا تستغرق عشر ثوان، ستجعلك من المخرج تطلبين أي نوع
احتفظت به ذاكرتك من جملتها وربما يكون آخر ما نطقْت به!"

"آخر لي أنت!"

أنت النادلة فعابها بعزة سريعة بالعامية الفييناوية، لم تفهم منها ليلي شيئاً، وطلب قهوة "دوبل اسبريسو" راق لليلى هذا الاختيار؛ فهذه بالفعل قهوتها المفضلة. فجأة ردت قائلة كأنها تقرأ من كتاب:
"الماضي هو الأهم لا يمكننا أن نخلص منه، وهو في الغالب ما يحدد المستقبل.

ارتاح وجه آدم لردها الموجل؛ ومحا فوراً فكرة تجاوزه خطأ أحمر عندها، فتابع دون مقدمات:

"جميل، لكن هذا تصريح لا يجيب على سؤالي صراحة!"

هزتها مبالغته للمرة الثانية، فهو يسأل بذكاء أو بدءاء ويضرب على وتر حساس بعاصفة من أسئلة مقلقة لا تشغله كثيرين. فكرت في هدنة من الرد بأن ترمي إليه بسؤال:

"ما رأيك أنت: ما الأهم بالنسبة لك في حياتك شخصياً: الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟"

"الحاضر طبعا!"

رده أتى واثقاً. أحسست ليلي أنها أمام شخص مختلف، تفكيره مختلف، حديثه مختلف، وبالتأكيد لديه ماض مختلف. فضولها انتعش، فقررت أن ترمي له بحزمة أسئلة متواالية، قالت:

"كيف يكون الحاضر هو الأهم؟"

"الحاضر وهم الماضي والمستقبل معاً، ومن يعيش في الماضي فقط فسينسى حاضره، ومن يعيش مربوطاً بالمستقبل المجهول فقط فلن يعيش حاضره، سيظل في محطة ترانزيت متظراً الانتقال إلى وجهة ما، ومهما طال الانتظار فسيكون طوال الوقت مستعداً للمغادرة غير آبه بحاضره الذي يمر. الحاضر هو الأهم!"

هكذا انساب رده جاهزاً حاسماً. قالت ليلي في سرها:

"با لك يا آدم، وما أصدق كلامك! لقد ضربت على الوتر الموجع، أنا فعلاً لا أعيش حاضري، فاروق - إضافة لكل ما مر بي قبله - هو الماضي الثقيل الذي أجرجه، وحاتم ورانيا هما المستقبل الذي أدفعه أمامي وأنظر إليه برهبة خوفاً لا يصر كما أتمنى. وأنا الحاضر، نعم أنا الحاضر المائع الراكد. حاولت ألف مرة أن أعيشه لكنه أرهقني وهدّني أكثر مما هداني. كلما أردت أن أعيش حاضري فراراً من ثقل الماضي، وجدت نفسي أنساق إلى حمّاقيات مؤقتة، تجتمع في رصيد الماضي الثقيل وتصب أحمالها

على عبات المستقبل. أنساني نفسي وجودي ولا طاقة لي على التفكير فيما إلا بما يؤمن تسخير حياة من هم حولي!"

كأن آدم قد تنبه إلى ارتكابها، لكنه لمح ارتياحا على محياه، أنزل سؤالاً صريحاً، كأنه يقرأ وجهها:

"هل خنت نفسك من قبل؟"

"الخيانة أمر نسبي والصدى أيضا!"

نعم لكننا نتعلم من الخيانة أكثر مما نتعلم من الصدق، والصدق ليس عكس الخيانة.

"كِفْ؟"

"لأن الخيانة تربين يهز الروح حتى تستقيم وتغفر وتصح المسار
فترتاح، الصدق يثبت القلب!"

نظرت له طويلاً وهي تراجع كلامه في ذهنها وترتبه، لكنه أكمل:

"لم تفعل أشياء نفقينها، لكنك كنت شبه مجرة عليها؟"

ضحكت ليلی بصوت عال:

"نعم. كثيرا!"

"هذه خيانة للروح، ويسمىها البعض بالخطأ: تصحية من أجل الآخرين!"

صمت ليلي وعادت للنظر في عينيه بعمق، فتابع:

"ألم يتهور قلبك ويتقلب، فسررت خلفه حتى آخر باب مغلق
وعدت منكسرة؛ رجعت ربما بخبرة التجربة، ولكن بانكسار
القلب، ألم تجريبي هذا؟"

أحسست ليلى بأن كلاما هزها من أعماق وجданها، كلاما على خلاف خواص الحديث مع الآخرين. أحسست أن شخصا بدأ يحرك ساكن البحيرة الغافية بداخلها. أحسست بأنها تريد أن تنصت للمزيد وأنها تخشى في آن أن يزید.

وكانه شعر باضطرابها، وبأن جرعة مشاهدة مقتنيات المتحف وما
تلها من جرعة الغوص في أعماق العقل والقلب والروح قد صارت
مكشفة. أراد أن يخفف عنها؛ فغير دفة الأسلة:

"هل تلعبين الشطرنج؟"

"علمني أخي قواعد اللعبة وأنا صغيرة. ولما أحسنتها، كان يضايقه أنني أفوز عليه، فكان يلجأ للغش ومحاولات تغيير قواعد اللعبة لصالحه.

"طيب، تخيلي نفسك تجلسين الآن داخل أحد مربعات الشطرنج. لو سألك ماذا تختررين أن تكوني من قطع الشطرنج؟ فما ردك؟"

ضحك ليلي ضحكتها الأخاذة:

"لا تلاحظ أن لعبة الشطرنج عنصرية؟"

"لماذا؟ كيف؟"

"يحرّبني هذا السؤال: لماذا دائمًا تكون أول حركة للأبيض؟"

ابتسِم آدم ابتسامة بطيئة ومد يده لفنجان الإسبريسو ولم يرد. ساد الصمت لحظات لكنها أعادت الحديث لمجرّاه:

"على كل حال، لو كنت جالسة داخل أحد مربعات الشطرنج، فلن أقبل إلا أن أكون الوزير الذي له حرية الحركة في كل الاتجاهات. لقد لعبت طوال حياتي دور البيدق وتقدّمت نادراً ومت كثيراً، وأحياناً مت في موقعٍ قبل أن أتحرك. اضطربت مرتين أو ثلثاً أن أكون حصاناً يقفز للأمام وللخلف دون خطة محكمة، لكنني أيضاً كنت أغادر الساحة مبكراً، ولم أحب الفيل لأنه أحادي الحركة!"

أنصت آدم لها بانبهار، ثم سألهَا:

"وما رأيك في الملك؟"

"بسبيه يموت الجميع على الدوام، ويقي هو. والغريب أنه يعتبر نفسه فائزًا، حتى لو تعرّى عن كل شعبه!"

"سأقول لك معلومة ربما تفرح المرأة في داخلك يا ليلي. نحن لا نسميه الوزير هنا في النمسا، بل نقول الملكة!"

"صحيح؟ هذا تغيير منطقي، لعله نابع من الحركات التحررية
النسوية!"

"لا أعتقد، والملكة هي الأهم والأقوى في الساحة، خروجها
يعجل غالبا بموت الملك!"

"إذن أفضل أن أكون ملكة لبعض الوقت. لكن أي قطعة تختر
أنت؟"

"رغم أنه ظالم في أغلب الأحيان، لكنني لن أكون سوى الملك!"
رد آدم بعفوية كأنه كان يتوقع السؤال.

القهوة كانت ألد قهوة، وكلام آدم كان وقعه على ليلي مربكا مدهشا
ومثيرا. بدا لها شخصا استثنائيا في مكان استثنائي وزم من استثنائي. هذا
الشعور يجعلها تتوتر، فكل ساعة تمر معه تكشف عن سلوك رجل يجذبها
إليه برفق دون أن يشعر. عادت ترقبه أثناء شرب القهوة والضوء يتسرّب
من طاقة بعيدة على رأسه، فيجعله مثل ملاك هبط من لوحة من لوحات
"روبنز" التي شاهدتها قبل قليل. كان انغماسه في قراءة بعض البيانات من
كتالوج في يده فرصة لها لتأمله بشغف غير محرج وتسمع صوته وهو
يعد إليها زمان مراهقة الأذن الجميل. كانت تصمت كثيرا للتتصت لصوته
المخدر والنبه في آن. نغمة الصوت التي فعلت فيها تغييرا لم تدركه ولم
 تستطع التهرب منه.

تذكرت في هذه اللحظة أخاها ياسين المقيم في المدينة نفسها؛ في فيينا. اضطرت للمقارنة العفوية، فياسين حين يتكلم لا يترك فرصة للآخر ليعبر عن رأيه، بل كثيراً ما يسأل هو ويرد على سؤاله، والأكثر غرابة هو تحوله إلى النقيض بعد أن انفتح منه تماماً فكرة المساواة بين الرجل والمرأة التي تبنّاها لسنوات ونادي بها في شبابه طويلاً، ثم تذكرت فاروق الذي لا ينافقها بأي حال من الأحوال في أي أمر فكري، بل أمروره كلها مادية وجافة وفقيرة. ولعه بكرة القدم أفسد معظم الساعات الهنية في البيت. هي قارئة نهمة لا تستطيع أن تناقشه فيما تقرأ، فهو لا يقرأ كتاباً، بل الجرائد فقط ويتبني كثيراً من أفكار الأخبار الطائشة وتحمّس لها في نقاشات كأنه في معارك، أخبار كرة القدم والحوادث والجرائم والإشعارات والفضائح هي فقط ما يتوق إليه. كانت تمنى أن يستطيع عقلها الزواج من عقله ولو كل حين. هي لم تكن تحب التلفزيون كثيراً بل تعشق الراديو لذا فالإذاعات لديها من المقدسات.

أغلب ما يفعله آدم معها - دون أن يدرى - لم تتعود عليه، ولم تتوقع أن تتجده سلوكاً في بشر، تراه في الأفلام فقط. ذلك الرجل الذي يستأذن المرأة حين يقوم بعض الأعمال لها، دون أن يشعر أن هذا ينتقص من رجلته بل يعبر عن قدرته وكياسته. لقد قال لها آدم اليوم كلمة: "ما رأيك؟" أكثر من عشرين مرة. ينصت للرأي ويناقش فيه حتى لو كان مخالفًا لوجهة نظره. تقارن بين هذا التصرف وبين تصرف فاروق الذي لا يستأذنها في أي شيء، حتى حين يصافحها يدخل عليها كالثور الهائج، يطرحها في أي مكان ويهرسها ثم يقوم منتثياً أو ينام خائراً. تشعر في كل مرة أنه

يغتصبها أو ينتقم منها، فإذا كان شخصا لا يعرف المداعبة أو التمهيد في أمر يخص الجسد؛ فكيف سيعرف تمهيدا في أمر يخص العقل!

في الوقت نفسه، لدى آدم سطوة مستترة لا يمكن مقاومتها؛ فحين قامت فجأة من مكانها تجاه نادلة المقهي المشغلة والتي كانت تتحرك في المكان مثل نحلة. لم تتبه النادلة لها وابتعدت، فتوقفت ليلي حائرة. قام آدم إليها يسألها عما حدث. قالت:

"لا شيء، كنت أسأل عن دورة المياه!"

"ولم لا تسأليني قبل أن تقومي؟"

رد عليها بحزم غاضب. صمتت، فتابع بصوت حاسم:

"أكلمك! لم لا تردين؟"

الجملة الآمرة والسؤال الغاضب أشعرها بحرج ونظرته مصوبة إليها في عينيها بطريقة لم تستطع أن تجاوبها. أصابها إحساس مربك ومفرح في آن. ردت عليه معتذرة وهو يشير بيده إلى الاتجاه الآخر محل دورات المياه.

انتقلت في خطوات مرتبكة نحو دورة المياه. تأملت وجهها في المرأة، حمرة لا تشبه الحجل تطغى على ملامحها. حالة ارتياح دفين من طريقة حزمه وأمره، لم تكن تخيل أن توافق هوها. شيء غير مفهوم فيه سطوة تستشعرها وتتمناها منه. يروق لها هذا النوع من الجسم والحزم، يوافق ماء ساكنا فيها. حسم العارف، لا حزم الجاهل والمتطي رجولة

زائفة. استغرقت من اكتشافها هذا الشعور الدفين فيها، خرجت إليه أكثر تألقاً.

بادرته بسؤال عن طبيعة عمله كمرمم. معلوماتها عن ترميم الكتب تحصر في تجليدها وإعادتها لشكل أكثر بهاء، لكنها أرادت أن تعرف على بعض التفاصيل. اضطر لتأجيل الرد لحظات مع دخول فاروق وحاتم ورانيا إلى المقهى بضجة وبهجة. ثم رد عليهما موجها الحديث للجميع:

"أدعوكم غداً لزيارة ورشتي في قسم المخطوطات بالمكتبة
الوطنية، ثم لزيارة صالة المخطوطات لرواية الكتب النادرة!"

في طريق العودة كان حاتم ورانيا يسردان عليهما ما شاهدا في المتحف وهي لا تعى ما يقولان. كأنها تركت عقلها عند آدم منذ أن فارقته. استعادت في بيت أخيها صورته ببطء ولم تركز في الأسئلة الكثيرة عن تفاصيل يوم مدهش في فيينا. تركت فاروق يثرثر لياسين عن اندهاشه من ارتفاع الأسعار. استاذنت لتذهب إلى الحمام قائلة للجميع إن المشي كان مرهقاً في ذاك اليوم. نزلت إلى ماء الباينيو الحار أكثر خفة وسعادة. خطوها في الماء الساخن جعلها تشعر بأنها تخطو إليه؛ إلى آدم؛ إلى أسئلته؛ إلى صوته؛ إلى نظره؛ إلى وقوته. الأحسيس المربيكة تعاودها من جديد لا تعرف هل تتوقف أم تكمل. اعتادت أن تتوقف عند اعتاب الفرح والبهجة الذهنية كأنها ستذنب لو تمادت في ذلك، لذا تحقق في إكمال الخيال وتعويض قسوة الواقع. ابتسمت بعمق حتى سمعت صوت ضحكة قصيرة صدرت منها، حين تذكرت أن في الغد موعداً جديداً سترى آدم

فيه. خرجت من الحمام خفيفة مبتهجة كفتاة في السابعة عشرة!

* * *

في اليوم التالي التقوا جمِيعاً عند مكتبة المخطوطات كما وصف لهم آدم على الخريطة. صعدوا معه لورشه المكونة من ثلاثة غرف: غرفة أولى ضيقة إلى حد ما، ذات إضاءة ساطعة عليها مائدة عريضة شبه مائدة، وغرفة جانبية مواربة تبدو كمخزن، تليها غرفة واسعة ذات إضاءة ساطعة حوائطها مزينة بمخطوطات ولوحات فيها ثلاثة موائد عريضة مختلفة الأحجام، الموائد مجهزة بأدوات شبه هندسية: مساطر ومحابيات وأقلام رصاص وأخبار وأوراق وصمع وخيوط وأسلامك ودوبار، وأخرى شبه طبية عليها مشارط حادة وقوارير بالوان وزيوت، إلى جوارها جهاز زجاجي شفاف غريب المنظر، شرحه لهم بأنه لشفط وضغط الهواء وهو ضروري لعمليات فصل الأوراق الملتصقة وتحجيف المخطوطات يسمى "فراغ". شرح لهم طبيعة العمل بشكل متقن وسريع، وكيفية الفصل الدقيق لصفحة من الأوراق الملتصقة ببعضها من مخطوطة ووضعها في سوائل دون أن تضيع أخبارها أو تبهر أو ترشح، بل كيف يتم فصل صفحة ورقة رقيقة لطبقتين أقل رقة بمهارة، حتى تبدو الصفحة شفافة رقيقة مثل غشاء من السيلوفان.

انبهَ الجميع بشروحته، خصوصاً ليلى. فاروق لم يجد اهتماماً كبيراً سوى بلوحات الطيور والحيوانات، وسأل عن قيمة بعض المقتنيات وأسعارها، واستغرب مجدداً من الأسعار الباهظة. ثم أهدى آدم كلّاً من

حاتم ورانيا نسخة مصورة من آخر ترميم قام به للوحة فارسية دينية عليها صورة نادرة للإسراء والمعراج من السماء الثالثة، وصورة أخرى عليها رسوم ملونة لبعض الأنبياء والصحابة ووصول النبي إلى السماء الثالثة، ثم أهدى فاروق صورة لواحدة من أقدم خرائط العالم للإدريسي كما كونها ميللر من مجموعة الخرائط عمل عليها الإدريسي وُعُثر عليها في مخطوطات كتاب له. سأله فاروق إن كانت قيمتها مرتفعة مما أصاب ليلى بحرج وحنق. أما ليلى فقدم لها نسخة من أقدم لوحة مكتوبة بحرف مغربية في لون الحناء للآلية القرآنية التي تقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ أَهْلَتَنَا وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالِ فَابْتَدَأُتَ آنَّ يَحْمِلُنَا وَأَشْفَقْنَاهُ مِنْهَا وَحَمَلُهَا إِلَيْنَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب/72).

قال لهم إنه بسبب ولعه بالرسم والخط دراسته لهما قد اتفق - منذ سنوات بعيدة - مع مدير المكتبة أن يعيد بخط يده أو رسومه الكثير من اللوحات أو المخطوطات النادرة التي يعالجها، وأكمل أنه لديه الكثير من أعماله في مكتبه هنا، والنادر منها والأجمل يحتفظ به في بيته.



في الوقت الذي كانت ليلى جالسة في المقهى في القاهرة تتأمل صورة عبد الله الطفل الرضيع، كان آدم في فيينا قد خرج حاملاً مظلته تحت المطر، متوجهًا إلى بيته. كانت أغنية أم كلثوم ترفرف حول أذنيه وتلح عليه، على الرغم من أنه لم يسمعها منذ زمن بعيد، فلم يجد بدا في تردیدها مستعيدًا لحننا من ذاكرة قديمة يخرج من صدى أعماقه:

"قربك نعيم الروح..... ونظرتك..... والهام"

في الطريق فكر أن يصعد للمقهى الموجود في متحف تاريخ الفنون. صعد وطلب قهوته المفضلة، وجلس عفويًا في المكان نفسه الذي جلس فيه قبل عامين وثمانية أشهر وثلاثة أيام مع ليلي، لكن لم تكن هناك شمس في هذا اليوم تسربيل عليه من أي طاقة.

بينما هو جالس مستمتع بارتساف الإيسبريسو، منتظرًا توقف رحات المطر التي أخفت من شدتها ضوء النهار وغطته بخدمة من الغيم، ففتح الكاميرا التي معه وتأمل الصور الكثيرة التي التقاطها للعمل القادم في المخطوطة البوسنية التي سيدأ في ترميمها قريباً. كبر الصورة عند مقطع باهت منها، ولسيب غامض لم يدركه تذكر ليلي، وبينما كان غارقاً عبر صور الكاميرا مع مخطوطيه الجديدة التي سيرممها، يكبر مقاطع منها ويتوقف عند النص في تفاصيل "اللامات" الثمانية السامة كالتخيل في الشطر الأول. توقف عند اسم ليلي، قربه لكي يتأمل حرف اللام المتكرر في نسيج المخطوطة. في لحظة مباغة تداخل طيف ليلي عبر اسمها مع صدفة وجوده في المكان نفسه الذي جلسا فيه معاً قبل أعوام قليلة.

هو الذي لا يؤمن: بمثل هذه الأقدار، شعر بإحساس غامض، فهو نادرًا ما يفتح الكاميرا بهذه الطريقة في مكان عام، بل يؤجل هذه المعاينة لحين ينقل الصور من شريحة الكاميرا إلى الكمبيوتر، سواء في البيت أو في الورشة، وهو في العادة يهرع للبيت – إن كان وحده – مهما كانت شدة انهيار المطر ولا يركن إلى مقهى، بل لم يسبق له أن دخل مقهى المتحف

دون أن يزور فيه معرضاً مؤقتاً أو قاعة ثابتة، رغم أنه يملك بطاقة مجانية لدخول كل متاحف النمسا بحكم طبيعة عمله.

طيفها بدأ يسحبه معه. فعاد بالذاكرة وتخيلها يوم كانت جالسة إلى جواره. تذكر فستانها الفاتن والشال الأزرق الجميل الذي حملته معها من القاهرة والذي كان يزين جيدها وتخلعه كلما تواجدت في مكان دافئ؛ الشال الموجود في بيته الآن. يتذكر أنه حين أوصلهم للمطار اعتذر لها عن نسيانه جلب شالها الأزرق معه. بعد إنتهاء إجراءات السفر دعاهم ليصعدوا معه إلى كافيريا المطار في الدور الثاني ليشربوا شيئاً، لكنه اختفى للحظات وعاد حاملاً بعض الهدايا التذكارية: غودجا مصغرًا لطائرة الخطوط الجوية النمساوية لحاتم، وكتاباً ملوناً بصور كثيرة عن الحيوانات والطيور البرية في النمسا باللغة الألمانية لرانيا، ثم وجه كلامه إلى ليلي:

" مهمة ترجمة معلومات كتاب رانيا، أتركها لك يا ليلي. أتفنى
أن أسمع رانيا تغرد بالألمانية في زيارتها القادمة!"

ثم أهدى فاروق "باب" جميل الشكل عليه صورة القيصر فرانتس يوسف الأول إمبراطور النمسا؛ لأنه وجد فاروق يتوقف مرات بإعجاب عند مثيله في بعض محلات الهدايا التذكارية، مادحا شكله وجودة صناعته، لكنه كان يستغلني ثمنه كل مرة، وأخيراً قدم هديته إلى ليلي: شالا حريراً يبديعاً في لون أزرق عليه مفاتيح وعلامات موسيقية أيضاً بلون أزرق فاتح متناسق ورقم 7 مكتوباً بطريقة فنية ومكرراً المرات.

* * *

حين كان آدم وليلي معاً في المتحف، نسيت شالها المصري على الكرسي، وتذكرته وهي في بيت أخيها ياسين فاتصلت بآدم مساءً ورجته إن كان بإمكانه الاستفسار عنه هناك، طمأنها بأنه سيمر في اليوم التالي في طريقه للعمل ليعيده إليها. عاد في اليوم التالي ليجد هم قد حفظوه لصاحبتة، لكن في غمرة الانشغال بمرض تسمم حاتم، نسيه في بيته.

تأمل آدم الكرسي الذي إلى جواره، فمر طيفها بذهنه كأنها ما زالت
جالسة في المكان ذاته. ابتسם وقال لنفسه:

"يجب أن أشرب الآن إسبريسو آخر لك يا ليلي!"

رفع یده للنادلة، حضرت فماز حها قائلًا:

"أريد أن أشُّرِّبْ قهوة!"

ضحكت وسردت عليه قائمة طويلة بأنواع مشروبات الكهوة الموجودة، رد:

"رقم سبعة من فضلك!"

ابتسمت وكررت في ذهنها لشوان ما تحفظه من القائمة وقالت:

"اسپریسو؟"

ابتسم وهو رأسه موافقاً. أراح ظهره على الكرسي وبدأ يتأمل المكان.
نظر إلى النوافذ العالية البعيدة لعله يلاحظ تحسن الجو وتوقف المطر، ليعود
إلى البيت.

هل كان ضرورياً في هذا اليوم أن يراها أيضاً؟ وهنا متحف تاريخ الفنون؟ والآن؟

حين كان يشرب فنجان الإسبريسو الثاني، ويتأمل المكان ورواد المقهى، شعر كأن هناك من يراقبه: امرأة بنظارة سوداء وقبعة سوداء وملامحها لا تبين له من هذا المكان البعيد نسبياً. لم يرغب في أن يطيل نظره إليها. اكتفى بنظرة ماسحة سريعة وعاد للكاميرا يقلب فيها. حين توقف بعد لحظات وأعاد نظره تجاه المرأة، وجدها قد خلعت النظارة الغامقة لكنها ما زالت تحدق فيه أو تجاهه. أهدتها ابتسامة باهتة محايدة، فلعلها تعرفه معرفة قديمة من سنوات الدراسة أو هي جارة قديمة أو زميلة، وقد يكون قد تعرف عليها معرفة سطحية عابرة في أحد معارضه القليلة، لكنه شعر بشيء من القلق لأنها ظلت تجول بنظرها ببطء في كل مكان ثم تعود لتوقف عنده. كانت جالسة مع امرأة أخرى تتصفح مجلة وتتكلمان بين الحين والحين جملة قصيرة يلحظها من الآباء.

تشتت ذهن آدم من هذه النظارات المتعتمدة وأثارت فضوله فيمن تكون؛ فظن أن المرأة الأخرى الجالسة بواربة قد تكون على معرفة به، والتي تواجهه هي رفيقتها التي تنقل لها حركاته وتتجسس عليه. ركن الكاميرا جانباً وانتبه ليتجلى له ما يحدث. فجأة قامت المرأة التي تنظر إليه بعد أن وضعت النظارة على عينيها رغم أن المكان خافت الضوء لا يحتاج لنظارة غامقة، واليوم برمته في هذه العتمة لا يتحمل إظلاماً أكثر. خمن أنها قد تكون محاولة منها لإخفاء شخصيتها. تقدمت نحوه بخطوات

متربدة. وقفت أمامه على بعد خطوة واحدة وقالت له بلهجة نمساوية واضحة:

"أهلا يا آدم! كيف حالك؟"

الصوت يعرفه تماماً، لكنه غير واثق من صاحبته، لا يستطيع - في هذه المبالغة - أن يوْفَّق هذا الصوت مع هذه الشخصية. قالت له وهي ترفع النظارة عن عينيها.

"هل عرفتني الآن؟"

حين ضيق آدم عينيه وفتح فمه محاولاً إخراج اسمها الخافي. بادرته:

"نعم أنا هي!"

كان ينطق ببطء ناسب اجترار اسمها من ذاكرته:

"أو ليث يا؟"

نطق اسمها هكذا بتقطع ودهشة. لكنها لم تترك له فرصة استكمال، فقالت:

"لقد عدت إلى فيينا منذ ما يقرب من عام ونصف. أتبغ أخبارك ونجاح معارضك، وقد زرتها كلها واقتربت لوجهة لك بعنوان 'أزرق أزرق' وتركت اسمها وهمياً لي لدى وكيلك. هل تسمع لي بأن أجلس؟"

انتبه إلى أنه ليس من عادته أن يحادث امرأة وهو جالس في مكانه. ابتسم

في سره لأنه تجادل قبل فترة مع أحد الزملاء في سلوك الرجل الأوروبي مع المرأة الأوروبية، وكان آدم يجزم بأن تكرار الكذبة يمحو الحقيقة تدريجياً من الوجود، فهو يعرف أن السبب في قيام الرجل للمرأة لم يكن هذا الاحترام الذي نسبغه على هذا التصرف، وإنما يرجع إلى العكس تماماً مما يعتقد الناس الآن؛ لأن الرجل لم يكن يقبل أن تكون المرأة أعلى منه، لذا كان يقف إن دخلت عليه امرأة. ليكسر تطاولها عليه.

"طبعاً طبعاً، تفضلي أجلسني!"

رد آدم متأخراً وهو شبه واقف. كادت أن تجلس على الكرسي الذي إلى يمينه. لكنه وجهها بلطف إلى الكرسي الآخر إلى يساره، كأنه أراد أن يحفظ طيف ليلي ومكانها.

"أعُرف أنني أذنبت في حفلك، ولم أتخيل أنك ستسمح لي حتى بالجلوس أو الحديث معك، لكنني تبرأت وأتيت إليك؛ فبعدما عدت من الإمارات حاولت الاتصال بك ألف مرة، لكنني كنت أغلق الهاتف في آخر لحظة. خجلي وندمي على ما حصل كانا أكبر من قدرتي على مواجهتك!"

قالت أوليفيا هذا الكلام في نفس واحد متهدج كأنها كانت تركض، ثم تنهدت كمن تخلص من عبء جاثم على صدرها.

"لا عليك!"

قالها آدم بلا مبالغة ولم يزد. أصابها الحرج والاضطراب وأرادت أن

تجد أي مدخل لحوار أطول:

"كيف أحوالك؟ أعرف أنك ما زلت تعمل في المكتبة الوطنية.

"نعم."

"هل ضايقك وجودي الآآن؟"

"مفاجأة لم أتوقعها!"

جاءت النادلة. طلب لنفسه هذه المرة كأس نبيذ أحمر بعد فنجاني القهوة، طلبت أوليفيا. أيضاً نبيذاً أحمر بقياً للحظات صامتين. كان ينظر إليها بعينين لم تتحمل لومهما البادي، وهي لا تعرف إلى أي مكان تنظر ولأي وجهة حديث توجه. وضعت نظاراتها على عينيها تلقائياً، ثم أنزلتها. خلصها آدم من ارتباكها الملحوظ وبادر بالكلام:

"تذكرين ذاك اليوم الذي تواعدنا فيه لنسافر معاً إلى بودابست،
أحسست يومئذ أنني أتحرك في حالة فرح لللقاء. ذهبت إلى
المحطة ومعي التذكرة، وحقيقة صغيرة فيها ملابسي. كنت أحمل
في يدي باقة ورد بري. قلقت حين تأخرت، وظللت أتصل بك بلا
هوادة. ظنت أن مكرورها أصابك. كدت أجن وأنا أتحرك داخل
المحطة مثل طفل فقد أمه. اتصلت بصديقتنا المشتركة كارولينا لكنها
أجابت بأنها لا تعلم سبب تأخرك. ركبت القطار قبل تحرركه أبحث
عنك بجهون ربما كنت قد حضرت قبلي. نزلت منه أنظر لكل نوافذ
القطار كالمعته، وبينما كان القطار ينسدل من المحطة كنت أعاود

الاتصال بك قابضاً - دون شعور - على أشواك الورود بعصبية حتى أدميت أصابعي. خرجت مهزوماً من المحطة، لم أنظر الترام لأذهب إليك في الحي الثاني والعشرين، كنت ملهوفاً، أخذت تاكسي حتى بيتك البعيد. صعدت على قدمي إلى الدور الخامس لتعطل المصعد حاملاً حقيبتي في يد، والورود في يدي الأخرى التي تؤلني لكن وحز قلبي كان أشد. ظللت أخطب على الباب بعصبية ونفاد صبر حتى خرجمت جارتكم على الضجة، فاعذرنا لها وسألتها عنك. قالت إنها شاهدتكم صباح اليوم بحقيقة سفر كبيرة تغادرين الشقة. اتصلت مرة أخرى بكارولينا إن كان لديها علم بوجهك، وأخبرتها بأنني أقف حائراً أمام باب شقتك وأنني أخشى أن يكون مكروره أصابلك. صمت لحظات ثم سمعت صوت بكائناها. أصابني الذعر. أراحني وأزعجتني في آنٍ لما قالت إنك سافرت إلى الإمارات في صباح اليوم؛ وإنك رجعت إلى راشد مرة أخرى. وضعتم الورود على باب شقتك، كأني أضعها على قبر، ومضيّت!"

كانت أوليفيا مخنوقة بكاء تحاول أن تكتمه، وآدم يحكى أحداث سنوات بعيدة كأنها جرت بالأمس. تابع بإصرار:

"لن أسألك: لماذا فعلت هذا يا أوليفيا؟ فهذا سؤال ساذج لا قيمة له اليوم، ولن يصلح شرخاً في قلب روحي، ولن ألومك أو أعتابك، فرمن العتاب قد ول، ولن ألعب دور القديس المتسامح، فلقد لعنتك بما يكفي شعباً بأكمله، حتى لم يبق لغيرك لعنات بقية عمري!"

في هذه اللحظة اعتبر آدم أن المطر قد توقف. شرب آخر جرعة من كأسه. شعر بمارتها فقلصت ملامحه للحظة، ورفع يده للنادلة ليدفع الحساب. دفعه بسرعة، رجته أوليفيا أن يبقى لدقائق حتى تشرح له تفاصيل ما حدث. لكنه قال لها في صوت حاسم وهو يلبس معطفه ويحمل مظلته وكاميرته:

"اسمعي لي، لدى شيء مهم لأنجزه هذا المساء!"

ليس من عادة آدم أن يُظهر هذه الخدعة في التعامل مع الآخرين. لكنه شعر باستفزاز أليم يكوي مشاعره، يقلب عليه مواجه كادت أن تبرأ، ويفسد عليه لحظات سلامه مع نفسه ومع المكان الذي أصبح له فيه أثر جميل.

لللحظات بقيت أوليفيا عند مائتها متخبطة كتمثال، ثم أمسكت كأس نبيذها، هزته في دوائر عببية لا إرادية كأنها تذيب شيئاً فيهم، ناظرة باتجاه الناحية التي سلكها آدم حتى اختفى عن ناظرها، معيبة النظارة إلى وجهها ومكملة نحيفها الخافت. حين تقدمت صديقتها مواسية. رفعت أوليفيا كأسها ودلتنه في جوفها مرة واحدة. وعلا صوتها بالبكاء، فانتبه الناس وصمتوا. جلست صديقتها إليها تهمس عن قرب في وجهها حتى هدأت وسرى صمت.

كان صوت المطر هو الأعلى في تلك اللحظات، وقد أظلمت السماء في الخارج تماماً.

4

استطاعت ليلي أن تغوص في رواح الزهور؛ أن تستخلصها من الطابع على المظروف، وأن تعود بالزمن للوراء قليلاً. في عينيها يتلألأ الرقم السحري (797)، يتردد على العين مثل أغنية تلح على الأذن بتكرار محب وتسمر وحدتها في الترم دون سيطرة على إبعادها عن الذهن، هكذا صار لها الرقم، يتكرر أمام عينيها في كل ما ترى أو لعله قد نسج نفسه في مقلتيها. اتسعت بسمتها تقاؤلاً، وقدرت أن إلحاح الرقم عليها بهذا الشكل ليس مدعوة لأي قلق، بل بالعكس فهو تخدير مريح للعين وإبهاج للقلب بما لا يراه أحد غيرها. (797) رمز للمحبة المنتظرة؛ فليكن منذ الآن رمزاً الكل جميل!

قامت من مكانها لطمئن على عائلتها الغائبة عن البيت بالخارج. اتصلت برانيا عند خالتها واطمأنّت عليها. ثم اتصلت بفاروق، وما كادت تسمع صوته وطمئنّت على حاتم حتى هدر هدير مزعج عبر التليفون، وكانت اللحظة التي سجل فيها فريقه هدفاً، فلم يستطع سمعها ثم نسيها وتليفونه مفتوح تسمع منه ضجيج الملعب، سمعت أيضاً من الجيران الصراخ نفسه والديب العالي نفسه، كذلك من الشارع، عبر كل حيطان الشقة وسقفها وأرضيتها. ظلت تصرخ في فاروق لي رد عليها، دون جدوٍ، فبقيت لحظات تنصت لأصوات الاستحسان وصفير الاستهجان، ثم أغلقت. شعرت بتفاهة العالم وببداية سأم جديد يسعى لروحها.

عادت عيناهما إلى حديقة القصر المصورة على الطابع. قامت من مكانها، وأحضرت ألبوم صور زيارة فيينا. قلبت الصفحات ووجهها ينشرح مع كل صورة. أحسّت أنّ أسرار وجهها في الصور غير هذا الوجه الذي تراه يومياً في المرأة. في الصور وجه منشرح مقبل على الحياة. رأت ابتسامة صافية لم تشاهدها في صورة لها منذ زمن بعيد. عند صورة لآدم يضم فيها رانيا وحاتم إلى جانبيه بحنون شديد، شعرت بشيء يخطف قلبها بلا إرادة، شيء يشبه بداية الذعر المفاجئ أو صدمة الفرح. هي التي التقى هذه الصورة في مكتب آدم حينما زارتـه العائلة. شاهدتها مرات وتوقفت عنها قليلاً بإعجاب أم. لكنها الآن تشعر شعوراً غامضاً لذيـذا ومربيـكاً، تستعدّـبه.

لمحت في خلفية الصورة لوحة مكتوبة بخط هو آية في الجمال، لكن

روعـوسـ الـثـلـاثـةـ أـخـفـتـ مـعـظـمـ كـلـمـاتـ الجـملـةـ فـلـمـ يـظـهـرـ مـنـهـاـ سـوـىـ
(ليس للروح.... آخر)

قلبت في الصور سريعاً تبحث عن صورة تمكنتها من قراءة الجملة كاملة، لكنها عادت سريعاً لتأمل وجه آدم.

هل يمكن أن يكون لصورة رجل ما، مرق في حياتها كطيف، كل هذه السلطة؟ لماذا يخفق قلبها الآن لأنها ابنة السادسة عشرة، كفتاة تكتشف نور الحب للمرة الأولى؟ ولماذا تتشتت بين فكرتين متناقضتين: فهي تريد أن تبعد عن ذهنها فكرة غامضة تلح عليها، بينما عيناهما تتشبثان بوجهه في إصرار وفرح؟ ثم ما معنى كل هذه التساؤلات التي تداهمها بلا استئذان؟ هل الأحلام التي راودتها مرات لها مغزى؟ ثم لماذا تداهمها - منذ عودتها من فيينا - أحلام يزورها فيها آدم، أحلام تنقص بالصحو لتكتمل بأحلام يقطة متوجحة معه؛ معه هو فقط!

لم تشعر مرة بالذنب وهي تخيل آدم يحتضنها بذلا من فاروق؟ لكنها لم تجد معنى لذكر شخص لن تلقيه مرة أخرى، لذلك كانت تحاول صرف فكرها باللجوء إلى الراديو للاستماع إلى أي خبر يشغلها أو أغنية تذكرها بأي زمان بعيد، كيلا يهيمن بوجهه على أحلامها، فمنذ صغرها استبدلت الكثير من قسوة الواقع برحمة الحلم، لأنها أدركت أن لا أحد سيقبل إقدامها على إخراج أحلامها إلى حيز التنفيذ، ولم يدرك وعيها - رغم قطعها مسافة لا بأس بها من طريق المعرفة - أن ما يراودها نفسه، يراود كل الفتيات، وأن سقف التقاليد المشرعة يخص الإناث فقط، ويصطدم

برأس أي قصة حب قد تنمو في غفلة بين شرفتين، شرفة شاب وشرفة فتاة في مقبل الحلم. لكن إدراكها لم يغفل أن للأحلام - حتى إذا راودتها وهي مفتوحة العينين - خاصية سحرية لا يستهان بها، وهي أن أحداً - مهما بلغ قربه منها أثناء استغراقها فيها - لن يعرف شيئاً عما تحلم به.

بدأت الأحلام تراودها منذ أن كانت صغيرة، بحلم تذكره الآن كما لو كان منذ ألف عام، عندما نظرت إلى الحائط المجاور لسريرها، فوجدته موارباً مثل باب، قامت على الفور بقميص نومها الطويل الأبيض، ودفعت هذا الباب فانفتح على مصراعيه. هالها ما رأت، كان أمامها مرج فسيح مغطى بعشب ندي أخضر، في درجة من الأخضرار لم ترها من قبل. تنحدر الأرض بالمرج انحداراً مريحاً مشرعاً على أفق من هضاب بدرجات متنوعة من الأخضر، وينتهي ببحيرة مياه متلائمة تحت أشعة شمس ناعمة، تسرب من بين فروع أجمة أشجار في الناحية الأخرى. هكذا، وجدت نفسها في مكان عجيب باعث على السكينة، مكان شعرت أنه يشبهها ويتظاهرها لتكميله، بعيداً عن ضيق شققهم وقامتها وازدحامها بكثير من قطع الأثاث الذي لا لزوم له، سوى الاعتراض المعرقل للحركة. شعرت بألفة في المكان رغم أنها تراه للمرة الأولى، تحولت هنا وهناك تكتشفه متتابعة تغريد طيور جميلة لم تر حتى مجرد صورة لها في أي كتاب، إلى أن قادتها قدمتها إلى مكان ظليل بين ورود في وسطه أرجوحة، اعتلنها وبدأت في التأرجُح، روادها للحظة أنها هي الثابتة والكون تحت قدميها هو الذي يتأرجح. رمت نفسها بخفة من على الأرجوحة وتركت جسمها يتدرج على العشب الطري حتى مياه البحيرة، وقرب حافتها اغترفت من مياها

غرفة، بللت بها وجهها، شعرت فجأة ببرودة الماء على وجهها وبعذوبته على طرف لسانها. ثم بدأت في الرقص، خلعت قميصها وطوطحت به بعيداً، لتجرب الرقص عارية. رفعت رأسها إلى السماء ودارت في دائرة وهمية ترسمها عادة حول نفسها، كانت السماء تدور، أسراب الغيوم المتقطعة، الأشجار والأرض، كان كل شيء يضحك بصوت يثير البهجة في الروح، تكاد تسمع أصوات كل شيء: هفهة ريح وخرير ماء وحفيض أوراق شجر، صداح طيور، أصوات حيوانات، ثم، تلاشى كل شيء في لحظة، أحسست كأنها سمعت باب الحلم يوصد. استيقظت على صوت الريح يخط النافذة المفتوحة ويغلقها بالحاج، لتجد نفسها نائمة في السرير نفسه، مرتدية البيجاما نفسها، وبقايا دموع باردة على الوسادة، بينما صوت أمها يعلو، تناديها بتذكر حائق كي تستيقظ، تعدد الفطور لأخيها ياسين، قبل أن يخرج إلى أصدقائه.

كم من عشرات المرات التي أفشل فيها فاروق مثل هذه الأحلام بأسلوبه الغض في المضاجعة. دخوله كالثور عليها بدببات قديمه الثقيلة، وإغلاقه الباب بالصوت نفسه الذي يذكرها بصفق النافذة في الحلم، بينما تحاول أن تعود لفتح باب الحلم الموارب لتهرب منه، ل تستدعى آدم ليخفف عنها مصابها. لم تعشم مرة واحدة أن يداعبها فاروق، أو يتتجنب مرة واحدة هذه الخشونة التي يعتبرها رجولة وتمكنّا؛ حتى تلميحياتها برغبتها الخجولة في قبلة أو لمنعة أو حضن، كف عنها في العام الثالث من زواجه لأنه كان يعقب عليها قائلاً:

"يخرب بيت أم الأفلام الرومانسية وبوسها وأحضانها!"

كانت طقوسها تصيبها بالسأم، كلما طلب منها أن تستحم بماء ساخن حتى في عز الصيف قبل المضاجعة، أو أن تعطر وتتجمل وتحفف شعرها تماماً، لأنه يكره الشعر المبتل، بينما هو لا يستحم أو يتعطر أو يُشعرها باستعداده لها بأن يتجمّل ولو على سبيل المجاملة، يظن نفسه دائماً مكملاً برجولته ومكتفياً بدور الذكر، عندها كانت رغبتها تبخر، تأتي إليه كما لو كانت تستعد لغسل الصحون، أكثر مهمة تقتضيها من أشغال البيت المتعددة. تسمع لصديقتها في المدرسة بأذنين مرهفتين، ولا تعرف لماذا اعتبرت ممارسة صديقتها للجنس مثلاً، إن لم تأخذ حذوها، فلا يجب أن تقدم عليه، كانت صديقتها تحكي أن رجالها لا يتذمرون حتى تأخذ دشها، بل أكثر من ذلك، كان يعتبر أن ارتداء قميص نوم يعوق بقماشه الشفاف التحام لحميهمَا نوع من الإخلال بالمتاعة. يقترب بأفنه من إبطها ويشمها برغبة، كما لو كان حصاناً لن يتعرف على فرسه إلا من رائحة عرقها الخاصة وربما لأن عرقها مبتدأ الإثارة، ربما كان على ليلى أن تستبدل علاقة الزواج التي تربطها بفاروق بعلاقة عشق لتنتقم من رائحة الصابون التي تطاردها في كل لقاء معه والتي لا تليق برائحة الجنس، أو حتى تستبدل فاروق نفسه بعشيق يمارس الجنس بطقوس بدائية تستعيد فطرة كل الم Wooes، هي لا تخيل أن يتم طقس الجنس إلا بعد أن ترقص حتى الثمالة، تماوج بيمينا ويساراً في المكان كأنها تغير روحه بطقوس سحرية تعرفها هي فقط، وتتحدى بالهواء وتتركه يتحدى بها، يتبعثر شعرها في فوضى طبيعية فتبعدو كشجرة تمشطها الريح بجنون، تماوج كمياه هادرة لا ضفاف تخددها، تنزلزل الأرض إجلالاً لخطواتها غير المحسوبة، رقصة منفلتة لا

أخلاقية، فالأخلاق قوانين وضعية يغيرها الناس كل حين وفق مصالحهم. تؤمن بأن الجنس يجب أن يمارس بقائض جنون يبدأ بالرقض أو ينتهي به، وهو في خيالها الجامح ليس سوى رقصة الحياة! أو إعادة تمثيل الحياة دون رتوش زائفه. مؤمنة هي أن الأنثى هي الكائن الأضعف، تلك الحقيقة التي لم تكن حواء الأولى بحاجة إليها، لأن آدم لم يكن يعاملها إلا بالفطرة الأصلية ليكون مكملاً لها بسطوة المحبة، لا مسيطراً عليها لاحفاء ضعف مستتر، لكن تطور المجتمع في مرحلة موغلة في القدم اخترل الاعتراف بهذه الحقيقة في طقس الجنس فقط، ليستقيم المجتمع في باقي أموره، مجرد شكل ارتضاه الأولون لحياتهم وسار نهجاً مفروضاً على الرافضين قبل الموافقين في ما بعد؛ فلم يعد الاعتراف بتفوّق الرجل إلا أثناءه، ومع الوقت وضغوط الحياة، وإرساء قوانين الأخلاق مع التطور المجتمعي حدثت الكارثة، فاعتقد الرجل أن ممارسة الجنس بصورةه الأولى مع زوجته تصرف لا أخلاقي، تخلى عن جوهره واكتفى فقط بالآلية الوظيفية فقط، ليصبح مجرد إشباع جسدي دون الإشباع الروحي، وبدأت الحيرة لكليهما، حيرة لا يعترف أي منهما للآخر بها خجلاماً والتزاماً مفروضاً ربما، فالرجل حتماً يعترف لنفسه على الأقل بأنه يريد امرأة لبؤة، تشعره أنه الأقوى، امرأة تشبع الجزء الحيواني فيه، لكنه لا يستطيع أن يتعرى أمام زوجة، فهي جزء من المجتمع واضح القوانين الأخلاقية، والمرأة في الوقت نفسه، تحلم ربما أثناء ممارسة الجنس مع زوجها بالآية أنها ممارسه مع رجل بدائي لم يقرب المدنية ولا يعرفها. فيصير كل منهما يضاجع وهما في خياله، ورغم انصهارهما معاً فهما لا يلتقيان!

هذا هو فاروق إذن! أفشل في كل مرة محاولاتها كي تستحضره كفارس أحلامها العاشر، ليكون زوجها الحلال في الخيال. كان يتحول في منتصف طريق حلم اليقظة إلى فاروق الأصلي، ويحطم مبني الحلم وهيكله. بعد المضاجعة كانت تعجل بحمام تخلو به رائحته فوراً عن جسدها، وتنزع عن أنفها رائحة الخضوع والكراء.

لم يضاجعها إلا في وضعين اثنين لم يغيرهما طوال ثمانية عشرة سنة. يضاجعها واقفا وهي واقفة قبالة بعد أن ترفع قدمها اليمنى لأعلى، دائمًا اليمنى لا تدري لماذا، فتشعر بعد دقائق بإرهاق شديد من الوقوف على قدم واحدة، لكنه هذا الوضع كان أخف وطأة من اندلاعه عليها بصمت تام حتى ينتهي من ارتعاشه، ثم ينهار عليها كجبل من الحجارة ليهرسها بلا محبة، رغم ذلك تشعر بالنجاة. تحس بالراحة لأنها سينقلب بعد لحظات لترى ظهره العاري، تاركا إياها غير مبال بعدم إشباعها، لكنه لا يغفل أن يسألها بعد كل مرة:

"ما رأيك؟ كيف كنت؟"

تصمت، لا ترد عليه الرد الذي يطمئن سريرته وأطرافه، يتخيّل أن في صامتتها إنهاك الرضا والشبع، فينام وبقايا شخير لذته يخرّح مثل آلة خربة في مصنع قديم. وتعود إلى المياه التي تركتها منذ قليل بكثير من الأسئلة لتخالص من إحساس الهزيمة الملتصق بها. هل يخالف فاروق فطرته فيرى نفسه الذكر الذي يجب أن يقهر أنثاه حتى لو كان القهر على السرير فقط؟ ألا يدرك كيف يستعمل حواسه الطبيعية في الجنس من لمس

ونظر وشم وتذوق وسمع؟ هل لا يعرف عن قاموس الألفاظ البدئية والتي تعش الجنس وتتدغدغ مواطن الخجل باللذة؟ ألا يعرف عن الرقص شيئاً؟ تذكر يوم أن رقصت له للمرة الأولى فاندهش مستنكراً: "هل هذا وقته؟" ثم جذبها من ذراعها بغلظة، قبل أن تقف على أطراف أصابعها تأهباً. أم تراها شاذة فيما تريده وقت الجنس من انفلات منه ومعه؟

كانت ليلى ستقنع منه بأقل القليل من المحبة والاكترات في إطار الاستسلام لما يحدث والقبول به أيا كان، كما قررت مع نفسها في مرحلة سابقة، بعد أن خذلها ياسين وسلمها بنفسه إلى فاروق، لكن ما توصلت إليه من قناعات عن الرقص والجنس وكل ما يحيط بها، جاء بعد مرحلة تفكير استهلكت سنوات من روحها، وجدت نفسها فيها زوجة وأما لولد وبنت، محاصرة بعادات فاقدة لمعناها ومقيدة بتعاليد شاذة من يخرج عليها يعتبرونه هو الشاذ، ولأنها - أيضاً ولسنوات طويلة - لم تعرف ما الشيء الذي ينقصها لتشعر معه بأن لقاءه الحميمي مشبع وكاف، ربما كان جهلها وانصراف ذهنها ل التربية الولدين سببين كافيين لاستمر كآلية، وتعتقد أن العطب ليس في فاروق بل قد يكون كامناً فيها.

ربما لو ضمها في حضنه ضمة صادقة تتوقف إليها، لفتح كوة إلى روحها وتسرب إليها، ولأعفاهما من رحلة تفكير عميق ومرهق، أو صلتها في النهاية إلى الاعتراف بينها وبين نفسها، أن فاروق والمجتمع وكل ما من شأنه أن يكبل روحها ويسمهم في تعاستها، لا يستحق أن يعرقل سعادتها ويقيي على روحها مقيدة إلى مربطها، هي لا تنكر أن غباء فاروق هو السبب في نقض عهدها مع نفسها بالاستسلام، ربما لو كان يستحق لرأته بعض

آخرى على الرغم من شخصيته، علاقة السرير وحدها هي ما ربطهما، غير ذلك، كان فاروق شخصا لا يصلح لرفقة أو لحوار، فاروق كما كانت أمه تلقبه صغيرا بالـ"جحش"، عندما كبر لم يكن سوى وحش بغيض لا وصف له، فالجحش وحتى الحمار بالمقارنة هو حيوان وديع. في الوقت الذي كانت أمه تكف عن نعهه بلقبه السابق، وتتباهى بعرض كتفيه وطوله الفارع وقدرته على معرفة أسعار كل سلعة، ثم حرصه على الذهاب إلى أقصى مكان بعيدا عن البيت، لشرائها بشمن يقل جنيها فقط أو أقل. كانت ليلى، في سرها، تتعه كل مرة تكتشف غباءه وجموده الكبيرين بكلمة الـ"ذئب"، الكلمة كانت تريحها حين تطلقها عليه في أوقات وصولها للنروة المقت والانفجار الساكن.

لو احتضنها فاروق مرة بمحبة على الرغم من كل معارفها عنه، لغفرت له كل هذه السنوات التي لم يجعلها فيها تنتشي مرة واحدة بالوصول إلى متهىء لذلة الجنس؛ إلى الأورجازم الذي لا تتحقق إلا بدونها؛ بالعادة السرية، حتى اعتقدت لوقت ليس قصيرا أن يدها هي العضو الوحيد القادر على فهم شفرات جسمها.

لم تكتشف مشاعرها فجأة، بل بدأت في ليلة الزفاف تتكتشف لها الأمور تدريجيا، عندما أغلقت أمها الباب وراءها ورحلت، وافتغلت ليلى حياءً كما أوصتها أمها، بأن جلست على أقرب كرسي وأسقطت رأسها خفرا، في هذه اللحظة كانت ترقب رسومات السجادة، وتتبع فروع الزهورات باتجاهها إلى أركانها الأربع، متوقعة أن يأتي فاروق في هذه اللحظة ويرفع رأسها، يقبلها طويلا ثم يحملها إلى غرفة النوم،

لكن اللحظة طالت ولم يأت. سمعت صوته في المطبخ وصوت أغطية حلل الطعام وهي تتبخر، ثم خرج وهو يلوّك بين أسنانه قطعة لحم كبيرة قائلاً:

"أمك لم تسو اللحم جيداً!"

هكذا بدأت أولى الصفحات مع فاروق، وتواترت الأحداث لتلطخ أعمق نفسها بقصوة كلماته وتلميحاته، وكلما حاولت أن تنسى، يذكرها بتكرار قديم لكلام غريب تشعر أنه قابس ولا تفهم معناه بوضوح، تتذكر يوم قال لها بلهجة غريبة:

"وأنا قانيكي ليه؟"

قال هذه الجملة مرات و لم تدرك معناها بالضبط، اعتقدت أنه يرفض تلبية ما طلبه و قدراك، حين تلبسته موجة غضب وهو يرددتها، لأنها طالبت بشراء مككسة كهربائية كي تنتهي متابعتها مع الغبار الذي كان يلوث جسمها، كلما قلبت البيت رأساً على عقب كل يوم جمعة، يوم إجازتها الوحيد، ثم تكرر قوله عندما وفرت هي مالاً دون أن تخبره، وأرادت شراء غسالة أو توماتيك مثل صديقاتها في العمل، لا تخرج منها الملابس إلا بعد دورة غسل طويلة، وتصبح شبه جافة، لكنه أيضاً كرر جملته التي قالها من قبل، واضطررت هذه المرة إلى أن تستعين بأمه لا تقف في صفها، بل لترى لها العبرة، ولم تكن صدمة لها عندما أجابتها ببساطة قائلة:

"زي القطة كدا.. بنريها عشان تأكل الفيران!"

لم تتصور أنها مجرد خادمة، يقتنيها من أجل الكنس والغسل والطبع، والخروج للعمل من أجل توفير المال، ثم في نهاية اليوم يضاجعها واقفة ثم يمتنعها على السرير مذكرا إياها وهو في مضاجعته بتوفير جو شبقي جديد في المرة القادمة باقتناء ملابس داخلية أكثر إثارة وباستخدام عطور جديدة لا يعرف أسماءها، في كل مرة يفكر ويخطط للمرة القادمة بتعليمات ورغبات مستقبلية وينسى اللحظة الآنية بكل ما فيها من إثارة حية، يُنْدِها قبل أن تبدأ، وقبل أن تشعر بالإشباع يعلو شخيره القبيح. تذكر كل لحظاتها معه، منذ أوائل لطفه المزيف وتقربه منها حتى زواجه بها واعتقادها بأنها تستطيع أن تسعد بوجودها مع من أحبها، وحتى لحظاتها الحالية التي تأكّدت فيها أن فكرة تغييره تعتبر ضربا من الجنون، وأنه من أكبر الحمقى أن يتزوج الشخص من حب في اتجاه واحد، فسيصير حبا لا يدوم ويتوقف على اعتاب العشرة وممارسة كل الأفعال الحميمة باعتياد ممل لا روح فيه!

لكن بداية استخدام يدها لإشباع حاجتها جاءت بعد هذه الحوادث بأعوام. كان تلقّيها فاروق بالـ"دني"، قد مر عليه زمن، وكان حاتم يحبه باتجاه الأنبيكات ليبعث بها في اكتشافه للعالم، عندما انسحب فاروق ليدخن سيجارة بعد قيامه من عليها مباشرة، فتح شيش البلكونة وترك الستارة بينهما مسدلة بعد خروجه، كانت الستارة رهيفة لدرجة أن أنفاس الريح الخفيفة في هذا الحر الحارق كانت توجهها برفق، شفافة لهترى فاروق بقامته وهو يوليها ظهره والدخان ينبث من فوق رأسه كمدخنة، وكعادته تركها قبل أن ترتوي، وبحركة لم تكن تتوقع أن تقوم بها في وجوده بهذا

القرب، عادت لما كانت تفعله منذ أن وعت أن العضو المغطى بالشعر بين فخذيها بحاجة إلى مداعبة، إذا قامت بها بروية ستجد نفسها بعد دقيقة في حالة هياج وتوتر شديدين، وإذا استمرت في الدفع، سترتعش بشدة وتتدفق قطرات المياه من مكان لا تعرف عمقه، عندها فقط، ستهدج أنفاسها وتستكين استشارتها وترى نجوما تلمع في سماء خيالها.

لا تذكر متى بدأت في ممارسة هذا الفعل الذي عرفت فيما بعد اسمه، من مجلة طبيبك الخاص التي كان ياسين يقتني أعدادها ويخرنها في ركن معتم من دولابه. لم يدر أبدا، أن اخته الساذجة - كما كان يطلق عليها - تواكب على سرقة العدد الجديد، وقراءته عشرات المرات، وأحيانا تعيره لصديقاتها في المدرسة، قبل أن تعده ببراءة متناهية إلى مكانه.

في وقت الذروة تماما، ولسبب لا تدركه بوضوح، استحضرت صورة شادي عند المخبز ورائحة الصابون التي غلقته، لتراه بعين خيالها في عمر أكبر يضع يده بين فخذيها، ويقوم عنها بما كانت تفعل، حتى تتدفق قطرات، فيرفع يده بها قبل أن تجف، ويتشممها ويبتسم في وجهها. ولو قلت طويلا ربما للعام كامل - قبل أن يرتفعها الشيخ عزوza إلى رف بعيد - كان شادي يحتل خيالها بما لا يدع مجالا لوجود غيره، بوجهه الصغير المستدير، ورائحة نظافته الدافئة، كأنه تحمم للتو، لكن ما حدث أن الشيخ عزوza الذي نفرت منه وقتذاك، وكادت تشکوه لأبويها، طرد خيال شادي منذ ذاك الحين، ليحتل برائحته الكريهة أغلب أحلامها.

كان شيئا ما يوخرها كلما انتهت من الحلم بوصولها إلى ذروة الرعشة،

في أوقات كثيرة كانت تفكرون وتحاولون تصنيف حلمها، تطلق على أفكارها - كما تطلق على حلمها - تصنيفات تأرجح بين الطيب والشرير، قبل أن تلتقي بفاروق بسنوات، كانت كلما فكرت في فارس الحلم، تراه في هذى اللحظات شفافاً، كما لو كان ملاكاً لا جسم مادياً ملمساً له، وتكون هي في الحلم مثله، مجرد شبح بلا لون لا تستطيع القبض عليه، كحفنة من الدخان المعطر. تتبع من مكان مجھول لتحول قليلاً قبل أن تبخّر هذا الفارس لا يفعل معها أي شيء يمت للجنس بصلة، بل يكتفي بتأمل وجهها، وسحب يدها، والدخول إلى المكان العجيب الذي رأته في الحلم، فيمرحان معاً، ويتأرجحان بالتبادل على الأرجوحة المعلقة هناك بين الشجر، يضحكان فتتردد أصواتهما كأنها عشرات الأصداء، يبدو كما لو كان مخلوقاً لإشباع شيء هلامي يسكنها، شيء منقوص غير مكتمل، شيء ربما يتصل بالروح، في نهاية الحلم يقترب منها الخيال الذي لم تحفر ملامحه جيداً في ذاكرتها، ويقبل فمها برقة تثير دغدغة فرح في أطراحتها فتشعر كأنها تحولت إلى نور، ثم يختفي. وفي أحلام أخرى، يكون الفارس رجلاً قوياً، أيضاً غير واضح المعالم، يخترق الحجب وينزل عليها ليعتليها بقوه، يعصر صدرها ويكور بطنها قبل أن يهرسها في يده هرساً تستلذ به، يمطرها بالكلمات البدئية كلها، ويأمرها أن تقول له مثلها، يستمتع إذا انصاعت ونطقت بالاسمين الصريحين لعضو الجنس ولطلب الممارسة الصريح، تستمتع وهو يطبق عليها بجسمه ولا يتركها إلا وهي في رعشة الشبع، لكن هذه الأحلام تخلفها منقبضة، صوت ما يتردد بداخلها ليجعلها تعرف بعد الحلم أنها ارتكبت إثماً، تشعر أنه كان عليها أن تقتل حلمها بالصحو قبل أن تسقط

في الإثم بهذه المتعة العابرة التي استسلمت لها للحظات. ربما الموروث الذي لقنوها إياه – والذي جعل كل شيء يمت للجسم بصلة حrama – هو سبب هذا التشوش الذي لم يرحل عنها يوماً، لكنها في مرحلة لاحقة فكرت وقادها التفكير إلى التساو١: إلى أي الحلمين تتحاير، في أي منهما تجد المتعة؟ هل يجب أن يكون هناك رجل للحب الطاهر وآخر للجنس المدنس؟ أم أن الاثنين غير منفصلين عن بعضهما؟ أم هي امرأة منحلة؟

في أحد الأيام، كانت تقلب قنوات التلفزيون، بحثاً عن قناة "arte" الألمانية لأنها تقدم برامج وثائقية مميزة تشع رغبتها المعرفية. ظلت تقلب لوقت طويٍّ بجهاز تغيير القنوات، استغرقت من وجود عدد كبير من القنوات على التلفزيون وهي عادة تنتقل بين الثلاثين قناة الأولى ولا تزيد. كانوا في البيت قد خصصوا لها قنوات باللغة الألمانية من القناة الخامسة والعشرين حتى الثلاثين، تحب أن تتابعها حين تكون بمفردها. ظلت تنتقل لأبعد القنوات، شاهدت قنوات لم تستطع تمييز اللغات الغريبة التي تسمعها فيها، وقنوات أخرى متشابهة المحتوى والديكور لكنها بلغات مبهمة. توقفت عند قناة تبعث منها موسيقى هادئة، مصحوبة بأصوات طقطقة تصدر من مدفأة حطبية، يرافقها صوت أنات وصراخ مكتوم، تعلو وتيرته وتختفي. تحولت الكاميرا ببطء إلى رجل وامرأة متلحمين في وضع جنسي لم تعرفه من قبل، على بشرتيهما حبيبات عرق بلورية تكبرها الكاميرا وهي تنضح مع صوت لساعات المدفأة. طغى الفضول

عليها، فخفضت صوت التلفزيون لدرجة هامسة تسمعها هي فقط. لم يصبها الهيجان بقدر ما أصابتها دهشة الوضع المتواجع والمتألم. ظل الرجل والمرأة يتقلبان في رقصة جنسية طويلة متعددة الأوضاع هادئةمرة ووحشية مرات، أوضاع لم تعرفها من قبل في حياتها، بما فيها من لعقم ومص وشم وغض وضرب. من مطالبة الأشى بالوصول الأعمق، بالإيغال بعيداً، بذلة لاقت هوى في نفسها. كانت تشاهد منظراً أسطورياً غير عادي لها. اكتشفت للمرة الأولى أنها لم تكن شاذة عندما كانت تعتقد أن لكل عضو من أعضاء الجسم قيمة في الممارسة الجنسية، وأن كل عضو قادر على أن يعطي ويأخذ، أن يضاجع بطريقته، وأن يمتع ويستمتع بطريقته. لم تر في حياتها مثل هذا الالتحام الرهيف العنيف المتدلوق يشبع كل الحواس ويروي كل خلية في الجسم. حتى تجرتها الوحيدة خارج إطار الزواج التي مارستها بسبب السأم، والتي حملت فاروق وزر إقدامها عليها فترة، قبل أن تدرك أن تجربة الخطيبة تعلمنا أيضاً أن لكل مخلوق على الأرض وليفاً مخلوقاً له فقط، إن لم يمارس الحياة معه فلن يصل إلى السعادة.

هي لم تخن فاروق انتقاماً، على الرغم من قيامه بهجرها بعد إنجابها لرانيا لما يقرب من عام، عازفاً عن أي مضاجعة معها. لم يتسبب تصرفه في شرخ نفسي لها، كأن تشعر بأنها لم تعد امرأة مرغوباً فيها وهي لم تتعد الخامسة والعشرين بعد، فعلاقتها بفاروق لا تمنحها شيئاً على الإطلاق، ربما رغبت في تجربة جسدية تتحقق لها معنى الوجود، لم تكن الخيانة في ذهنها، بقدر بحثها عن قيمة تمثلها نضارة جسدها المنسي وأحساسها

المقبرة، أرادت أن تمارس متعة الخروج عن المأثور المملىء؛ متعة فيها تقاض ينهشها، فعل هو رد فعل مستتر بتجريب الخيانة فعلاً في حسها الباطني، أن تخون زوجها، أن تخفي متسترة بالليل البهيم، أن تمارس متعة استغفال الجميع، أن تقفز فوق الحواجز الحمراء كفرس جامح، ولا يهم من سيكون رفيق خيانتها.

فُرِّت ناريمان صديقتها كل شيء، جاءت في أحد صباحات العمل الهدائة، وأسرت في أذنها بأن ثمة رجلاً تعجبه، رآها وهي تسير معها ذات فسحة. كان صديقاً لناريمان في فترة سابقة. اتصل بها بعد أن رآها مدعياً السؤال عنها ثم عرج بحديثه إليها. أخبرها أنه معجب بها، وبساقيها اللتين بدت له منيرتين تحت ضوء الشارع الواهن، ما كان من ناريمان إلا أن قامت بدور الوسيط، وأخبرتها برغبته في لقائها. في هذه اللحظة، تاهت ليلى في دوائر مفرغة، ظلت تقنع نفسها أياماً أنها لن تقبل لأن ضميرها يرفض الخيانة، حتى إذا كانت تعيسة مع فاروق. لكنها اعتبرت أن التفكير فيها نوع من الإثارة التي يجب أن تمر في حياتها من أجل تغيير إيقاعها الريتيب. سمحت لنفسها بعون ناريمان بالخطيط للقاء كي تعرف كيف تخطط النساء لهذا، وما الشعور الذي يداهمهن، ولون الحياة وحجم الخوف وكل ما يتعلق بفعل الخيانة نفسه، مبررة لنفسها بأن ما تسمح لخيالها بالتفكير فيه لن يتم تطبيقه في الواقع مهما كان، وبأنها مجرد مغامرة مبتورة سوف تتراجع فيها عن كل شيء في اللحظة الأخيرة، لكنها تماطلت تحت سقف الفضول ووقع الخيال في الواقع، حتى استفاقت لتجد نفسها في شقة صغيرة بشارع قريب من العمل، متورطة في الفعل الذي كانت موقنة

بأنها لن تنزلق إليه. أغراها إكمال التجربة كيما اتفق، لتكشف بكامل الدهشة أن بعض الخيانات قد تقع دون رغبة كاملة. حاولت الاندماج كلية في الموقف وتداعياته؛ أن تشعر بقلق ورهبة وخوف؛ أن تتوقع دخول فاروق حاملاً خنجرًا وسيعززه في صدر الرجل، ليخلفه جثة ستجمع عليها الغربان بعد حين، وقد يجرها بقميصها الداخلي القصير ماسحًا بها أرضية الشارع، غامسًا جسمها في كل أوحال وقادورات الطريق. كل هذا فكرت فيه، لكن شيئاً لم يخفاها أو يوقيفها، سارت كالملغية فيما قررت. الغريب أنها لم تعد تذكر هذا الرجل، بل لم تتأكد من وجهه في حينها، حدث كل شيء قبل أن تحاول التركيز في كونها معه، وأن عليها أن تستمتع، إن لم يكن بما يحدث فعلى الأقل بتحقق رغبتها.

*

ها قد وجدت ليلي في الألبوم صورة عليها الجملة التي اختفت خلف رؤوس آدم وروانيا وحاتم. وجدتها في طرف بعيد من صورة يظهر فيها فاروق وحيداً بوقفة جانبية، كانت تمر على هذه الصورة دائماً دون تركيز. الحروف بدت بعيدة ومنمنمة لا يمكن قراءتها بالعين المجردة. قامت وأحضرت عدسة مكيرة. كبرت الجملة فظهرت الحروف واضحة. قرأت بلهفة. الجملة كانت تقول:

كُلُّ رُوحٍ تَسْكُنُ بِالْوَادِ تَرُوْخٌ.. كُلُّ رُوحٍ تَهِيمُ فِي الْوَجْدِ تَحْيَا..

فَطُوبَى لِلْهَائِمِينَ (ابن بئور ش)

"الله!"

هكذا نطقتها ليلي بصوت ممتد مشبع مسموع، مع مد بحرف ألف طويل قبل الهاء. سقطت دموع ارتياح بطيئة ساخنة. شعرت بأنها تغتسل من الداخل بهذه الجملة. (كُل رُوح تَهِيمُ فِي الْوَجْدِ تَحْيَا.. فَطُوبَى لِلْهَائِمِينَ). رددت الجملة مرات بغيضة. هي التي تخيلت أن روحها قد ماتت كمدا عبر سنوات من خيبة الأمل ومن حشو الوعظ الأخلاقي اليومي الكاذب. الآن ترمي الجملة صدعا في روحها. تأثيرها في الوقت المناسب قبل انهيار الأمل.

بالجسد كمموا روحها عمرا طويلا بلا رحمة. وربطوا روحها بجسدها بقيود أخلاق وهمية، فكادت تضيع منها الروح. بل ظنت مرات أن روحها قد غادرتها من زمن، وما تبقى لها هو جسد؛ هو بقرة للزوج ونحلة للأولاد، لكن حتى البقر هناك من يقدسه على أرض أخرى من هذا العالم، وحتى النحل له في الأديان تمجيل!

5

شمع مشتعلة على منضدة ومدفأة حطيبة صوت لسعاتها يبعث دفنا، وزجاجة نبيذ وخبز وأجبان وتين وزيتون، ثم رائحة جسد فائز يفيض ويرسل شفراته الطبيعية بغرizia الأشى؛ شفرات تفهمها غريزة آدم منذ بدء الخليقة؛ فيستجيب وتستجيب هي أيضا.

لم يكن يخطط لأكثر من قضاء وقت طيب معها، يدردش ويضحك ويحبيب على الأسئلة المؤجلة، وهي لم تفك في أكثر من صحبة ودردشة ممتعة برفقته. وقف دون سابق إنذار كحيوانين سيتصارعان. مزع كل منهما ملابس الآخر في وحشية متناغمة. كانوا يستمتعان في شغف بفعال وصوت التمزيق. كأنهما يمزقان هذه المدينة التي ارتدياها، عادا بالعربي إلى

الكهف الأزلي للبدائية الأولى. شدها فأطاعت، شمها فانفلتت، احتواها بذراعه بقوّة فاستسلمت، واختفى فيها ملتحماً واحتفت بجسده متّعنة. لم يكونا ثمّلين ولا محرومين، بل شعراً أنّهما يتخلّصان من ثقل لا دواء له إلا بهذا التمزّق الكامل وهذا العري التام!

لم يكن المطر قد توقف حين غادر آدم المتحف. خرج متخففاً نسبياً بما قاله لأوليفيا لكنه شعر بحرارة من لقائه بها. لقاء أحسّ كأنه تأخر لدهر كامل. لم يرغب في ركوب الترام إلى بيته. فضل أن يسير تحت المطر، ربما ليغسل به ملامح لقاء غير متوقع باعثه ذاك المساء. رفع مظلته وعبر مجمع الفنون في اتجاه بيته. سيحتاج لربع ساعة بخطوة سريعة ليكون في البيت.

في وقته عند أول عبور للمشاة وقفت إلى جواره هانيلوره. حيثه بفرح كبير بل قبلته على وجنتيه للمرة الأولى، فهي لم تره منذ زمن طویل. ذكر لها أنه عائد إلى البيت ماشياً رغم المطر. استحسنت الفكرة وطلبت أن ترافقه إذا لم يكن لديه مانع، فهي في طريقها للقاء صديقة في مقهى "شيلينج" في الحي نفسه. يكره هذا النوع من الأسئلة المؤذبة التي تجبره أن يكون ودوداً في الرد وكاذباً على رغبته في آنٍ. أو ما برأه موافقاً.

كانت هانيلوره قد حضرت له منذ سنوات قليلة دورة تدرّيسية للهواة لإعادة تجليد الكتب القديمة وتصنيع دفاتر بشكل فني جميل وإعادة تصنيع الأوراق من ورق الصحف. التقى بها عدة مرات في مقهاه الأثير

قرب المعهد بالصدفة، ربما لم تكن صدفة وكانت مرتبة بشكل يجعلها تبدو كذلك. منذ اللقاء الأول بدأت تسرد له تفاصيل بؤس حياتها مع زوجها، عن تغيره عن السنوات الأولى بعد زواجهما السريع منه، حتى إعجابها بفحولته وتقها الشديد لمارسة الجنس معه نهاراً وليلاً، تحدثت عنه بلا حرج. رغم أنها في الدورة التدريبية لم تكن تثرث أو تخرج عن الأسئلة الجادة، كانت تتمتع بكىاسة وانضباط يستغرب فيه حالة البوح التي تتباها عند كل لقاء وحدهما، يتعجب من انتلاقها معه في الحكى عن خصوصيات حياتها بتحرر كبير وهي لا تعرفه جيداً. لم تكن مبتذلة أو حمقاء بل تحكى حياتها بصدق وتوجع، لكنه ظل متوجساً من اختيارها له وحريراً على التحفظ مكتراً من وظيفة أذنه مقللاً من وظيفته.

يدرك وجود أشخاص يشعرون بذلك طبيعياً لآخرين بعيونهم، يختارونهم بمجلسات أمان مرهفة، ليفرضوا معهم في أدق الأسرار عن ثقة فيهم ورغبة في التنفيذ عن كثب وإحباط يكادان يشلان الروح!

ثرثرت طويلاً في الطريق القصير. قالت إنها انفصلت عن زوجها قبل خمسة أسابيع، ورغم أهمية الموضوع، استمع لها بنصف انتباه على غير عادته؛ فحالته لا تسمح بالنصيحة ولا حتى بالإنصات الكامل. ظل كل نصف دقيقة يومني برأسه أو يسأل أسئلة مقتضبة بطرح أداة السؤال فقط من نوعية: لماذا؟ وكيف؟ التي تتطلب إجابات مسيبة حتى يتسعى له أن يسير مع أفكاره في شبه سلام!

لا يعرف أين بالضبط ولا متى انفصل، وسار كل منهما في طريق،

ولا حتى كيف كتبت له رقم هاتفها في ورقة دسها في جيبيه بما تبقى من ترکيز، طالبة منه أن يتصل بها مرة لو أمكنه من أجل لقاء سيسعدها؛ فأوّلًا برأسه موافقاً.

وصل إلى البيت. يسكن في الدور الأخير من مبني حديث نسبياً ذي سقوف واطئة، الدور الثالث عشر. يرى تقريباً فيينا بكاملها من شقته. يحب الوحدة والتأمل، يعيش رؤية الأسطوح القرميدة للبيوت بلونها الأحمر القاني المائل للبني صيفاً، والناصعة البياض من تراكم الثلوج شتاء. يحب أن يرى الأفق الأخضر بعيد المرتفع لغابات فيينا. يشعر بارتياح أصيل بداخله حين يرى حدود المدينة من مكانه، كأنه يرى حدود بيته وبطمئن لمسافاته. شقته هي عشيقته الأثيرة، يسكن فيها وإليها، هكذا يقول لأصدقائه. يقطنها منذ أكثر من ثلاثة عشرة سنة. هو الساكن الأول فيها، وتشعره هذه البكارة بنوع من الانتماء والامتلاك.

عندما فتح الباب استقبلته إيزيس بالمواء المتند الطويل كشكوى عن غيابه، ثم بالللف حول قدميه والتمسح بساقيه شوقاً لحضوره، اضطر كدأبه أن يتمهل في خطواته لكيلا يدوس على طرف لها، كلّمهها كمن يحادث طفلته معتذراً لها عن التأخير واتجه فوراً نحو المطبخ. ففتح لها علبة طعام وفرضها بالقرب منها، يمسح على شعرها ويسمع قرققة سعادتها بوجوده وبطعمها الطازج. يوضّحها بروح داخل شقته، روح تنتظره وتسعد بهدا الكلام. في وجودها يشعر بروح داخل شقته، روح تنتظره وتسعد بحضوره، حتى لو كانت روح حيوان. يطلب دائماً من جارته فراو

بيليكان^(١) أن ترعى إيزيس في سفره وأحياناً في تأخره عن العودة.

فراو بيليكان امرأة فاتنة في الأربعين تقريباً، لها جمال وسط أوروبي ملفت، طبيعي وغير مفتول، بسمتها شفافة مرتاحه تأسر الناظر إليها حتى قبل أن تنظر إليه، وكلما أخفت إشراق جسدها عن لوثة الأعين المتربصة بانت أكثر ألقاً دون أن تدرى، رغم بساطة أناقتها وذوقها العالى بلا بذخ. آدم كان يستغرب من وحدتها في جمالها وعنفوانها بلا شريك. تشبه الممثلة البريطانية "كيت إلزاييت ونسلت" بطلة فيلم "تايانك"، تبدو فقط أكثر امتلاء لكن لها الابتسامة نفسها والملاحة نفسها. تعيش ميسورة الحال ومكفيّة بنفسها وبرعاية قطها "ليرم"^(٢)، أسمته بهذه الاسم لأنه يقرقر طوال النهار والليل، في صحوه ونومه، بصوت أعلى من القرقرة المعتمادة للقطط، وهو ايتها الأثيرة هي الصعود للمكتبة ودفع الكتب إلى الأرض ثم الهجوم عليها وعزيقها، ربما تعويضاً عن فرائس تحوم في غريزته ولا يعثر عليها في هذا المكان، أو قيامه بفتح دوليب المطبخ وإسقاط الأواني والخلل والجلوس داخلها. يقوم طوال الوقت بحملات ذات ضجيج، وله صوت عجيب حين يموج؛ صوت خشن وطويل يثير عطف ومحبة فراو بيليكان له أكثر، ويثير استغراب وضحك الضيوف. يشغل فراو بيليكان مثل طفل شقي لا يهمد، ويبدو أن هذا هو أكثر ما يجذبها فيه و يجعلها تشعر بضجة الحياة وحياتها في شقة هادئة في الدور الثالث عشر.

(١) Frau (فراو) وتعني بالألمانية السيدة.

(٢) Lärm وتعني في الألمانية ضجة أو ضجيج.

تمتلك مكتبة لبيع الكتب قرية من السكن، وتعود بانتظام يومياً في فترة راحتها من الثانية إلى الثالثة لترعى القطتين: إيزيس وليرم، وتُعتبر صاحبة آخر مكتبة لبيع الكتب في الحي، ورثتها عن أمها وأبيها اللذين عاشا الفترة الذهبية للمكتبات في نهاية القرن الماضي قبل ظهور الطلب الإلكتروني الأرخص عبر الانترنت وخصوصاً "أمازون" وسطوة المكتبات الضخمة. ليس لديها أطفال، تزوجت مرة وانفصلت، وعاشت فترة مع رجل اختفى من حياتها بعد عام تقريباً، فعاشت منذ ذلك الحين وحدها. تبدو في حال أفضل وأذهى كلما بُعدت عن الرجال أو بعد الرجال عنها.

كثيراً ما يلتقي آدم بفراو بيليكان في شقتها أو شقته، يشربان قهوة أو نبيذا معاً أو يتناولان وجبة خفيفة، أو يشاركانها مناسبة لديها أو العكس، انسجامهما كان يوحى دائماً للضيوف أنهما زوجان أو حبيبان أو تربطهما علاقة خفية ليس من فضول أحد الاستقصاء عنها. لم يعرف أحد أن العلاقة توطدت بينهما بهذا التقارب الفريد المحايد منذ ست سنوات هي عمر إيزيس، دون أن تتطور تجاه قلب أو جسد. بقيت علاقة واضحة ومتينة وعميقة دون غوص أحدهما عميقاً في أسئلة خصوصية، وإن كان كل منهما منصتاً جيداً لفضفضة الآخر. كان بينهما دستوراً خفياً بالحياد التام للصدقة والجيرة وعدم الانحياز للفضل المزعج، شعراً أنهما لو تجاوزاً هذا الخط المريح فسيخسر أحدهما الآخر تدريجياً.

* * *

يعشق آدم الرقم 13 منذ صغره، ويُسخر من أصحابه بالديكتروفوبيا

الذين يتشارعون منه، ومن يتجنبون أن يحمل منزلهم هذا الرقم أو غرفتهم في الفندق أو أي مكان يحمل الرقم 13، فهناك الكثير من الأساطير والحكايات المرتبطة بهذا الرقم. يقول البعض إنه يرجع إلى السريان أو إلى روما القديمة حين كانت تجتمع الساحرات في مجموعة تضم 12 ساحرة والشيطان هو الثالث عشر، وهناك توافقات كثيرة لكوراث حديث يوم 13 من أي شهر، أو في عام 13 في سنة ما، أو عند الرقم 13 بأي شكل كان، وينسى الناس أن هناك كوارث أكبر - تحدث كل ساعة وكل يوم وعام - لو تم تجميعها لتشاءموا من كل الأعداد وكل المواقتيل والتاريخ بالصورة نفسها، هو يرى لهذا الرقم على عكس المتشائمين، فقد ولد في الثالث عشر من يناير، ووصل إلى فيينا في يوم الثالث عشر من ديسمبر وأنهى أطروحته في يوم الثالث عشر من مارس. وحصل على عمله يوم الثالث عشر من يناير أيضاً، كلها صدف تاريخية ناسبت لهذا الرقم، أو ربما ترتيبات لأقدار أعلى، لكنه بات يعشق الرقم 13 ويدافع عنه أمام من يحملونه الشوئ والكوراث.

تقاءل خيراً حين سكن في الدور الثالث عشر!

لقاء أوليفيا أثار في نفس آدم الواقع، وأفقده شهية العشاء، مع أنه كان قد جهز لنفسه في اليوم السابق وجبة سمك "شيطان البحر" التي يحبها. كان يشعر بعد انتهاء عمله بشهية كبيرة قبل أن يجلس في المتحف. وقف في المطبخ يراقب إيزيس وهي تأكل، ثم توجه لغرفة الخزين الصغيرة

المراجحة للمطبخ، وسحب زجاجة النبيذ أحمر، دون أن يقرأ اسمها على غير عادة منه. فتحتها وذهب بها إلى الشرفة، وضعها هناك على المائدة وتركها لتتنفس كما يفعل دائماً مع النبيذ الأحمر. عشر دقائق في الهواء الطلق، تمنح النبيذ الجيد مذاقاً أصيلاً. ليس متاكداً من صحة هذا التصرف لكنها عادة في هذه البلاد، بالاعتقاد أن مذاق النبيذ يكون أفضل بعد فتح الزجاجة وتركها لبعض دقائق. أحضر كأساً واحداً، صب قليلاً وتذوق، ومع الجرعة الأولى شعر أنه يتذكر هذا الطعم الذي أحاله فوراً إلى مكان بعينه لا تخطئه ذاكرته:

"لا كروسته.. لا كروسته.. كارميليتا.. البيرو بيللو.. تروللو!"

حين نطق هذه الجملة المفكرة بصوت عالٍ، بدا كأنه يتحدث الإيطالية بطلاقة أو كمن يقوم بدور في مسرحية، لاسيما حين لوّح بيديه في الهواء، أو كمن يسرع بإجابة في فصل درسي أمام أستاذ. هو لا يجيد الإيطالية، فقط يعرف أسماء معظم الأطعمة الإيطالية ويزور المطعم الإيطالي في فيينا بانتظام، وهو أَحَبُّ المطاعم لديه.

ذكرى اليوم الذي حصل فيه على هذه الزجاجة من كارميلايتا الإيطالية تخلّي في ذاكرته ولسانه بوضوح؛ تلك المترجمة البارعة. كان في مؤتمر للمخطوطات في مدينة "تورينو" وكانت معرفته الضئيلة بالإيطالية تكفي فقط لتحية قصيرة أو لطلب وجبة ومشروب في مطعم لا أكثر. كانت كارميلايتا مسؤولة عن الترجمة للضيف المتحدثين بالفرنسية، وكان يحسن الفرنسية، فانضم إليهم للاستماع للترجمة، استلطف لكتتها

الإيطالية في اللغة الفرنسية، وعابثها مرات بلطف لأن التبليم والخمول كانا مسيطرين على الفريق الفرنسي والسويسري والكندي بكلمة قابضة للنفس رغم إثارة الموضوعات وثرائها. بدت كأنها تترجم في جنازة.

أثناء الغداء جلس إلى جوارها متعمداً. خشي أن يتناول طعامه جالساً جوار واحد من هذه المجموعة في جو أكثر كآبة مما عاشه معهم ومعهن، كانت مثله تحب الدعاية والمزاح اللطيف. في العشاء جلست تلقائياً إلى جواره بلا استئذان، فراق له ذلك. قال لها:

“كنت قد قررت أن أبقى في المدينة أربعة أيام إضافية بعد الموقر، وقد خطلت لزيارة جنوب ‘باري’ وخصوصاً منطقة ‘البيروبيلو’ التي قرأت عنها وعن بيوها العتيقة الفريدة وأتفى أن أقيم في واحد من هذه البيوت التي تسمى (تروللو)^(١)”

ضحكـت كـارـمـيلـيتـا بـصـوـت عـالـ وـبـانـدـهـاشـ، فـانتـبـهـ الجـمـيعـ. اـعـتـذـرـتـ، وـبـينـماـ هوـ مـسـتـغـرـبـ منـ ضـحـكـتـهاـ المـفـاجـئـةـ وـمـرـاجـعـ كـلامـهـ سـرـيـعـاـ عـسـىـ أنـ يـكـونـ قـدـ زـلـ فيـ القـوـلـ أوـ تـسـبـبـ فيـ سـوءـ فـهـمـ – بـادـرـتـهـ:

(١) بـيـتـ رـيفـيـ صـغـيرـ جـداـ، يـتأـلـفـ مـنـ حـجـرةـ وـاحـدـةـ أوـ حـجـرـتـينـ صـغـيرـتـينـ فـيـ الـغالـبـ، مـبـنيـ علىـ طـرـيقـةـ عـتـيقـةـ كـانـتـ فـيـ الـقـرـنـ النـاسـعـ عـشـرـ، فـيـ مقـاطـعـةـ بـارـيـ فـيـ جـنـوبـ إـيطـالـياـ خـصـوصـاـ فـيـ منـطـقـةـ الـبـيرـوـبـيلـوـ (alberobello) يـسـمـيـ تـرـولـلوـ (trullo) وـالـجـمـعـ تـرـولـلـيـ (trulli) وـهـوـ فـيـ شـكـلـ كـوـخـ دـاـرـيـ سـقـفـ مـخـروـطـ الشـكـلـ مـنـ الـحـجـرـ. كـانـ قـدـيـماـ يـسـتـخـدـمـ كـمـخـازـنـ أوـ لـابـوـءـ العـمـالـ الزـارـاعـيـنـ أوـ كـمـسـاـكـنـ لـصـغـارـ الـمـلـاـكـ. الـآنـ تـمـ تـطـوـيرـهـ لـيـحـفـظـ بـنـفـسـ شـكـلـ الـخـارـجـيـ، لـكـنـ مـنـ الدـاخـلـ تـوـافـرـ فـيـ كـلـ الـاـحـتـيـاجـاتـ الـحـدـيثـةـ. وـيـعـتـبـرـ مـعـالمـ السـيـاحـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ.

"لن تصدق! أنا مولودة في 'البيرو بيللو'، ولـي أقارب كثيرون هناك. وعمتي قتلت ثلاثة من هذه البيوت 'التروللور'، توّجّرها للسياحة.

نظر آدم إليها متوجساً وسعیداً ومرتبكاً ولا يعرّف ماذا يقول من الدهشة؟ فتابعت:

"لو أنك لا مانع لدبيك، فسأتصل بعمتي أنطونيا لأسألها إن كان أحد البيوت حالياً في الوقت الحالي؛ فنحن في عزّ الموسم السياحي، وسوف أتوسّط لك لتعطيك سعراً مخفضاً، لا تقلق!"

"هذا رائع! موافق طبعاً!"

"ولو لن تمانع، فيمكّنني أن أرافّقك إلى هناك لترى المنطقة التي أعرفها أفضل من لغتي؛ ففيها عن حق ما يستحق أن يُشاهد، كما أن لدى إجازة لأسبوع كامل بعد المؤتمر، لم أبرمج فيها أي شيء، وما دام معك سيارة، فهذا سيسهل الأمر كثيراً.. ما رأيك؟ هل هجمتْ عليك بلا توقع؟"

"بالعكس.. بالعكس. أنا سعيد للغاية!"

"إذن اتفقنا.. سأتصل بها حالاً.

ضحك يومئذ في سره من هذه الصدفة التي تبدو تماماً كتلفيقات الأفلام، ولكن أليست الحياة كلها تلفيقات، منها ما يتواافق فينسجم ومنها ما لا يأتلف فينحل، ما المانع من تلفيقه قدرية لا تضر أحداً. اتصلت

كارميليتا ذاك اليوم بعمتها بلهجة غنائية سريعة، وهو يتأملها ويعيد عن ذهنه أفكاراً شريرة ناعمة تسللت إلى مخيلته.

في الشرفة في بيته العالي في فيينا، انتهى آدم سريعاً من احتساء الكأس الأولى. عزاج شاهق، فعاد عبر الطعم والذكرى إلى هذا الأسبوع العذب الذي لن ينساه. قضى أحلى الساعات في جنوب إيطاليا بصحبة كارميليتا وأجرت له عمتها هذا "التروللو" على الهضبة العالية المتاخمة لحقل التين الواسع وشجيرات الزيتون. وأشارت بنفسها على تجهيز مشروبات وأطعمة محلية طازجة له طوال فترة إقامته.

في المساء الأول قدمت له العمة نبيدا محلياً لم يرق له، فلم يشرب منه إلا رشقة واحدة، ولأنه تعود ألا يجامل أحداً فيما يدخل بطنه ولا ما يدخل رأسه مهما كان، فقد أزاح الكأس برفق بعيداً وارتجل سواه عشوائياً يسد به ثغرة مbagته هو بسؤال عن مذاق النبيذ، فهو لا يرتاح لطعم النبيذ اللاذع بل ينسجم مع الطعام المليئ المكتنز المخجول المختلس، هكذا وصف آدم لكارميليتا النبيذ المفضل لديه بكلمات بدت عجيبة لكنه لم يختارها عشوائياً. فهمت كارميليتا وخففت من إلحاح العمة المتوقع بجودة النبيذ ومحليته، وأحضرت له بنفسها في اليوم التالي بعض الأجبان و"الباجيت" - هذا الخبز الإيطالي الشهير الذي يعشقه - وزيتوناً وتيناً محففاً وعين جمل ومعها زجاجة نبيذ أحمر (لاكروسته). ومع الجرعة الأولى من النبيذ انفرجت أسارير وجهه وجسده كأنه عبر هذا المذاق قد عثر على ضالته. سمي كارميليتا منذ الليلة الثانية ملاك لاكروسته. أعجبتها مداعبته. شربت معه وحكت له عن مكان هضاب الكروم التي يُصنع منها

هذا النبيذ. قضيا وقتاً مرحًا خفيفاً هنيناً امتناعاً بكثير من الأسئلة وأشباه الأسئلة وكثير من المناورات الخجولة والإجابات المؤجلة، ثم قبّلته على وجنتيه ثلاث قبلات قبل الوداع وانصرفت.

عاد ليأخذ حماماً حاراً في البانيو لينعسه. حمل معه كأساً من النبيذ وجهاز سي دي يستمع عبره لموسيقى فيردي الإيطالية وضع أسطوانة موسيقى الشراب (لاترافياتا) التي ناسبت حالته بامتياز، كما حمل صورة لمخطوطة نادرة تحتاج إلى جهد وزمن في الترميم، كان قد صورها في فيينا لكاتبة مجهرولة اسمها زينة بنت النّعام، وجد لها مجموعة نادرة من الكتابات الجنسية التي لا يعرفها أحد، ولسبب ما تم إخفاء المخطوطات التي كتبتها لزمن طويل، ومن وثيقة الانتقال والبيع الموجودة على بطن الكتاب من الداخل، وضح أنها انتقلت لثلاثة مشترين امرأتين ورجل، والأخير هو الناجر الذي يرجع أنها انتقلت على يده إلى أمير عثماني لم يكن يحسن العربية، لكنه اقتناها بسبب الرخافر الجميلة التي تميز أغلب صفحاتها. صور آدم المخطوطة التي تحمل عنوان: (إعانة النساء في الكفاح على شهوة النكاح) كانت المقدمة تبدأ بالقول:

(الحمد لله الذي خلق خلقه خلقاً قادرًا حليماً حكيمًا حاكماً لطيفاً منعماً...
لم أنور ولا أرضي بتألifi إنما في العرض ولا إفساداً في الأرض ولا تأييداً في
معصية المهيمن ولا إحلالاً لما حرم الباسط، بل غوثاً لمن قصرت شهوتها عن بلوغ
أمنيتها في الحلال وأملها في عمارة دنياها بالبنين والبنات فلا خلاعة في المرصود
بل شفاعة من المقصود وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام... إلخ) قرأ آدم

بانبهار كبير لطريقة السرد والجرأة والتمكن والعلم، حتى وصل إلى مقطع أثار إعجابه في حديث تقول فيه بنت النّعَام التي تخاطب المرأة من أول المخطوط لآخرها بكلمة: (يا نعمة الحياة) تقول: (يا نعمة الحياة! لا تدعني رجُل الذي يشتكِ بهيجان في جنون الجان ينصرف عنك قبل أن تجعليه يدمنك فيتبعك ويفعلك. ضميه ولها بأطرافك، لا تفكه حتى تستلذ أو أصرك منه، دعيه ينعم في نعمة نعومتك، ويعشق في مضاجعتك فتسلينه سلباً، افتحي له ثغرك عند القرب بسمة قبول وفرحة غنج، مثلما ينفتح فرجك الطالب للذلة الحنك وهزة الذك، وبوحي له برفشك وتحريوي، اتركي له لسانك يقصه ويلحس منه شهد الرضاب، وروحي في شبق الغياب أسرية وأسيرة حين يبحث فرجه عن فرجك، ادعِي الهرب والتملص في تغنج؛ فهذا أغنى الألعاب وأشهارها لك وله، ثم اشهقي بشكل حين يرشقك في شقلك، ودعه يعاين حلسك التائر ليثور ويختور، وارهزى لمنتهى الارتهاز، ثم اتركي عتاب عينيك دلالاً يخدر فحولته بالربط والحزم وما هو بمسطّر. سيكون طبعاً لينا كالعجبين، وجمراً كالنار، وقتها يعكتك أن تقلبيه تحتك، تركيه وتنكحيه وتطلبيه بلا نهاية، وسيستحسن منك ذلك ويستطيب ويستلذ طالباً المزيد، وجريبي أن تتمتعي بهزات بطنك على بطنه، وافرجي فرجك على فرجه وفرجيه وفريحيه، اجعليه رحى لمطر حنك واصححيه واطحنيه وابتليع ذكره بنداؤه وردىك، واعصريه عصراً حتى يتأوه في عذوبة العذاب، وغضبي في كتفه كما البوءة عند الذروة بالسن والأنياب، وثبتيه بيديك من صدره وكفيه وذراعيه وخربيه برفق ما يتاح لك من بشرته، ومصمصي أصابعه التي عند وجهك، وارمي شعرك عليه كشبكة صياد ليعتاد، وانهجي وارهزى واركري وانغزى وتلذذى في غمس لذتك بلذتها، وهمهمي وحمحمي في صهيل وشخير ونخير ورهز، ولا تتركي له

فرصة ليطلع من خدره إلا وهو يجاريك جاريا خلفك جري الوحوش، يلهث منك وتلهثين به بلا نهاية. طاوعيه وانطوي فيه فيطيب لك فحلا سهلا متساحا، هذا هو العشق العاري الباري الساري الجاري الضاري الناري؛ الوله الماجن الشاجن الماحن الداجن الشاجن العاجن؛ القاتل في أبهى حلل الهلاك حين يكون الهلاك أحلى فنون الفناء في لذة الإغفاء والهباء، و....)

برد ماء البانيو دون أن يشعر من شدة استغرقه في إعادة قراءة مقاطع بعينها لمرات. أضاف ماء ساخنا حتى انسجم جسده في حرارة المياه من جديد. أعجبته هذه الجرأة في الكتابة في قرون ولت. استغرب من أن كل هذا التراث الجنسي الرفيع في الأدب قد غاب أو ضاع مع الزمان، وصار فهم مغراه مستخلفا على عقول امتلأت بتحوير كل ما يتعلق بالجسد إلى التحرير والفضيلة وكل ما يتعلق بالروح إلى الغيب. وجاء من طمس الأدب بحججة انعدام الأدب، وأصبح الحادبون على محوه هم أكثر الناس شغفا بمحطاته والحديث عنه وتمريره لبعضهم سرا وبقراءاته دون فهم ودون متعة عقلية أو جسدية، بل متعة من يفك أسر رغبته سرا بالعادة السرية. استغرب أنه عاش في زمن دجنه هو أيضا كرجل فإن خرج عن مسار العادة والتقليل صار غريبا، زمن طبعه بطبع خرب الكثير من سليقته.

قام من البانيو مرتعينا بالراحة، جفف جسده وهو في حالة من الدفء تسرّ وتسري للكل أطرافه. غسل أسنانه واتجه إلى السرير متعمماً، أراد أن يستكمل القراءة لكن خفوت الضوء في الغرفة عسر الفكر، لم ييتئس بل مدد في نعمة الكسل، ركن المخطوطة على المنضدة الواطئة جداً ونظر إلى الساعة ولم يستطع تحديد الوقت، أطفأ النور، واندماج بخفة إلى نوم لذيد

من أثر الماء الحار وطيب الخمر. راح في حلم شده معه تحت الغطاء. نام كطفل تجرع وجنته من الحليب بعد يوم من عافية الشقاوة، غفا ملائقاً في السماء السابعة فوراً. تذكر حلمه في اليوم التالي بتفاصيله كواقع حادث.

جو الترولو العتيق والشموع المشتعلة على المنضدة والمدفنة الخطبية بصوت لسعاتها الذي يبعث الدفء، وزجاجة النبيذ والخيز والأجبان والتين والزيتون، ثم ظلالهما التي تتلاصق معاً في المخالفة على الحائط وتفترق بانسجام، ثم رائحة كارميليتا التي تهفهف في كل لفته وكل قيام وكل جلوس، رائحة طبيعية ممزوجة بشذى بستان ورود، رائحة الجسد الفائز وهو يفيض ويرسل شفراته الطبيعية بغرizia الأنثى؛ شفرات تفهمها غريزة آدم منذ بدء الخليقة؛ فيستجيب و تستجيب.

لم يكن آدم يخطط لأكثر من قضاء وقت طيب معها، يدردش ويضحك ويحبيب على الأسئلة المؤجلة، لكن الملائكة الساكن بداخله كان يتبدل لشيطان الشر اللذيد، يوجهه لما ينبغي أن يُسطّر في مخطوطة حياته. كارميليتا أيضاً لم تفكّر في أكثر من صحبة ودردشة ممتعة برفقته، فعقله يحتضن عقلها وعقلها يميل لعقله، والجسد سيداً من تلك اللحظة مخيّراً لينتهي مسيراً، لكن قدرًا متظرًا جمعهما الليلة في هذه الغرفة الضيقة. ظلالهما على الحائط بدأت في الضم والتمازج بلا انتظار، أشباء لهما على الحائط تقوم بدورها دون موانع ولا معوقات. دون سابق إنذار وقفَا كحيوانين سيتصارعان، مزع كل منهما ملابس الآخر في وحشية

متناغمة. كانا يستمتعان في شغف بفعل التمزيق وصوته. كأنهما يمزقان هذه المدينة التي ارتديها تدريجياً منذ قرون ولم يرتضياها في عمق الغريزة والفطرة، عاداً بالعربي إلى الكهف الأزلي للبدائية الأولى. شدها من شعرها نحوه شدة رغبة، فأطاعت بربما وهو ينفتح فيها ناره كتنيين. في هذا الهدوء الشامل كانت المدفأة الخشبية تطرق بلساعاتها. وفق نغمات أنفاسهما اللاهثة. شمها آدم كأنه سحبها إلى رئتيه وزفر فيها زفراً هائجة، صارت تسب بطريقة غجرية، لا تسبه هو، بل تسب كل ما يعوق هذا الانفلات اللذيد، تنطق ألفاظاً بذيئة بالفرنسية لم تتبس بها في حياتها، أثارته بانفلاتها المفاجئ القذر البذيء العالي الصوت، فاحتواها بذراعيه بهيجان مارد متتوحش وعلت أنفاسه بشخير الشهوة، فاستسلمت. انزاح بها نحو الحائط في رقصة عنف، وظلماً الواحد المتضخم خلفهما يصغر حتى اختفى خلف ظهرها الملتصق بالحائط، بعد أن قام بدور الملقن والمهين وانصرف؛ اختفى آدم فيها ملتحماً واحتفت هي بجسمه متنعمّة.

لم يكونا ثملين للاعتقاد بأنهما تمازجاً بلا إرادة ولا محرومٍ من مجرد انتهاز فرصة سانحة في الخفاء، بل شرعاً أنهم يتخلاصان من ثقل لا دواء له إلا بهذا التمزيق الكامل والعربي التام وبالتللامح الكامل والتحرر التام، من سطوة المكبوت المنْفَض الخفي رغم كل هذه الحرية المطلقة!

* * *

استيقظ آدم مبكراً جداً وبقايا حلم منفلت نادر أشعره بإرهاق يدغدغ كل عضلات جسمه في لذة مخدرة. وجع حلو جعله يفكّر في التراجع عن

الصحو والاستسلام للكسل والرجوع من آخر الحلم لأوله. ابتسם بامتلاء رجل متوازن ريان. لكنه لم يكن حلما، فكارميليتا متoscda بالفعل أول كتفه وصدره، وجهها مختلف تحت شعرها الطويل المنكوش يرسم لحكاية تمت أو ستبدأ. أنفاسها خافتة هادئة مستكينة. رفع شعرها عن وجهها فطالع ملامح وجه مرتوا باسم. ثم جبئتها برفق فتمددت كقطة ثم التأمت كلها في جسده محتضنة إياه كجزء منها وراحت تستكمل بقية نعاسها أو حلمها.

* * *

تنى آدم في لحظة الصحو هذه ومع الواقع الحي الذي يتوسد صدره، أن تكون رفيقة حياته - حاليا في فيينا هي مارتينا ماريا إليزابيت - وهذا اسمها الثلاثي الذي اختاره لها أبوها وأمها وجدتها لأمها، كل باسم مختلف، تنى أن تكون هي من يحتويها في صدره بهذا الإحساس الذي غاب عنه منذ أزل، تنى أن يصحو يوما وهمما معا في نعمة الجسد الواحد. لم يحدث مع مارتينا، على مدى ثلاثة سنوات وسبعة أشهر، مثل لهذا السكون والنعيم والدعة التي يشعر بها مع كارميليتا. لم يحدث مرة أن خرجت مارتينا عن المألوف أثناء لحظاتهما الحميمة وعربيهما اللام ومارستهما لأجمل متع الحياة. حاول حوالي مائة وثمانين مرة، يكاد يحصيها كلها بدقة، أن يجعل هذه اللحظات معها مبكرة مبهجة ومنفلة من أي قيود، إلا أنها تصر في تكرارها لمباھج السرير الذي يضمھما على روتين مزمن، حتى يكاد يشعر أنه نام معها مرة واحدة وبطريقة واحدة فقط، تكرر بالصورة

نفسها كحلم عبثي لا يفارق؛ لأن المرات كلها اختصرت في مرة واحدة تعددت في مواعيد صارمة محسومة بيومي الجمعة والسبت في أيام الرخاء، أو يوم واحد منها في أيام الضرورة، ونادرًا ما تخطئ وتسمح في غير أيام الإجازات؛ فإن أرادها في غير هذه الأيام تملص وتذكره بأنها أيام عمل لا يصح فيها المضاجعة، وإن اشتهرها نهارا تستغرب من طلبه في النور بحججة أن الليل لم يحل بعد، وإن طلبها وهما في فندق أو في بيت أهلها تلومه بأنهما في مكان غريب. لا يعرف من أين أتت بهذا الناموس العجيب. لم ترتو عيناه باحتساء عريها وضاع حق نظره المشتهي إليها. كان يمني ولو مرة واحدة أن يتأملها ويضاجعها ولو في ضوء خافت، بينما هي تربت دائمًا وبانتباه حازم لظلام تام، بل توئد حتى ضوء شمعة لو وُجد بالصدفة.

كانت مارتينا آية جمال يحسده عليها كل من يراها. كل ما فيها يذكر باللوحات البديعة في القرن التاسع عشر لنساء الإمبراطورية النمساوية المجرية. جسد عفي متناسق ورشيق، بصدر نافر جميل الاستدارة ووجه حالم تزييه عينان واسعتان بزرقة سماوية صافية وأهداب طبيعية طويلة، الوجستان وردستان والمش الدقيق المتوزع على جسدها بشفافية يزيدها رقة ويظهر صفاء وجهها الناعس، ولكنها لا تقدم على ترجمة هذا الجمال الملائكي المنوح لها بإفراط في تواصل طبيعي يمنع آدم البهجة، حاول بكل الطرق أن يتحايل على جمودها لكنها تشيبت بموقع التحفظ. تربية أمها الصارمة لها أفقدتها معنى الاندماج مع الزوج الذي يحبها وتحبه. ونظام جدتتها الأزلي في فنون النظافة والترتيب خلق منها شخصية

هم حياتها التنظيف من المهد إلى اللحد. تقوم بترتيب الشقة وتنظيفها بشبه عصاب مرضي. تكاد تجبره على تغيير ملابسه كلها مرتين يوميا حتى ولو لم يغادر البيت، كأن الملابس لها صلاحية الارتداء لساعات محددة. ووظيفتها - بل لنقل هوايتها - تكاد تنحصر في الغسل والكي أكثر من الجلوس إليه والحديث معه أو مشاركته في إحدى هواياته المتعددة. ما إن يتنهيا من تناول الطعام حتى تنهض فورا لغسل الأطباق والأكواب وتفرغ المائدة ومسحها كأنها تعمل في مطعم. لو تجاوز وغسل الأطباق والأكواب قبل مجئها ليمنحها راحة ووقتا قضيه معه، تتذمر وتعيد غسل كل ما غسله بحججة أنه لا يحسن غسل الأشياء كما يجب. تناول مبكرا جدا وهو يعشق السهر القراءة، فيضطر للبقاء في منأى عنها لأنها تكره الضوء وصوت تقليل الصفحات أثناء نومها. هو يحب السينما والمسرح وهي تعشق التلفزيون، يحب الموسيقى وهي تحب الأوبرا، يعشق زيارة المعارض والمتاحف وهي تفضل تكرار مهمة بيتية غير ضرورية، يشاركتها أحيانا فيما تحب لكنها تشاركه نادرا فيما يتمنى، ولو فعلت يشعر بمدى تضجرها، فيفضل أن يكون بدونها. يحاول بصبر هائل أن يجد مشتركات لتقارب الحياة وإشاعة البهجة في محيط تواجههما لكنه يخفق على الدوام. ارتضى بالواقع، فهي لم تكن مقيدة الطبع ولا جلابة مشاكل، لكن روتينيتها خلّفت مع الزمن مسيرة بلا طعم وتكرارا مملا، وهذا أكثر ما أقلقه في هذه العشرة. كان يتمنى منها أن تقاجهه بتصرفات تثير المرح في خاطره، لكنها كانت تسير على نهج محفوظ في كل خطوة مثل مسيرة قطار لا يغادر قضبانه. في النهاية، بدأت روحه تخشى تسرب الملل إليها؛

فصار يتجنب مراجعة حياته معها؛ فإخفاقات الماضي في هذا المضمار لم تكن قليلة!

كان يعجه شعوره بأنها تتيح له جسدها ليعبث فيه كيما أراد لثالث ساعة أو نصف ساعة، مثل رضيع عند ثدي أمه يعبث في شعرها ووجهها قليلاً ويرفع وينام. بعد اللقاء تبرع فوراً للاستحمام كمن كانت تمارس رياضة. تعد لتغيير ملءات السرير بعد أن تطرد برفق منه فيضطر للذهاب للاستحمام، حين يعود للسرير كأن حدثاً بينهما لم يحدث، وتحتفى الكرميشات التي يعشق أن يراها على الأقل كآثار طفيفة عن معركة حب كانت! لم يكن مارتينا جافة ولا باردة المشاعر، بل يبكىها أي طفل يبكي أو أقل مشهد مؤذ ولو في فيلم، لكنها في تواصلها الحميم معه تبدو متحفظة في لحظات لا تتطلب إلا الانفلات، تكتم يدها صوت وصوتها للأورجازم وهو يتوله لصوت ذروتها الذي يهفو لسماعه مرة!

شعور جسدي عميق يغمره بالهباء عند استيقاظه وكارميليتا مستكينة في حضنه؟ تقلته، يشوبه إحساس بارتباك في أعماق خاطره البعيد؛ في بينما جسده لا يشعر بأي ذنب مرتكب، كان عقله لا يتوانى عن رمي أسئلة ثقيلة مركونة، لا يعرف من أين تقر هكذا كفران مذعورة من سفينة ستغرق، تكدر حدة الأسئلة تزورق متعة اللحظة وتقدس فرحة قلبه ونعمت جسده!



قضيا معاً سبوعاً من العسل. أعادت له كارميليتا الثقة في أن رومانسية

العلاقة الحميمة لم تنفرض بعد. كانا نهارا يجوبان القرى والمدن يمتعان أعينهما بجمال الدنيا، يعودان ممتلئين بالحبوبة وعشق الحياة، وليلا يفتحان زجاجة لا كروسته جديدة ويعيشان بين التين والزيتون والشمعون المشتعلة والمدفأة الحطبية والخبز والأجبان، مع ظلال فوران الطبيعة في جسديهما على الجدران. ويبدآن طقوس المزرع والنزع والغوص في متعتهما اللانهائية.

حين ودعها وغادرها، شعرا معا بحس حزين وفقد. وعدها بالعودة ووعدته باللقاء في فيينا. تواصلوا بعدها بكتابات إيميلات وبطاقات بريدية واتصالات تليفونية كثيرة.

مع الوقت، كانت الهوة قد اتسعت بينه وبين مارتينا ماريا إليزابيت ولم يرغب في أن يُخفي عنها مشاعره التي أدهشه أنها أصبحت محايضة بكل يسر، وتبخر كل ما مر بينهما وهو يستمع إلى كلماتها كأن شيئا لم يكن، عندما قرر أن يخبرها، وسألها بشكل مباشر متوقعا أنها تشعر بعكس ما يشعر به، فاجأته بأنه كان رائعا، لكن لوقت مستقطع فقط، لكن فكرة استمراره في أيامها لا تروقها، بل اقتربت عليه أن يكون رفيق الإجازات السنوية فقط، لكنه رفض هذا الوضع. لم يتطرق إلى الأسباب، ربما جرحت كبرياوه، واكتفى بما قالته كمبرر للابتعاد، تركها معتقدة أنها هي من تركته، مستمتعا بحس دفين بأن اعترافها هذا جنبه مصارحتها بمشاعره، التي مهما تطابقت مع مشاعرها قد يجرحها تصريحه بها. هو هكذا، يرى أن الرجل يجب أن يحتال. معروفة عند الفراق، ليوحى للأثنى عمنتهى الثقة بأنها الطرف الذي قرر الترك وإنها العلاقة في النهاية، انفصلوا

في صمت واتفاق سلمي، وبقيت بينهما مساحة ود للقاءات عابرة مع شاي أو قهوة أو أحاديث عامة لم يكن فيها تاريخ مشترك يعودان منه بأي حنين للماضي، مع الوقت صارا يلتقيان نادراً ثم بالصدفة وانقلبتا صفحة كتاب العلاقة لتصبح تاريخاً شبيه منسي.

بعد حين وتحت إلحاح الضجر والشعور بالوحدة، قرر أن يجدد علاقته مع كارميليا وأن يحاول تكسير جدار المسافة الذي بينهما بعد انقطاع طال نسبياً عن المعتمد. عاد التواصل فاتراً من ناحيتها، أدرك هذا من غيابها عن مواعيد تواجده في الدردشة، وتأخر الردود على الإيميلات حتى رسائل الموبايل التي حملتها شوقة ظلت دون رد. اعتقاد في البداية أنها مشغولة وبعيدة عن الإنترنت. لكنها اتصلت به يوماً بعد غياب تعدى الشهر، لتتبه بأنها قررت الزواج! قالت إنها تشعر نحوه بانجداب لم تشعر به من قبل حيال شخص آخر وإن آثاره لن تزول بسهولة، وإنها لن تنسى أحلى أيام حياتها معه، قالت كلاماً يحسده من يستمع إليه، بينما كان يستمع لمنياتها القلبية له بحياة سعيدة كمن يستمع لنشرة أخبار الاقتصاد، لم يحس بالأسى والخسارة. على الرغم من أنها بكت وأغلقت الهاتف، لأنه أدرك أنه لا معنى لكلماتها، كيف تتزوج غيره وهي تحبه هكذا! لهذا لم يصنف كلماتها بعيداً عن المحاجلة، والخروج من مأزق وجوده معها على الهاتف. ركن هاتفه على المائدة. لم يغلقه، كان صوت طينه يخترق الزمن القديم ويعيده لزمن ذاب فجأة، مثل لوح جليد حُشر بالخطأ في فرن. غمره فيضان من الأحاسيس المتضاربة خلف خليطها إحساساً غامضاً، ووضعه أمام نفسه، واعترف أنه ما حاول إعادة التواصل معها إلا تحت إلحاح

الضجر، ولو ألقى القدر فتاة أخرى في طريقه الآن لما فكر في كارميليتا ولو ارب الباب للقادمة الجديدة! هذا الاعتراف لم ير حه على كل حال، بل أدرك أن الفتاة التي يراها في خياله كل حين، تلك التي سيموت قهرًا إذا كانت لغيره، لم يلتقط بها بعد.

وبينما الأصدقاء والمعارف يحسدونه على نسائه الكثيرات وعلاقاته السلسة مع الجنس اللطيف، لم يشعر هو أبدًا في قراره نفسه بأي فخر أو تميز، بل بالعكس كان يشعر بالوحدة فور ابعادهن، وأحياناً يشعر بها في وجودهن، فيتعلل بصداع أو انشغال أو أي حجة تخطر بباله، لا يعرف لماذا يشعر بالأسى على الرغم من تفوق علاقاته كما يقول أصدقاؤه، ربما لأن شيئاً منه يكاد يضيع مع كل امرأة تفارقه أو يفارقها؛ يحس بأنه يسرّب روحه في أرواحهن ببطء ويصرف جسمه في أجسامهن مع الزمن، دون أن يتبقى له مع الوقت أي خزين من البهجة المشتركة المستمرة، بل مجرد خبرات عميقـة - أو لعلها سطحية - متتشظية لكنها غير ملموسة بوجود امرأة دائمة يسكن إليها!

يؤمن إيماناً راسخاً بفكرة لا يعرف مصدرها، أن العلاقة مع امرأة كي تكون مكملة لابد للجنس من دور فيها مثل الأرض الثابتة، ولابد للحب من دور فيها مثل السماء، الجنس وحده منقوص ويطغى الشهوة إلى حين، يتذكر مثل الجوع والعطش، والحب وحده منقوص، في انتظار حالة التوحد في الحبيب باللقاء به والفناء فيه من أجل ميلاد جديد يبعث الروح في القلب والجسم. هذا هو العشق الكامل. هذه هي المرأة التي يتمناها؛ امرأة يمارس معها الحياة بالقلب والجسم والروح.

هذه المرأة التي رسم لها صورة في خياله، في وقت لا يعلم متى ولا أين، لم تتطابق معها أي من النساء اللاتي عرفهن، حتى إذا اعتقاد في البداية أن واحدة منهن تشبهها، اقترب، وكلما اقترب بهت الصورة القابعة في المخيلة، بعد فترة يزهد البقاء معها، فأمنياته بأن تدهشه المرأة بما لا يتوقع، يجدها توقعه فيما لا يتمنى، فيفضل أن يروح للدانوب ويتأمل زرقة المياه وانسياب البحيرات على النهر وينصت لضحك الأطفال، أو يتجلو في غابة تشعره بأنه جزء منها، أفضل من البقاء في مهب ريح عطر امرأة لا تشبه روحه، حاول أن يكون صورة تجميعية عن صفات المرأة الحلم، المثال؛ الصف الآخر الذي خلق له منذ أن اقطع الخالق جزءاً من طين الأرض وشكّله في صورته، ثم اقطع بعد الانتهاء من نحته قطعة طين أخرى من المكان نفسه، وقام بتشكيلها على هيئة أنثى، ثم وضع التمثالين اللذين جوار بعضهما، ونفع فيما من روحه، فتحرّك آدم، وأول ما قام به أن نظر إلى أنثاه، ومن نظرته التي سرت فيها كالروح انتفضت، فأمسكها من يدها وانطلقا إلى البراري، هكذا هو يعتقد، أن أنثى هناك لم تخلق إلا له، باقية في ركن ما من أركان الأرض، ومصيرها الذي قدّر في بلورة الحياة الزجاجية، هو وحده ما سيقودهما للقاء حتمي في وقت ومكان غير متوقعين!

* * *

نصف زجاجة النبيذ كان قد سرى في جسده وحوله خدر استسلامي دافئ ومریح، لكنه في الوقت نفسه سرّى بذهنه إلى ذكريات بعيدة، وهو

جالس في الشرفة العالية يتأمل العالم بعين محايدة لا تغوص فيما ترى، بينما تغوص العين الداخلية بعيداً إلى أروقة النفس وتفتش عن أشياء لا يعرف ما هي بالضبط، وتحرّى عن أشخاص لا يعرف من منهن ومنهم سيلوح. صب لنفسه كأساً ملأها حتى الحافة، ومع الرشفة الأولى بربت امرأة من ركن خافٍ في أقصى الذاكرة. ابتسم لنفسه في سخرية مندهشاً، متسللاً:

"هل نيد هذه الزجاجة معصور من النساء؟ كلما رشت رشفة
صعدت إداهن كالسحر، إما إلى لسانِي أو إلى مخيالي، لكن
لا بأس، غداً السبت إجازة ويعكتني أن أشرب الآن كما أريد
وأصحو وقتما أحب، وعلىَّ أن أحيرهن فوراً من قمقم هذه
الزجاجات!"

بدا أنه أراد بلا شعور أن يستعيد تاريخه النسائي، وهو يدرك أنه حاصل بالإخفاقات أكثر من النجاحات؛ لكنه أراد أن يراجع حياته بحثاً عن عزاء في ملامح علاقة مرت وتركت له قليلاً من التوفيق. ترك العنان لذاكرته. استرخي في مقعده شاعراً بسريان الدفء لأوصاله وبالرغبة في ترك شريط الذكريات يسترسل كييفما اتفق. جاءت إيزيس قفزت إلى حجره استدارت حول نفسها مرات عكس اتجاه الساعة كأنها تساعده على استرجاع الزمن، ثم التوت في دائرة وراحت في نوم آمن.

أول من لوحَت من باب الذاكرة كانت هي، هي التي لا تنسى. تجرَّع رشفة كبيرة من الكأس ومسد بيده على شعر إيزيس، وغاص في ألبوم

الذكريات. تلاحت الصور سريعة بلا ترتيب، فتمهل قليلاً ليستعيد أيام تلك الفرس العربية الفاتنة.

ففي أحد الأيام نقلوا اتصالاً تليفونياً إلى ورشته محوّلاً من السنترال الداخلي للمكتبة الوطنية. قالوا إنّ هناك سيدة تتحدث بلغة الإنجليزية سليمة وتسأل عن مخطوطة بالعربية، لذا جئناها إليه في قسم المخطوطات وحولوا المكالمة إليه. ردّ فوراً بالعربية على المتصلة:

"أهلاً وسهلاً مرجباً! من معى؟"

"مرجاً أستاذ! عندي سؤال من فضلك.. أبحث عن مخطوطة بعنوان (عناق الاشتياق بعد الافتراق للمنان وَ النيل الرّياق). هل أجدّه لديكم؟ ألسْتم مكتبة فيها؟"

"نعم، نحن فرع من مكتبة فيينا الوطنية، المكتبة العامة للإعارة، وليس مكتبة لبيع الكتب! من أين عرفت بهذه المخطوطة؟ إنّها مخطوطة نادرة لا توجد سوى لدينا وهي قيد الترميم في الوقت الحالي!"

"ذكرت لي صديقة درست في فيينا أن هذه المخطوطة موجودة لديكم، وأنا على استعداد لدفع أي مبلغ تحددونه للحصول على نسخة مصورة منها؟"

"ولكننا للأسف لا نسمح تصوير المخطوطات قيد الترميم!"

"سأدفع لك كل ما تطلبه من أجل صورة واحدة منها فقط!"

"آسف يا أستاذة! لكن هل يمكن أن أتعرف عليك لو تكرمت؟
ومن أين تتصلين؟"

"سأدفع لك ثلاثة آلاف يورو مقابل نسخة واحدة مصورة فقط
من هذه المخطوطة! فكر في الأمر أرجوك، وسأتصل بك غدا!"

أغلقت الهاتف وآدم يضحك بسخرية من هذه المسوسة التي تعتقد أنه بإمكانها شراء أي شيء. خشي أن يصارح مدير القسم بتفاصيل المكالمة، فقد يدخل معها في مفاوضات جادة من شأنها أن تزعجه في التعجيل، بانهاء ترميم المخطوطة في أقرب وقت، وتضاعف عليه العمل.

تذكر تفاصيل الحوار الأول مع هذه السيدة واتصالها بالفعل في اليوم التالي ثم مرات بعد ذلك. كانت على دراية كبيرة بالمخطوطات، ومطلعة على أهمها وأندرها، وثقافتها غزيرة - عكس ظنونه الأولى عنها - وتحدث بلباقة وأدب. وأكثر ما أعجبه منها هو اعتذارها الفوري في بداية اتصالها في اليوم التالي عن عرضها السابق لأموال مقابل المخطوطة، بشكل ربما بدا غير مهذب لم تقصده - كما قالت - وأن رغبتها الأكيدة في نسخة منها أظهرت لهفتها في صورة ربما تكون متعرجة بعض الشيء وهذا ليس من شيمتها. قالت أيضا صراحة إنها ليست طالبة ولا باحثة ولا صحافية، وإنما مجرد قارئة نهمة، تقتني أندر المخطوطات في وله تعدد الهاوية!

توطدت العلاقة أكثر بالدردشة المتكررة، عن النسخ النادرة الموجودة لديها، وب الحديثها العارف بعالم المخطوطات وأمكنة تواجد أهمها، وبدأ

الحديث معها يأخذ منحى التشوق المغلق بالفضول، حديث ممتع للمرة الأولى في عمره عن عمل يعشّقه حتى النخاع، وتصريحات عن هوايتها التي تعدد الاحتراف إلى الإمام بأندر وأهم المخطوطات؛ عن هوى في نفس آدم منذ أزل، لم يدخل أحد إلى هذه المنطقة الحبيبة إليه إلا بكلام سطحي واستفسارات تافهة أو بأحاديث نظرية مملة أو اختصارات غير مشبعة أو أبحاث وتقنيات جامدة عن الترميم، ناهيك عن المؤتمرات الروتينية، ولم يتغير أحد في خليلات عن متون المخطوطات إلا نادراً؛ فأغلب المتأخ هو مجرد تحقيقات وإعادة طباعة مع مقدمات وصفية وتاريخية لا تغوص في فلسفة النصوص. الأغرب بالنسبة له أنها لم تفصح - في كل هذا الوقت وعبر كل هذه المحادثات المستفيضة - عن اسمها بالكامل؛ فقط اسم "نور"، ولم يزد تعريفها عن نفسها أبعد من هذه الحروف الثلاثة، تقبل منها هذا الاسم وخاطبها به، رغم إحساسه في قراره نفسه أنه اسم مستعار، لكنه رأه يشبهها، فاكفى به رغم فضوله الملح.

بعد الاتصال الثاني منها استثير فضول آدم لقراءة مخطوطة (عناق الاشتياق بعد الانفصال للمنان وذ النيل الرّيّاق). تذكر أنه تسلّمها الخريف الماضي في حقيقة جلدية عتيقة، تفوح منها رائحة عطنة، كانت في حالة يرثى لها. أنته مفروطة الأوراق وفي حاجة لجمع عسير بسبب إغفال ترقيم الصفحات. كان قد أجل التعامل معها لشهر الشتاء. أخر جها من المخزنة وكانت صفحاتها الأخيرة تحديداً قد تعرضت لتلف بالغ بسبب سوء تخزين المالك الأخير.

اتصال نور وإصرارها أثارا فضوله مرتين: مرة لأن المخطوطة نادرة بالفعل و موضوعها حساس متعلق بالجنس عند المرأة، ومرة لأن من طلبها امرأة وبكل صراحة وجرأة. قرر منذ الاتصال الثاني أن يبقى في الورشة لوقت أطول بعد العمل ليراجع هذه المخطوطة العجيبة التي شعر بأنها ستكون ذات شأن أعظم من قيمتها المادية والمعنوية بسبب اقتران رغبة نور بها. صار يرتب في صفحاتها بصعوبة وجهد، استغرق منه أمر ترتيبها ما يقرب من ثمانية أيام، ولو لم تكن له خبرة كبيرة لما استطاع تجميع هذا اللغز المفروط في ثلاثة وتسع وخمسين صفحة، عالج بعض الصفحات شديدة التهروء بدعامات وأغلفة مؤقتة من البلاستيك حتى لا يزداد تلفها بين أصابعه من تكرار الفحص. بدأ بترتيب الصفحات بعنابة وحرفية وفق تشابهات التهروء والبقع على الصفحات ودرجات الأصفار، وبعد ذلك انخرط في قراءة نهايات وبدایات سطور الصفحات بعنابة للربط الصحيح بينها. عانى كثيرا من ضعف أخبار بعض الصفحات ومن صعوبة وندرة بعض الكلمات المستخدمة، ومن الاشتقاقات اللغوية الكثيرة عن اللغة الفرنسية والمكتوبة بالعربية دون هوامش أو تفسير، إلى أن رتبها تماما في اليوم التاسع؛ فكان أسعد الناس خاصة حين وجد المخطوطة متکاملة لا تنقصها صفحة واحدة، كان متشوقا للغاية لقراءتها كاملا من جديد، لأن المقاطع التي أثارته أثناء الجمع لم يتوقف عندها كثيرا التركيز في عمل الجمع، لكنه يتذكر مقاطع في غاية التشويق والإمتاع والدهشة والجرأة والتجدة.

المخطوطة - كما هو مكتوب في بطن غلافها الداخلي - اقتناها أحد

المستشرقين النمساويين في تركيا في أوائل القرن العشرين، بدا أنها كانت مخطوطة نادرة وعثيرة لم يُعد نسخها وربما تكون الأصل الوحيد الباقي، حتى إنه لا يُعرف لها مثيل في أي مكان آخر. عند جمعها تحرّى عنها في كل مراكز المخطوطات حول العالم التي تتعاون معاً في البحث عن الأصول وعن النسخ الأصلية والنسخ المقلدة والمحرفة، وعن أعدادها وأماكن تواجدها، كما أن هناك فهرساً إلكترونياً عالمياً يجمع كل هذه المخطوطات لدى هذه المراكز المختصة. وجد فقط عنوان الكتاب في فهرس مكتبة بيروت الوطنية لكن دون أصل.

أما نسخة (عناق الاشتياق بعد الانفصال للمنان وَ النيل الرَّيَاق) فهي نسخة جريئة في المحتوى وفريدة في اللغة وتتضمن دراسة ميدانية اجتماعية ربما هي الأولى من نوعها في العربية عن طباع المرأة الأوروبية في أحوال وطائق الجنس وهو مقسم إلى جزأين: (الجنس الحال لنساء الغال^(١)) و(الجنس الحال لبغايا الغال). استغرب آدم - كلما غاص في القراءة - من طلب نور لهذه المخطوطة الجريئة، فالبلد الذي تعيش فيه قد يحاكم من يحمل صحفة واحدة من هذه المخطوطة بالسجن مدى الحياة. قالت له في دردشتها معه إنها تعرف عن المخطوطة منذ زمن بعيد، من عم كبير لها عمل في السلك الدبلوماسي في استنبول منذ سنوات بعيدة وكان صديقاً

(١) الغال وهي بالفرنسية *Gaule* وباللغة اللاتينية *Gallia* 'غاليا' وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهي المنطقة الممتدة من شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين. كانوا يطلقون على الغاليين لقب ذوي الشعر الطويل لأنهم لم يكونوا يحلقون لحاظهم أو رءوسهم.

للمستشرق النمساوي، وإنه ساعده في فك بعض المصطلحات الصعبة في العربية، وإنها وجدت بالصدفة ببعض صفحات مصورة بـ"كاميرا بو لارويد" حديثة داخل كتاب نادر استعارته من عمها، مترجم عن التركية ويحمل عنوان (نقد الترجمة النظيفة للقارئة العفيفة) ويخلو من اسم المؤلف وزمن التأليف، لكنه يتعرض لحقبة مهمة من التاريخ، كتب فيها المؤلف عن قيام عدّة مترجمين بترجمة بعض الكتب ذات الشهرة الشفوية في أمور النساء والتي كتبت باللغة الفارسية، وتعرضت لموضوعات في غاية التشويق والجرأة في حياة النساء، وكانت الحيلة أن يتم ترجمة هذه الكتب للعربية بعد تحوير وـ"تنظيف" محتوياتها من كل ما يتعرض للحياة والأخلاق، ثم إعادة ترجمتها للفارسية من العربية مرة أخرى بعد إعدام الأصول. كان موضوعاً مربكاً ومعقداً لفترة من فرات الظلام الثقافي التي تهب بعمتها على بعض بقاع العالم كل حين.

احتفظت نور بالصور لترأها ثم تعدها في وقت لاحق. عندما زاد اهتمامها بالمخطوطات واقتناء النادر منها فيما بعد، بحثت عن هذه المخطوطة، ولما تذرع عليها الحصول على نسخة منها، ولم تستطع أن تدق فيمن يتوسط لها بشكل خفي أو صريح لسنوات طويلة، عرضت في ذلك الوقت على آدم أن تخضر بنفسها إلى فيينا. حدث آدم رئيسه في العمل بنية السيدة نور فيما يتعلق بالمخطوطة، فأوضح له أنه بإمكانها الحصول والإطلاع على المخطوطة، بشرط أن تأتي بشهاده موثقة من هيئة تعليمية أو صحافية بالغرض من الإطلاع، وأنه يمكنها نقل بعض المقاطع كتابةً لو أرادت، لكن لا يُسمح بالتصوير أو حمل النسخة خارج المكتبة.

صوت ولهجـة وطريقة حديث نور كل مـرة، أثـارت فضـوله ليـتعرف على هذه الشخصـية الجـريئة من هـذه الدـولة المـتحفـظـة. رـحب بـحضورـها وـتخـيل لـها صـورـة لم يـعـرف هل سـتطـابـق الأـصل أم لاـ، تخـيلـها اـمرـأـة مـسـنة غـيـبةـ، لكن صـوـتها النـاعـمـ الرـقيقـ كان يـربـكـ تـصـورـاتـهـ!

* * *

جاءـت نـورـ إـلـى فيـنـا وـنـزـلتـ فـي فـنـدقـ فـخـمـ وـشـهـيرـ فـي وـسـطـ المـدـيـنـةـ. دـعـتهـ لـزـيـارـتهاـ هـنـاكـ. ذـهـبـ بـعـد اـنـتـهـاءـ عـمـلـهـ، صـدـعـ لـلـدـورـ الـأخـيرـ فـي فـنـدقـ. حـينـ فـتـحـ الـبـابـ وـجـدـ بـابـ آـخـرـ، ثـمـ اـسـتـقـبـلـهـ اـمـرـأـةـ أـرـبـعـينـةـ مـلـيـحةـ الشـكـلـ حـيـثـهـ باـحـترـامـ كـبـيرـ، فـقـطـ صـوـتهاـ اـخـتـلـفـ عـنـ الصـوـتـ الـذـيـ يـعـرـفـهـ عـبـرـ التـلـيفـونـ:

"أـهـلاـ وـسـهـلاـ! السـيـدةـ نـورـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟"

"مـرـجـاـ بـكـ لـاـ، لـسـتـ السـيـدةـ نـورـ، السـيـدةـ نـورـ سـائـيـ حـالـاـ!"

ابـتـسـمـتـ وـهـيـ تـرـدـ بـصـوـتـ خـافـتـ وـجـمـيلـ، ثـمـ اـنـسـجـتـ مـنـ الغـرـفـةـ. أـدـخـلـتـ إـلـىـ صـالـونـ وـاسـعـ نـصـفـهـ حـائـطـ زـجاجـيـ دائـريـ بـسـتاـنـرـ مـفـتوـحةـ يـشـرـفـ عـلـىـ الطـرـيقـ الدـائـريـ الـذـيـ يـحـوطـ الحـيـ الـأـوـلـ، الـذـيـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ (رـنـجـ Ringـ)، فـيـ منـظـرـ رـائـعـ يـطـلـ عـلـىـ قـلـبـ فيـنـاـ، وـلـمـ يـسـتـغـرـبـ أـنـ تـقـطـنـ فـيـ جـنـاحـ كـامـلـ باـهـظـ التـكـلـفةـ. حـينـماـ اـسـتـدارـ لـيـكـلمـهـاـ لـمـ يـجـدـهـاـ. اـقـرـبـ مـنـ الزـجاجـ مـنـ الزـاوـيـةـ الـأـخـرىـ يـنـظـرـ إـلـىـ كـاتـدـرـائـيـةـ "شـتـيفـانـ" العـمـلـاقـةـ الـتـيـ تـوـسـطـ المـدـيـنـةـ بـنـقـوـشـ سـقـفـهاـ الـمـيـزـةـ، وـالـتـيـ أـعـيـدـ تـرـمـيمـهـاـ مـؤـخـراـ لـتـحـفـظـ بـطـابـعـهاـ الـأـصـلـيـ الـقـدـيمـ مـنـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ عـشـرـ. لـمـ يـرـ سـطـحـ الـكـاتـدـرـائـيـ

الملون من قبل من هذه الزاوية. سرح في تأملها لحظات وكل ذهنه مُركّز على ظهور نور.

لحظات وعقبت الغرفة بعطر خفيف يمهد لحدث ما. تبعه فوراً دخول امرأة فاتنة. استسلمت دواخله للعطر فوراً، لكنه أظهر رباطة جأشه؛ فهو يدرك نقطة ضعفه: المرأة ذات الرائحة الطيبة هي أجذب النساء. ظهرت نور كالنور. وجه فاتن ينهك الناظر بنظره ويفتن المتأمل، في ملابس عربية أنيقة مزركشة بألوان هادئة منسجمة ومطرزة بيد فنانة. تهرب خصلاتها الفاحمة فتخفي جزءاً من جبهتها وعيناً منها؛ فيزيدها هذا الحفاء حسناً على حسن. سمع صوتاً يميزه من ألف صوت:

"أهلاً وسهلاً أستاذ آدم، مرحباً بك!"

مدت يدها التي سبقها هسيس أساورها بنغم بعيد في الذاكرة يثير شجوننا، فهرب صوته لحلقه على غير عادة. لم ينطق، لكنه توقع أن تكون هي، التي ظلت صورتها مكتونة في ذاكرته، هذا الصوت الخلاب للأساور عبر إليه من خلال المحادثات مرات ومرة لهجة نور الناعمة في صوتها العصي على الوصف. واجهت صمته بصمت لبرهه؛ ثم تابعت:

"أستاذ آدم، كم أنا سعيدة بلقائك!"

"أنا أكثر مدام نور أو آنسة.. آسف!"

"اختر ما شئت لا يهم، وأفضل أن تقول لي 'نور' فقط دون
الألقاب!"

"اتفقنا.. وأنا آدم أيضا دون 'أستاذ'!"

لم يتخيلها شابة فاتنة بهذا السحر وبهاتين العينين. أكملًا الإجابة على
أسئلة قديمة وفتحا العشرات من الاستفسارات الجديدة دون إجابة.

كانت نور امرأة متحررة ليس بالمعنى العربي المتعارف عليه عند ربط
كلمة حرية بامرأة. إنما هي امرأة بلا قيود ودون عقد. تتصرف بحكمة
وارتياح ولا تتوقف كثيراً عند رغبات الناس لأن يصوغوها كما يريدون
هم. تزوجت مرتين، الزوج الأول رفض أن تستكمل تعليمها العالي وهي
في السنة الجامعية الأخيرة، لأنه لم يكمل تعليمه العالي رغم منصبه الرفيع،
أرادها أن تكون كزوجة أقل منه أو مثله على الأكثـر. ولما بدأت تتفق
نفسها بنفسها، قام بفرض حصار خانق عليها ومنعها من قيادة سيارتها
بنفسها باعتبار أن هذا حرام، ثم زادت المضايقـات والمنع والتهديد بالضرب
حتى شعرت أن الإفلات من هذا الزواج بلا إنجـاح سيكون أفضـل، وقد
كان. تخلصت من هذا الزوج الذي كان كل همه الاستغراف في استهلاك
ملذـات الحياة؛ استهلاـك فاجـع دون شعور بالإشبـاع، حتى علاقـته الحمـيمـة
بها لم تكن إلا مجرد استهلاـك لها، فلا هو أشـبع نفسه ولا أشـبعـها. كان
يرهـقـها كـأنـهـ في مسابـقةـ لـموسـوعـةـ "جيـنسـ" للـجـنسـ. الزـواـجـ الثـانـيـ كانـ
أـسـوـأـ لـكـنهـ كـماـ قالـتـ:

"كانـ كـابـوسـاـ مـزعـجاـ، لكنـ أـحمدـ اللهـ أـنـهـ كانـ قـصـيراـ!"

بعدـهاـ قـرـرتـ نـورـ أـنـ تـنـفـرـ غـلـيـةـ أـرـحبـ، بـعـدـاـعـنـ الرـجـالـ. لمـ يـفـهـمـهاـ
المـجـتمـعـ وـلـمـ يـضـرـهـ ذـلـكـ، كانتـ تـشـعـرـ بـحـسـدـ الـآخـرـيـاتـ لـحـرـيـتـهاـ التـيـ

منحتها لنفسها بشرطها هي، وبينما هم يفترطون في اغتيابها كل لحظة، كانت هي تستطيع أن تناول مرتبة البال باتسامة جوانية غامرة كل ليلة!

لم تكن نور قد زارت فيينا من قبل، فأفرجت أن تكون الجولة التفقدية الأولى لها في المدينة بصحبة، قبلت بفرح. غيرت ملابسها للترندي ملابس أوروبية بسيطة وتعقص شعرها داخل إيشارب جملها أكثر. بدت عادمة جداً وتلقائية، على عكس كثيرات من عرفهن من العreibيات اللاتي يبالغن في ارتداء الملابس الفاخرة دون ذوق، وسكن العطور القوية النفاذة وتلطيخ الماكياج الثقيل والبالغة في ارتداء الحلي والمجوهرات. شعر أنها شخصية واثقة من نفسها مكتملة بالكرياء ولا تحب أن تلفت الأنظار إليها. مما فضوله ليعرف عنها المزيد.

بقيت في المدينة ستة أيام، كانت من أجمل الأيام التي عاشها آدم معها. معرفتها المستفيضة بمعالم المدينة أدهشت آدم. تخيرت بعض الأمكنة بعينها التي أرادت أن تزورها في الأيام التالية، لكن أولها بالطبع كان زيارة ورشة آدم للاطلاع على المخطوطة النادرة.

في الورشة وقاعة المكتبة قضيا معاً وقتاً من أمنع الأوقات في الاطلاع على المخطوطة. وجدها إنساناً متحضراً، رقيقة الطابع، خفيفة الظل، وقارئة نهمة ومحاورة على فطنة عالية. تخيل مدى صعوبة حياتها في مجتمع مثل مجتمعها، موسوعيتها في المخطوطات تجعلها تبدو كمؤسسة مخطوطات خفية متنقلة.

في مرة من أحاديثهما الدائمة عن الشرق والغرب، قالت نور:

"الشرق يشرق علينا نحن النساء في بلادنا ونحن نعيد سيرة العبيد.. كل شيء يدور حولنا وكانت في المركز.. لكننا في حقيقة الأمر نزاح إلى الهاشم.. حالة مشوشه من التناقض المعقّد.. المصيبة أن أغلب النساء عندنا يعتقدن أن الحل في يد الرجال، أنا أراه في يد النساء، هل تصدقني؟"

"ولكن الغرب أيضاً قاس ضد النساء يا نور.. الغرب لا يستبعد النساء على الطريقة الشرقيّة لكيه يستغلنها"

"ولكه يمنحهن منحة ليست لنا: حق الاعتراض المعلن والتغيير التدريجي الأسرع والمشاركة!"

"Undk حق ولكن في حدود معينة لا يتجاوزونها.

"المشاركة في القرار يا آدم هي الأهم، صدقني فطرة المرأة لا تعشق الهيمنة الهشة الفارغة، المرأة تحب الرجل السيد، والسيد الحق يعرف معنى المشورة ومعنى المشاركة؛ نحتاج قليلاً من المشاركة؛ تكون قليلاً في الحياة، لسيطر قليلاً من التاريخ!"

"ولكن التاريخ يقتات من المتروح لا من الانتصارات!"

ضحكـت نور ضـحكـتها العـذـبة وأـمنـت عـلـى كـلامـهـ.

عاشت نور أجمل أيامها، سافرت لكثير من المدن القوية مع آدم؛ فرأت في المخطوطة؛ ونسخت، زارت متاحف ومعارض؛ فرأت في المخطوطة؛ ونسخت، شربت؛ فرأت في المخطوطة؛ ونسخت، أكلت؛

قرأت في المخطوطة؛ ونسخت، رقصت؛ قرأت في المخطوطة؛ ضحكت؛
قرأت في المخطوطة؛ تأملت. قرأت في المخطوطة ونسخت، ونسخت.
أنهت المخطوطة وانتهت الرحلة. نسختها كلها بخط يدها ورسم لها آدم
الغلاف وخط لها العنوان وزخرفه بإبداع.

عادت إلى بلادها. اتصلا ببعضهما يومياً. أرادت أن تعود لفيينا، لكنها
لم تتمكن لظروف تخص أمها المريضة. لم يستطع هو أن يذهب إليها. لم
تفتر العلاقة بينهما. لكنها بقيت ذهنية في التواصل. وظللت فترة فيينا من
أجمل الفترات لها وله. وبقيت علاقة غير محددة الملامح، ينساق فيها آدم
إلى نداء داخلي غامض، ربما ما جعله يميل إلى نور هو شخصيتها العربية،
وربما إيمانه لوقت طويل أنها هي، تلك التي خلقت من كتلة الصلصال
نفسها، التي خلق هو أيضاً منها، قد أشعره أن باباً من أبواب الجنة التي
يتroc إليها قد صار موارِّياً له!

* * *

قامت إيزيس في هذه اللحظة واستدارت أيضاً عكس اتجاه الساعة
كعادتها واستقرت مرة أخرى في مكانها نفسه. كان الكأس قد فرغ
وآدم يشعر بانتعاش وأسى وفرح ودفء وكسل ورغبة في غسل تاريخه
القديم بجرعات الخمر. تنهى وصب لنفسه كأساًأخيرة وهو يستعيد تاريخه
إخفاقاته من البداية. لا يدرى ما الذي جعله يتذكرهن كلهن عبر هذه
الرجاجة التي تجربها كاملة. في جلسته رأى جارته فراو كاتيا بيليكان
بقميص نومها وهي تضيء مطبخها المقابل له. تفتح الثلاجة لشرب شيئاً

ثم بدا أنها تحدث القط ليرم بأمر ما. بدا جسدها يفيض نورا، رفع كأسه نحوها:

"في صحتك يا كاتيا! في صحة نساء العالم الجميلات الذكيات!"

الغريب أنه حاول بقدر الإمكان أن يتذكر أجسام النساء اللاتي عرفهن وعاش معهن، واعتقد لفترة من الوقت - طالت أو قصرت - أن كل واحدة مقاس روحه، إذا استكان إليها استوعبته. تذكر كل الأسماء، تذكر كل الأفعال، كل الإخفاقات، وذلك الإحساس بالزهد الذي يعقب كل توطد في أي علاقة، لكنه لم يستطع أن يتذكر تفاصيل أجسادهن. واكتشف في هذه الجلسة أنه لم يشعر بالارتواء والاكتمال. كل علاقاته مع النساء بدأت كأنها في طريقها للإكمال لكنها انتهت منقوصة، لم تتحقق له الإشباع الوجداني ولا حتى الجسدي. ارتعش جسده من إدراك هذه الملاحظة الفاسية: هل كانت حقا كلها نزوات خارج الوجود! وَعَى في تلك اللحظة أنهن لم يمسسن روحه، مررن على جسده أيضا كوشم من الحباء يبقى لوقت قصير ثم يختفي للأبد.

سحبهن من قاع الذاكرة بالترتيب:

سوسن وأيام مصر التي لن ينساها؛ الحب الأول والحضن الأول والقبلة الأولى؛ ثم هند التي تبادل معها أبيه الرسائل، وتعلم كيف يعبر عن مشاعره بالكتابة وأخلص لها، لكنها فارقته مع الشاب الأغنى العائد من بلاد النفط بمال ووعد الزواج والفرح الكبير والشقة والسيارة؛ ثم مارتينا ماريا اليزابيت الجميلة الممتنة، التي عاش معها دون أن يفهمها،

دون أن ينجح في أن يحبها أو أن يبغضها؛ ثم كاتيا التي كانت أكبر منه سنا ولها طفلة صغيرة. احتوته كأم وكاخت وبابتها كونت له أسرة صغيرة، لكنها كانت صارمة صرامة لم يرتع لها، رغم أنها ليلًا كانت طيبة ممتعة لدرجة لا يصدق معها أنها كاتيا النهارية؟ ثم ناديا ذات الأم الغربية والأب النمساوي الذي أسلم وصار أكثر صرامة من أمها، فكانت ناديا تلبس الحجاب حتى باب الجامعة وهناك تخلعه. تشعر بالتناقض الكبير بين الحياة مع أسرتها والحياة في المجتمع. عاش معها في صعود وهبوط حتى انفصالاً؛ ثم المستشرقة المجنونة سيجليند التي كانت مفتونة بارتداء الزي العربي والخمار حين تخرج معه، وكانت تدخن بشراهة وتعشق النبيذ الأبيض ولم يكن هذا ليزعجه، إنما مصدر الإزعاج هو تناقضها في الشكل والتصرف على الملاً الذي يلفت انتباه البعض واستهجان البعض الآخر، رغم أنها كانت تصلي بإخلاص. كانت شخصية عجيبة. أحبت جنونها وجرأتها وتناقضاتها؛ ثم المرمرة كاثي التي التقى بها في شيكاجو وبقيا معاً لفترة خمسة أسابيع في دورة تدريبية للترميم، عاش معها خمسة أسابيع كزوجين في شهر عسل. ذكية ولطيفة المعاشر ورشيقه وأنيقه وممتعة وعملية، لكنه لم يعرف عن تاريخها السابق أي شيء. لم تتحدث أبداً عن عائلة أو أهل أو حياة سابقة، كأنها نزلت من كوكب آخر، تجنبت أي حديث شخصي سواء عنه أو عنها، فسارت الحياة بينهما في قطار بلا وجهة ولا يقف في أي محطة، ولما اختفت من حياته تدريجياً لم يشعر بحين لخيابها، كأنها حلم تذكر ملامحه ثم نسيه؛ ثم نادين الطالبة التي أتت من برلين وكانت تعمل على مخطوطة نادرة كانوا يرمانها معاً، لكنه لم

يعرف أنها كانت متزوجة ولها طفل، وأنها تحب زوجها وتحب أسرتها بلا حدود، كما قالت له في اليوم الأخير قبل عودتها النهائية، لكنها لا تعرف الوازع الداخلي الذي جعلها تجرب للمرة الأولى في حياتها الخروج عن المألوف، هكذا شخصت الحالة. قالت إنها أرادت أن تجرب، لكن في قراره نفسها لا تشعر بالخيانة لزوجها لأنها لم تفكرا أبداً في أن تهجره، وإنما تشعر بأنها خانته هو. كانت صادقة وتعلّم منها درساً جديداً في الحياة. سجلت اسمها في تاريخ إخفاقاته، وتركت له فلسفة في الحياة والعلاقات يتأملها كل حين وتعوضه قليلاً عن فكرة الإخفاق والخسارة؟ ثم كارميليتا الإيطالية المتوجهة للحسنة التي لا تُنسى؛ ثم سيرين التركية الجميلة، درساً معاً وأحبها بصدق وكان يعيش الأكل الشهي من يديها، لكن المبالغة في سرية العلاقة ضايقته في آخر الأمر؛ فخوف ظهورهما معاً صار هاجساً يومياً، حتى أدى بالعلاقة إلى الحتف. أحس برفض عائلتها له حين اقترب بحرص، ففضلت سيرين التر��يَّة على طارق لباب الزواج للتخلص من النناقض، فوافقت في زوج قادم من بلدها لا يعلم إلا أوهن الأمور عن الحياة في أوروبا، فصارت هي الرجل والمرأة للعائلة وظل هو رجل البيت الوهمي الذي لا عمل له وله كل الأوامر وفق العادات والتقاليد. عانت وهانت، طلقت وخرجت بطفل، ليزوجوها لآخر لم تشعر نحوه بأدنى مودة. تألم آدم لها كثيراً، ولم يبق سوى أن يتلقى بها من وقت لآخر في علاقة صدقة للدردشة وليخفف عنها؛ ثم نور الفرس العربية الفتاة، المذنب الذي بزغ وفجأة عاد لسمائه؛ وفيما بعد أوليفيا التي أراد أن ينسى معها إخفاق غياب

نور، بعدها قرر أن يغلق على قلبه وألا يسمح له بأن ينبض لامرأة من جديد، فيكفي ما قد نبض لهن منه بما فيه الكفاية. أراد أيضاً أن ينقذها في آن من مأساتها، وتعهد بدور الناصح والخبير، فلم يخرج من العلاقة إلا بلقب المحقق المغدور به، بعد أن هجرته إلى صديقها القديم. الغريب أن العلاقة مع أوليفيا كانت أوهن العلاقات لكنها أكثرها سخطاً منه، رغم مروره بتجارب مشابهة!

عُدّهن في إحصاء سريع، فوجدهن اثنى عشرة. تأمل العدد بكثير من الشجن وقليل من تسليات الانسراح. قال لنفسه:

"دستة نساء يا آدم يحسدك عليهما كل الأصدقاء ولا أحد يدرك
مدى وحدتك وعزلتك في هذا البرج العالي!"

ليس من طبعه الرهو بعلاقاته ولا الزيف فيها لأنّه كان يبدؤها بروح الباحث حقاً عن الروح التي تنقصه والتي يرغب في أن يستكين إليها، فهو لم يكن رجل مغامرات ولا نزوات. بينه وبين نفسه كان يشعر شعوراً صادقاً أنه لم يخرج من كل علاقاته النسائية بما كان يتمنى. لم يكن يحسب أو ينظر لأي علاقة، بل كان يقطع شوطاً طويلاً فيها بإخلاص على أمل أن الصبر على الاكتشاف سيقدم له الشمرة التي ينتظرها. لكن في قراره نفسه كان يشعر بأن هناك خللاً ما، وأن ما ينتظره ينبغي أن يدخل مداره مثل كل توافق كوني. ربما كان عليه أن يصرّ ليسمع للكوكب روحه أن يدخل إلى مداره المنتظر!

قام حاملاً إيزيس بيده اليسرى وفي اليمنى كأسه بآخر رشفة من النبيذ.

وضع إيزيس عند طرف السرير، دخل سريره فقفزت لتبقى عند قدميه. وضع كوب ماء إلى جواره ونظر في الكاميرا مرة أخرى ثم وضعها على الكومودينو القريب وراح في نوم عميق. ابتسם بسعادة أن الغد هو السبت وسينام طويلاً ولن يسمع صوت المنبه. الخدر أخذه لحلم جميل.

في صباح اليوم التالي ملئ أطراfe بصعوبة، بينما كانت إيزيس تحوم حول رأسه وتموه ليقوم لفظواه وفطوره، لكنه لم يدر متى وكيف ذهب لينام في سريره.

٦

عندما كان فاروق يدفن وجهه في الجريدة وابناها في غرفتهمما يذاكران استعدادا لامتحانات، وجدتها ليلى فرصة سانحة كي تخبره بموضوع الدعوة التي وصلتها من ياسين. تعرف أن سطوة ياسين عليه كبيرة، ولن يستطيع أن يرفض له طلبا، خالجها تردد جعلها تحرك ببطء وتوجس، كأنها إذا نظرت إلى عينيه أثناء إخباره سيطلع على سرها الخافي، وسيرى آدم يطل من عينيها. جلست قبالته وحاولت أن تنطق، لكن اختفاء وجهه خلف الجريدة زاد من صمتها، وأخذها بعيدا حيث ذكرياتها القابعة في قرار مكين بداخليها. تذكرت هؤلاء الرجال الذي عبروا في حياتها، وترك كل واحد منهم شجاً ورحل.

شريف الوراق، ياسين، أسامة، هشام، فاروق؛ هم أهم الذكور المؤثرين في مسيرة حياتها، والذين سببوا لها تشويشاً مزمناً وعكرروا فكرتها عن الرجل دون أن يشعروا، وهم على الترتيب: أبوها، أخوها، محبها الأول، حبيبها الثاني، زوجها، يضاف إليهم خالتها محسن التي رغم جمالها الواضح واهتمامها بأنوثتها الطاغية البدية بوضوح دون أدنى تجميل أو زينة، إلا أن تصرفاتها ورقابتها تنتمي إلى حقل فظاظة الذكور بجدارة.

تحفظ ليلي الكثير من حكايات العائلة، ليس لصفاء ذاكرتها فحسب، بل للتكرار المبالغ فيه عبر الزمن خصوصاً من أبيها الذي لا ينكر مشاعره أثناء الحكى، لاسيما ما يتعلق بأحساسه عند مجيء كل مولود. لا يتبعه إلى أنه في كل مرة يوسع جرح المساواة والعدل عند ليلى دون أن يدرى. سمعت ليلي منه مراراً أن مولدها جاء عادياً، بلا فرح كبير أو اهتمام استثنائي، فياسين الأخ الأكبر حظيَّ عند مولده باستقبال ملكي واهتمام فريد، حتى أختها مها حين جاءت إلى الحياة بعده، قوبلت باحتفال معقول وفي ترتيب صحيح لعائلة نموذجية من الطبقة الوسطى، واستطاع الأب أن يضبط إيقاع انفعاله قائلاً: "إنحاب البنات فيه خير كثير!" وهو مجرد رد فعل عفوياً ينبغي أن يُذكر هكذا في مثل هذا الظرف، وكان عليه أن يكظم غيظه ويدعى الفرح والرضا، وربما لأن عجلة المُقبل والولادة مستمرة، وقد يهبه القدر ذكراً في الدورة التالية، لكن مولد ليلى بعد ستين كان كارثياً ومخيباً لأمل الأب، هذا الأمل القابع في مكان ما وفقاً لتراث العائلة المجيد، الذي لا يترجح في التصریح بأن الفتيات لسن سوى

عاشرات لا يحملن على عاتقهن حفظ اسم العائلة واستمرار بقائها، بل يذهبن لرجال آخرين وينتهي أمرهن.

انتعش إحساس الأب بمولد الأخ الأصغر وليد، الذي طرق باب المياه بعد ليلي بخمسة أعوام، استقبلته العائلة بفرح مبالغ فيه، وأخذ من لحظته الأولى وضعا خاصا من التدليل والرعاية باعتباره آخر العنقود. كان الأقرب إلى ليلي وعولت عليه ليكون أخاها وصديقتها المحنون مستقبلا، فهي تشعر منذ مولدها بغربة خفية داخل العائلة وهي أقصى أنواع الغربة أن تكون غريبا وسط أقرب الناس إليك، ترى وليد - منذ أن بدأ يعي الدنيا - كيف يتوجه بها ويرفع ذراعيه وأصابعه تتلاعب في الهواء في عزفه الخاص لمحاولة التعلق بها، لتحمله ثم ترفعه إليها وتقبله قبلات ذات طرقة، يضحك لها وهي تغمره بوابل منها حول رقبته وفي صدره وبطنه، لا يتحمل الدغدغة وينهار في ضحكات تبدأ عالية حتى تنكتم من انقطاع نفسم، ليعود متظرا التكرار بشوق كبير قائلا: "تاني!"، فتمنحه ثوابي ليأخذ نفسه قبل أن تبدأ الهجوم عليه مجددا. حين يلمح ليلي ينسى رضاعته وهو في حضن أمه، تاركا لبنتها يتدقق من طرف في ثغره الصغير، يبتسم لها ابتسامة ابتهاج عريضة وينسى الدنيا وما فيها. فيما بعد، كان يرفض الذهاب للحضانة إلا وهي بصحته، يدها بيده، يقبلها قبيل دخوله للحضانة، ويسأل عنها في غيابها بإصرار وإلحاح ولا يطمئن ولا يسكن إلا حين تعود، كانت ليلي لدى وليد أهم من الأم، حتى أطلقوا عليه لقب "باتاع ليلي" وليد هو أيضا الوحيد في العائلة الذي يمنحها فرحا مضاعفا: فرحا بضحكه وانشراحه وجوده،

وفرحا بكونها قادرة على إشاعة السعادة في نفسه.

رغم موافق ياسين معها، إلا أن غيابه فيما بعد ترك فراغا لم تستطع
ليلي أن تغدوه، كما ترك غياب وليد جرحا لم يندمل.

ولد أبوها شريف الوراق المياوي في منتصف الأربعينيات في المنيا لأب اسمه عز الدين المياوي. شريف الوراق هو الاسم الذي اشتهر به منذ مغادرته المنيا. ولد في عائلة ميسورة تمتلك مساحة لا بأس بها من أفضل الأطيان لزراعة القطن طويل التيلة، حظيت هذه المنطقة الزراعية بأفضل تربة وأنسب مناخ، بدرجة حرارة لا تقل عن 26 درجة مئوية، مشمسة ودافئة لنصف عام على الأقل مع توافر المطر المناسب. كان الجد المياوي الكبير خيرا متفردا في زراعة القطن وله أسرار توارثها منذ الفراعنة في رعاية المحصول بعد بروغ البادرات بدءا من التفريذ والتسميد والعزق والتعشيب والري والتقليم حتى مكافحة الآفات. صار للجد صيت لا مثيل له بسبب نوعية القطن المميزة التي ينتجها، حتى أن مندوبي بعض الشركات من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وتركيا كانوا يأتون للتعاقد معه شخصيا، لتوريد احتياجاتهم من القطن طويل التيلة المميز الذي كان يسميه الجد: منيا 90 ومنيا 92.

نظرا لكثره الإخوة وأبناء العمومة في الجيل الثاني، جيل عز الدين المياوي، تقلصت حصة الأرضي في الميراث، واختلفت الرؤى والأهواء ولم يكن هناك أي وفاق بين أفراد العائلة، فتنوعت محاصيل الأرضي من

قصب إلى يصل إلى قمح إلى بطاçس حتى اخْتَفَى القطن، ودبّت الخلافات أكثر لدى هذا الجيل، ثم بدأت إغراءات شراء الأراضي الزراعية بأسعار مرتفعة، وبدأت معها صرعة البناء على تلك الأرضي، فبادر بعضهم بالبيع وتضاءلت حصة كل مالك. بقي شريف الوراق الوحيد الذي يزرع القطن ويورده لمصنع ياباني صغير، لكن الكمية لم تكن كافية للاستمرار في التصدير لوقت طويل، إضافة إلى سأمه من حدة المنازعات مع الأقارب وملله من جلسات فض الاختلاف الأسبوعية، فانتهى به الأمر إلى التخلّي عن نصيبيه في الأرض بحسرة موسمية.

باع حصته وافتتح في الإسكندرية مصنعاً صغيراً لصناعة الكرتون أصاب توفيقاً. اختار الإسكندرية لأنها كانت ملاذ شبابه وقضى فيها أجمل سنوات عمره وفيها أحلى ذكرياته. في فترة السبعينيات وزمن الانفتاح الاقتصادي في البلاد ازدهرت أعماله، فتوسّع في تجارة الورق عبر المدينة الحرة في بورسعيد وتحول إلى تاجر جملة كبير، فأصاب بناجاها عظيمياً. تزوج من زهرة وهي من عائلة سكدرية طيبة عمها كان مثلاً شهيراً، رغم دعاته ودماثة خلقه إلا أنه اشتهر ببراعته في القيام بأدوار الشر، انتقل شريف الوراق مع زوجته للقاهرة إلى حي السكاكيني وأقام فيه وأنجب الولدين والبنتين هناك وعاش ميسوراً في حياة مستقرة.

تعرف ليلى أن أباها طيب، وأنه يحبها، لكنه أحياناً ينساق لآراء الآخرين في إصدار أحكامه، خاصة تلك التي تتعلق بها أو بعها أختها، وكثيراً ما كان يصرّح بأنه ما كان ليرفض لهما هذا الطلب أو ذاك، لكن

الناس كما كان يقول: "هتكل وشه وقتها"، لذلك كانت على يقين بأن أباها ليس من يقرر الأمور في النهاية، بل الناس؛ من أصدقاء وأقارب وجيران وربما عابرين بالصدفة، إضافة إلى ياسين أخيها. في طفولتها كانت إذا أرادت شيئاً تنتظر أباها على بسطة السلم، ما إن تطلبه منه حتى يبدي موافقة ممزوجة بالفرح، لكنه يتخلّى ببساطة عن موافقته إذا اعترض أحد في وقت لاحق. هي لا تشک في كونها تحبه، وأحياناً تلتمس له العذر في شخصيته المساقة، فهو يحاول دوماً أن يثبت سماحته للآخرين أكثر من تسامحه مع أهل بيته، والسامحة من المفترض ألا تعني التراجع في كل قرار. مجرد الإنصات لرأي مخالف من الآخرين. ليس ذنبه أنه ولد في الصعيد، وتربي على عادات قالوا له إنها صائبة، فصار يخفّف من غلواء صلف الرأي بفقدان رأيه هو دون أن يدرّي، وليس ذنبه أن القاهرة في بداية السبعينيات، كانت تضيّع هويتها تدريجياً وبالطريقة التي أصابت الكثريين في استنساخ الرأي الجماعي الأيديولوجي الانفتاحي بسطحة كبيرة، وأن الطبقة الوسطى كي تحافظ على بقائها، صعب عليها طوال الوقت أن تتمسّك بما نفّضه الجميع، فتشظّت ما بين قلة صاعدة تهفو كي تكون ضمن نخبة ثرية، وبين أكتيرية هابطة تنزلق نحو أغلبية مهمشة ومسحوقة، وبين ندرة تجاهد للبقاء في موقعها بقدر الإمكان لكنها تبقى في وضع "ملك سر" كما أن ياسين كان بمثابة الفص الأيمن للدماغ الألب، ومن موقعه هذا - على الرغم من شعور الألب معه بخيّبات الرجاء المتكررة - استطاع أن يوجه دفة تصرفاته إلى حيث يريد.

تأمل ليلي علاقة ياسين بأبيها باندهاش يتزايد عبر السنوات، فعلى

الرغم من أن أباها توجه ملكا على الجميع في البيت إلا أنه تقاعس عن تحقيق أمنية الأب شريف الوراق ثلاث مرات: مرة حين فشل في الحصول على جموع في الثانوية العامة بؤهله للالتحاق بكلية الطب، ومرة حين رفض أن يحقق أمله بأن يخلفه في أعماله الناجحة في تجارة الورق التي راجت وتوسعت في تلك الفترة، لاسيما أنه التحق بكلية التجارة في جامعة عين شمس، وأخيراً خيب رجاءه أكثر بعد تخرجه حين عمل في مكتب سياحي في وسط البلد، ليتحول بعدها إلى مترجم للغة الألمانية، ليعلن بعد ذلك مباشرة رغبته في السفر إلى أوروبا. على الرغم من كل هذه الهمميات كما كان أبوها يسميهما، لم يُنْجِ ياسين عن مكانته ولم يواخذه على إخفاقاته إلا بمزيد من الامتيازات!

في هذه المرحلة، كان ياسين يهاب المثال المجنون الذي تحبه ليلي؛ منفلاً متمراً محباً للحياة مجرماً كل شيء، يقرأ بينهم كبير ومكتتبة مكتظة بكتب في الأدب العربي وال العالمي وكتب في الفلسفة والدين والسياسة وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها، وكمية كبيرة من الكتب في أصولها الألمانية. اطلاعه الواسع جعله قادراً على المعاورة والمناظرة بكل ذكاء، تشرب بنظرية مثالية عن حقوق الإنسان وتحقيق المساواة والعدل وحقوق المرأة مستعيناً بأقوال الحكماء وال فلاسفة، لكنَّ هناك خللاً خفياً في شخصيته يجعله يتناقض فجأة مع مسلماته وفرضياته، لأن طبيعته في الاطلاع غالب عليها الكتم أكثر من التعمق والاقتناع الشخصي. مما يقرأ، ولعل تجاريته المتعددة مع الجنس اللطيف هي السبب الذي جعله في النهاية أشد قسوة ورقابة عليها بالذات، ربما لأنها كانت تسير مثله أيضاً في خط ثرد ساكت. هو يتمدد

على المجتمع ككل، وهي تخطو خطواتها الأولى في تمرد على وجودها في عائلة لم تكن تعيرها الاهتمام المناسب لتفكيرها ورغباتها، ففي مسرح المدرسة كانت بارعة في أداء أدوارها حتى توقع لها الجميع مستقبلاً زاهياً في التمثيل، الغريب أن العائلة كانت تحتفى بهذا التفوق الفني أمام الغريب قبل القريب، وكان ياسين يفتخر بأخته في أدوارها على مسرح المدرسة ومها تكتسب صداقات إضافية على صيت ليلي، فاعتقدت مع الوقت أن الطريق مهد لها، لكنه تصرح برغبتها مستقبلاً في امتحان التمثيل، أسوة بعم أمها الشهير الذي كانت تحبه وتقدره، لكنها صُدمت بتعنت العائلة وبالتوبيخ غير المتوقع من الجميع وخصوصاً من "طنط محاسن"

حتى إعجاب أمها القديم. مهاراتها في الرقص تلاشى فجأة وحل محله قائمة محظورات، رغم تدخل عم أمها بمحاولات مضنية للدفع بها نحو ما تمنى، والبرهنة بأن حي السكاكيني قد أنجب للفن باقة من الأسماء المحترمة في تاريخ الفن المصري مثل: عميد الأدب العربي طه حسين والموسيقار محمد عبد الوهاب والفنانات ليلي مراد وماجدة الصباحي وسعاد حسني، والممثل القدير عبد الفتاح القصري، وداود حسني، وغيرهم من المشاهير، لكن الأب رفض بإصرار ووأد رغبتها في مهدها.

ومع ذلك غامرت مرة وجربت في فرصة أخيرة للدخول إلى ساحة التمثيل، لعل الأب وحزب المعارضة العائلية يعدل عن رأيه مع الزمن. ذهبت مع ثلاثة من زميلاتها في المدرسة إلى استوديو لاستكشاف المهارات، بناء على إعلان منشور من مخرج شهير يبحث عن وجوه

جديدة لأدوار شبابية في فيلم جديد. حين عرضت ليلي بروفة التمثيل كانت قدراتها الدرامية الصامتة كافية ليصدق لها المخرج بانهار، وانهمر أكثر حين سمعها تتحدث الألمانية بطلاقة. لم تسعها الأرض يوم أن وافق عليها، وأعطتها استماراة لتملأها خطيا. موافقة الأب أو ولي الأمر، بالسماح لها بتمثيل الدور المطلوب.

كانت كارثة للأب حين علم بجرأتها على الذهاب دون إذنه لهذا المكان، وزاد الطين بلة، الرفض القاطع من ياسين، ثم اتخذت الأسرة تدابير وقائية كيلا يتكرر الخطأ نفسه، فتم تكليف منها بمهمة اصطحاب ليلي في الذهاب والعودة من وإلى المدرسة. كانت كمية التوبيخ التي تلقتها ليلي في ذاك اليوم كافية لتشعرها بالحزن وخيبة الأمل طول العمر، أشعروها في ذاك اليوم كأنها ذهبت إلى بيت دعارة.

لم يكن اعتراض ياسين على الرقص وقتذاك يشعرها بازدواجية شخصيته، لأنها وحتى الآن لا تعرف السبب الذي كان يجعلها تشعر بالسعادة كلما منعها من الرقص وانفعل بغضب عاصف، ربما لأن في غضبه ما كان يجعلها توقن بأن تشينها وارتعاش جسمها أثناء الرقص فيما من الإغراء ما يدفعه لإيقافها، لكن وقوفه أمام رغبتها في التمثيل جعل علاقتها به تأخذ منحي جديدا، فهي تحب طريقته في الحياة وتمرده وطريقة ملبوسيه وكلامه وتريد أن تخط طريقها مثله، وكانت تتوقع أن يكون هو أول من يوازيرها، لكنه كان العترة الأساسية في مباراراتها ومحبطاً لتوبياها من المهد، لم تفهم شعاراته الخارقة التي ينادي بها طوال الوقت ولا نظرته

المثالية عن حقوق الإنسان وتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية وحقوق المرأة، فحين تنادي هي بها أو حين ترغب في تنفيذ حق طبيعي مما ينادي به، تخرج جملته الثابتة قبل التمادي في النقاش بالحزم نفسه:

"نعم هذا صحيح، ولكنه لا يصلح لك!"

سألته يوماً:

"هل تومن فعلاً بالمساواة بين الرجل والمرأة؟"

"طبعاً!"

"يعني يمكن للمرأة أن تفعل ما يفعله الرجل وفقاً لهذه المساواة؟"

"إلى حد ما!"

"إلى حد ما هذه تنسف مبدأ المساواة؟"

"لا تنسى شروط المجتمع؟"

"لكن أليس علينا نحن أن نغير شروط المجتمع لو كنا نؤمن حقاً بهذه المبادئ؟"

"نحن ننادي ونوعي وأحياناً نضحي بأنفسنا في سبيل المبادئ، لكننا نترك المجتمع يجرب بنفسه، ثم يختار ما يناسبه، لا يمكن إملاء شروط على ذهنية المجتمع بتغيير فوري للعادات والتقاليد!"

"طيب، لماذا لا تراني جديرة بأن أضحى بمنفسي في سبيل تغيير
وضعية الفتاة أو المرأة؟"
"بساطة لأنك أختي!"

يقطع ياسين الحوارات دائمًا بجمل سريعة مفاجئة ويترك المحاور يلمّل
ذهنه بعد انحراف الفكرة عن مسارها، وحين يريد الشخص أن يكمل
معه الحوار، يكون قد اختفى كدخان سيجارة! ترى ليلى أن المجتمع برمته
هو الذي يمنع الذكر كل هذه السلطة، وترى أن المرأة تمنع أحياناً السلطة
للرجل ليمارس سلطاته من أجلهما معاً، ولا تدري أنه الرجل الخطأ؛ فيفتر
أو يتناسى ويمارس سلطته عليها هي أولاً بترهيبها وتحجيمها. يقول ما يريد
ويفعل ما يحلو له. له التبريرات كلما أخطأ. لا تدري ليلى منذ متى وفي
أي زمان منحرف كانت أخطاء المرأة تکال بمكيال آخر مقارنة بأخطاء
الرجل. ترى أن هذه الكذبة الكبيرة في التشدق بالمساواة هي مجرد شعار
أجوف لا يمكن أن يطبق تماماً، وكل انحراف كبير في المساواة يبدأ صغيراً
في كل بيت فيه ذكر وأثنى! تماماً مثل كل انحراف كبير في العدل يبدأ
صغيراً في كل مجتمع فيه غني وفقير!

عندما وصل ياسين إلى امتحانات الثانوية، كان وحده حديث
الساعة في البيت، أعلنت حالة الطوارئ، كانت الاهتمامات تدور حوله
وامتحاناته واحتياجاته وراحته ومزاجه. كل شيء يبدأ عند ياسين وينتهي
عنه، هو المدار والمسار. كان أمل الأب أن يصبح ياسين الطيب الأول
في عائلة المنياوي، لكن ياسين لم يحصل على المجموع المرتفع، والتحق

بكلية التجارة ولم تصلح مغريات الأب في إقناعه لاحقاً ليمسك أعماله.

أما منها فكانت تمني أن تكون مديعة، على الرغم من عدم امتلاكها لأيّ من مؤهلات المديعات، لكنها أخفقت في الحصول على المجموع الذي يؤهلها للالتحاق بكلية الإعلام، هذا الإخفاق المبكر جنّبها مواجهة رفض لجنة اختيار المديعين ورفض أبيها ويسين. هي عادة لا تحاول تحدي أحد، بل لم يُعرف لها رغبة ملحة، ربما كانت أكثر حكمة من ليلى في هذا المضمار، أدركت منذ البداية أن للاستسلام فضيلة لا يستهان بها، وأن الميل مع الريح حتى عمر يجنبها صداماً هي في غنى عنه، فدخلت كلية الحقوق وتزوجت في نهاية العام الدراسي الثالث بعد قصة حب عارمة وحملت مباشرةً، وقبيل امتحانات العام الأخير وضعت طفلتها الأولى، وأكملت امتحانات التخرج بصعوبة بالغة وبأعادة مادتين، ثم استقرت في بيت زوجها في المعادي، وتحولت تدريجياً لتكون نسخة طبق الأصل من الأم، فقط في سن أصغر.

هكذا كانت ليلى تذكر كل ما حدث، لم يمن الله عليها بنعمة النسيان، لفتح صفحات بيضاء في حياتها دون أن تكون فيها مسودات من مراجع الماضي، وكتنوع من التحايل إزاء عدم تخلّيها عن مطالبهما، كانت تحاول أن تهذبها لتناسب قالب قبول ياسين، لذلك بعد أن ينست من دخولها معهد التمثيل، غيرت وجهتها إلى ما يقترب من ميولها، واختارت أن تدرس اللغة الألمانية بكلية الألسن، ولكي تصرف انتباه الجميع عن رضائهما بدراسة الألمانية وسعادتها واقتناعها ببدائل التمثيل الذي اختارته، أخفت

هذا الرضا ولم تظهره لأحد، بل ذهبت بوداعه إلى ياسين في غرفته في أحد الأمسىات - بعد نجاحها في الثانوية العامة - وأخبرته أنها تخلت عن رغبة التمثيل بناء على رغبته، تحدثت بما يشبه العفوية أمامه عن عدة كليات ثم عرجت على إمكانية دراسة اللغة الألمانية، فما كان منه إلا أن اقترح عليها كلية الألسن. هكذا بدأت، منذ ذاك الحين، استخدام الإيحاء معه ل تستنطقه بما ت يريد هي. ما إن ذكر أمامها اسم الكلية حتى قبلت، موهمة إياها بأنها اختياره، وأنها ليست سوى منفذة لمشيتها. هكذا سرت في الحياة كشعاع شمس واهن، لا ت يريد أن يشعر بها أحد، ربما لو أحسن أحد برضائها لاستكثر عليها هذا الرضا، واعتبره خارجا عن التقاليد، لم يساعدها أحد أو يؤيدها أو يعارضها. كل شيء بخصوصها كان يمر وسط العائلة بفتور لا يجعلها تشعر بالسلام، بل يجعلها تشعر بنفي مطمئن، كأنها غير موجودة في هذا العالم، لتكتفي بخلق عالم آخر لها بعيداً عن هذا العالم، عالم يرproc لها وتروق له.

*

أفاقت على صوت خشخشة أوراق الجريدة، لم تعرف كم مكثت جالسة أمام فاروق وهو لا ينتبه لجلوسها كجماد. قامت وغيرت جلستها لتكون إلى جواره وفي موازاته وليس وجهها لوجه، ليس خوفاً منه، بل خشية إطلاله آدم من عينيها، قالت:

"فاروق.. ياسين يريدي أن أسافر إليه، من أجل..."

"أعرف.."

أدهشها مقاطعته فبادرته:

"كيف عرفت؟"

"لقد رأيت مظرو夫 خطابه على مكتبك، فرأودتني نفسي أن أستطلع
ما فيه!"

"وما رأيك؟"

"أنت حرّة!"

استفزتها جملته، قُنِتْ لو رفض في هذه اللحظة، أو أبدى اعتراضًا بسيطاً، أو قال لها مثلاً إن الأطفال سيعثرون في إدارة شئون البيت في غيابها، لكنه لم يقل سوى جملة مكونة من كلمتين قاطعتين: "أنت حرّة"، قالها بطريقة تؤكّد عدم اكتراثه. ربما كان غاضباً لأن الدعوة لم تشمله، مما يعني أنه لن يستمتع بالتنزه في فيينا، وسيحرم من متعة الفرجة البطيئة التي يعشّقها لكل فتارين العرض. على كل حال هي لم تكن تتوقع أن يقبل بارتياح، مجرد أن ينغضّ عليها لا أكثر؛ لأنّه اعتاد في كل مناسبة أن يُشعرها بأن وجودها مثل عدمه بالنسبة إليه. كانت المرة الأولى التي وصلها إحساسه باللامبالاة في عامها الثامن معه، يوم فرّرت أن تركه وتعود إلى بيت أبيها في حي السكاكييني، بعد تجربة الخيانة التي لم تخرج منها بمعنوية تُذكر، بل بمزيد من الحيبة، ظلت شهراً كاملاً تفكّر في قرار العودة لبيت أهلها. كان رد فعل أبيها ويسين كل ما يشغلها، لانتفاء سبب المروق، فليست هناك أي مشاجرة ولو صغيرة.

بينهما تستدعي مثل هذا القرار، لم يسبها ولم يُقصّر في توفير حاجيات البيت، فقط هو شعورها بأن وجودها معه يُحييها ببطء، وأن تركه هو التشتت باخر طوق نجاة تلقى لها الحياة للحاق بها، وقذاك شعرت أن خروجها من البيت بمثابة عودة الهواء إلى رئتها!

عندما دخلت بيت أبيها في مساء ذاك اليوم، وجدتهم يتسامرون ويضحكون، كان كل من مها وزوجها في زيارة للعائلة، ياسين أيضاً كان موجوداً لسبب تجهله، متخلياً على غير عادة عن سهره في الخارج، كانت الجلسة حميمية، لكن وصولها دون فاروق والولدين أثار فضول الجميع، أغلقت باب السؤال حوله بأن جلست كأنها مرتاحه وسعيدة بينهم، مدعية أنها كانت في زيارة صديقتها داليا التي تسكن في ميدان الظاهر، وفكرت أن تأتي لتجلس معهم قليلاً. لم يتبه أحد إلى شرودها طوال الجلسة، وتبهها المشاركة في الحديث، توقعت كالعادة أن أحداً لم يلحظ ما قر به، وفكرت أنها ستختبر الجميع بعد رحيل منها، ما إن ذهبت إلى المطبخ لتطلق سراح تنهيدة طويلة حبسها، حتى داهمتها ياسين قبل أن تختفي خلف أي دفاعات، سألاها:

"هل هناك مشكلة بينك وبين فاروق؟"

"ليس هناك أي مشكلة!"

"إذن.. لماذا أنت هنا بدونه؟"

"قليل من الحرية يا ياسين!"

"صارحني! ماذا حدث؟"

حاول التوడد بنبرة صوت أقل حدة، فكان لابد أن تصارحه، لأنها قررت أن تمضي فيما قررت وأن يسمع أي أحد في هذا العالم - غير فاروق - ما يُتعسها ويقلق خاطرها، خاصة أنها توقعت دخوله عليهم في طرفة عين، ليسأل عن سبب خروجها في وجوده دون أن تنطق بكلمة، بل إنه وقف أمامها ليستفسر سر خروجها وهم بإمساك يدها ففاضتها بعنف وخرجت.

وجهت جسمها ناحية ياسين ونظرت في عينيه، كادت أن تبكي لكنها تمسكت. فضلت أن تناقش معه أحاسيسها بصرامة بعيداً عن البكاء والإشفاق، فقط راحت على درجة وعيه، ومنت أن يتفهم توقف روحها إلى الانتقام، والتعامل معها مرة كما لو كانت صديقة، وتناسي أنها الأخت التي يجب أن تخضع للتقاليد حتى لو قتلتها:

"ياسين.. أنا لا أريد الاستمرار مع فاروق.. ليس لأنه مقصراً، ولا بسبب أي شجار، فنحن لا نتشاجر تقربياً، كل ما هناك.. أني لا أجد نفسي معه.. لا أكون أنا التي أريدها..أشعر بالعasa.. لا أطلب شيئاً كبيراً.. لكن فاروق مهما اجتهد.. لن يعي تماماً ماذا أريد منه.

هز ياسين رأسه يميناً ويساراً في الهواء كأنه يستنكر الكلام أو لا يفهم ما تقول، صدمتها إيماناته، وأعادتها إلى يقينها بأنه لن يتعامل معها بمفرز عن شخصيته المزدوجة.

"هل تريدين الطلاق؟"

نفخ زفيرا وأكمل:

"هل خرجت من بيتك الآن غاضبة ودون إذنه؟"

لم ترد، لكنه أصرَّ على سماع إجابة، وعلا صوته مردداً المسؤولين، فجاءت أمها من الصالة تستفسر. فأكملت ليلى دون أن تنظر إليهما:

"خرجت فحسب.. لم تشاجر ولم أخبره أني غاضبة.. لم أقل شيئاً على الإطلاق!"

تدخلت أمها في الحوار بغضب واضح وصوت تحاول أن تخضسه فيخرج حاداً مبحوها:

"ألم تحسسي حساباً لابنك وابتكت.. أنت متهرة.. كعادتك دوماً!"

أمها التي كانت دوماً كشبع هلامي لا يخيف طفلاً، ظهرت للمرة الأولى بمعظمه الغاضبة المهددة لتخيفها! ليلى لا تستطيع أن تقنعهم باحتياجاتها، بل بدا لها في هذه اللحظة وأمام هذه الغضبة منها أن احتياجاتها نفسها تبدو مجرد تقاهات من وجهة نظرهما، وبدا أنه كان من اللازم أن يضربها فاروق كل حين لتجد المبرر لتركه. واجهت تأثير أمها بالصمت، واتجهت إلى غرفتها القديمة، التي أصرت الأم على أن تبقى على حالها، ل تستقبل أقاربهم من المنيا، لكن ياسين دخل وراءها وقبل أن تتبه لوجوده قال جملة واحدة:

"أقضى ليتلك هنا.. حتى تهدأ روحك.. وفي الصباح ارجعني
وتحججي لفارق بأي حجة جعلتك تضطرين للحضور إلى
بيتنا.. وهو لن يدقق كثيرا!"

"كيف يا أخي، ياسين؟"

قالتها لنفسها بعد خروجه، كيف يعلم أنه لن يدقق في سبب تغييبها عن البيت. هو بالطبع سيعرف أنها باتت ليتلها في بيتهما، ربما اتصل به ياسين الآن، واحتصر له حجة لبقاء ليلي معهم، وربما طالبه بالأوضاعها بالاستفسار عن سبب تصرفها. تساءلت بعد أن أطفأت نور الغرفة ودخلت في جزيرة حلمها القطنية، كما كانت تطلق على سريرها في السابق، تذكرت أنها لم تنم في هذا السرير بعد زواجهما سوي مرتين فقط، مرة بعد ولادة ابنها وأخرى بعد ولادة ابنتهما. منذ خروجهما من بيتهما صار سريرها للغرباء. تنددت وحملقت في السقف، حاولت استدعاء الوجوه التي أحبت وارتسمت عليه، دون جدوى، نظرت تجاه الجدار، وتخيلت للحظة أن باب المكان الذي كانت تقر منه نحو فردوسها مازال موجوداً، وأنها إذا قامت ودفعته سيفتح. في هذه الليلة استعرضت كل من أحبتهم وأحبوها. كل شخصية فرضت نفسها على حياتها استحضرتها، وأجلستها لتحكم عليها. معزز عن كل شيء، إلا ما اقتربوه في حقها.

في السابعة عشرة وقعت في الحب وكان من الصعب عليها أن تعبر عن حبها صراحة، أو على الأقل أن تخبر أختها منها التي دخلت عالم الجامعة الرحيب، أخفت الأمر بسبب الرقابة الصارمة المفروضة عليها من العائلة.

في المدرسة الألمانية كانت الرقابة مزدوجة من ياسين ومن مها، لكن بعد دخولهما الجامعة أصبحت أكثر حرية في الذهاب والعودة للمدرسة لعامين كاملين بمفردهما، لم تفكرا أبداً في القيام بأي تصرفات شائنة من وجهة نظر الأسرة، لكنها أرادت أن تسير مع صديقاتها في حرية تسمح لهن بالحديث عن الشبان، أو النظر من بعيد إليهم، أو سماع قصص الحب التي تولد، أو قراءة رسائل عشقهن المطرزة المرسومة بالورود، أو متابعة الإشارات الخفية وتلمس الهدايا والمناديل والعطور، أو الاستغراف في تأمل الوجوه العاشقة السرحانة سواء من البنات أو من الأولاد؛ هذه كانت أقصى الآمال التي تمنتها، كم شعرت بالغبن والألم، حين اكتشفت - قبل ثلاثة سنوات أن اختها التي كانت تتصحّحها بالبعد عن الشباب وبأنهم خطر مبين وذوو اللاعب وحيل - أنها غارقة لشوشتها في حب جمال ابن الجيران الذي يسكن في العمارة المقابلة! بل رأتها بنفسها يوم تسللت مع صديقاتها لرؤية المحبين الذين يذهبون لحدائق الأندرس خفية، لينعموا تحت أشجارها بسرقة قبلة سريعة أو لمسة يد خاطفة أو بوح عارم - حتى ولو كانت كلماتهم منقولة بالنص من الأفلام الغرامية - إلا أنها كانت تندفع أصعب فتاة وتجعلها ألين من قطعة ملبن. رأت اختها منها في ذاك اليوم بالقرب من برج الجزيرة مختفية تحت شجرة غارقة في قبلة خارج الحياة مع الجار الوسيم جمال ابن عازف القانون الشهير وطالب الشريعة والقانون في جامعة الأزهر، لم تصدق. كان حزنها مضاعفاً لأنها اكتشفت ازدواجية شخصيتها فأختها لا تثق بها، توكل لها في كل حديث أن هذا فلتان مشاعر وأنه حرام. ظلت لوقت طويلاً لا تعرف كيف تعامل

معها، خصوصاً حين تبدأ منها في وعظها السقراطي الممنهج متهدية به عند الكتب الأخلاقية التي حفظتها عن فوائد العفة والحفاظ على الحياة!

إضافة إلى تشويش صورة الرجل في ذهنها، كانت صور النساء لديها غير مثالية، لم تتمكن من أن تخذل منها نموذجاً تستند إليه، فمما تعيش في عالمها بدهاء، تعطي لنفسها الحق في أن تعيش كمراهقة تحب وتُحب، وتشير من الشرفة للجار وتتواعد وتلتقي به في الحدائق في الخفاء، بل تتجرأ لتقترب معه حتى شارع الشيخ قمر وشارع طور سينا بالقرب من ميدان السكافاكيني محل سكن الأسرة، وقد رأتها ليلي أكثر من مرة، ولم تفصح لها عن ذلك أبداً. أما أمام الأسرة فتبعد ليس فقط في سمت الحمل الوديع الساذج الذي يقدم للأسرة علينا كل فروض الطاعة والولاء والالتزام بـدستور العائلة، بل أيضاً في تلاوة البنود كل حين في شكل مظهر يعلى مسمع الأسرة في مناسبات تفتيش الضمائر، متخذة من ليلي التابعة حائط استقبال لهذا الإرشاد، وبذلك تكسب ثقة واطمئنان الأسرة تجاهها من ناحية، ومن ناحية أخرى تنسف مراقبة تصرفاتها وهي حاملة وحافظة كل هذا القاموس الأخلاقي النسائي لعائلة شريف الوراق، إضافة إلى المكر البين في توجيهه دفة تشديد الصرامة إلى ليلي المسكينة، بالإيعاز المستتر بأن هذه الصغيرة هي مشروع مترد في حاجة لচقل وتشذيب وقصقصة ريش!

الحالة محاسن ذات الفتنة الطاغية والأئمة المفرطة لم تكن حضن طيبة ورحمة كما هن الحالات في الغالب، بل انحرفت تصرفاتها لشكل عجيب

في مراقبة بنات العائلة والتقتيش في خصوصياتهن وتنبيه الأمهات لمزيد من الرقابة والحرز، فاستاءت منها ليلي ولم تعد تشعر بود نحوها، ولن تنسى ليلي ما حيَّتْ أن الحالة هي السبب في الكشف عن رسائل أسامة السرية بفضيحة موجعة، حين أحرقها ياسين في بطولة ذكورية استعراضية، كمن يقوم بثورة تصحيح أمام العائلة، فكسر بها خفقات قلب بريء.

أما الأم سامية فكانت مثل معظم أمهات هذا الجيل وهذه الطبقة. لم تكن في حاجة للعمل فأصبحت "ست بيت" مرتاحه. امرأة مليحة دلوعة لزوجها ذات أنوثة مبهجة نشطة الحركة وساخرة، تعشق سماع سير الآخرين لكنها لا تثرر بما سمعت، تبكي أثناء مشاهدة الأفلام العاطفية، وتعشق الحللي الذهبية وتقتنى منها الكفاية. حدود إمبراطوريتها هي بيتهما، أما مهمة الخارج فتراها تقع على الذكور، مسئوليتها داخل البيت هي الالتزام بتهدئة كل وسائل الراحة للعائلة كأنهم نزلاء فندق خمس نجوم، وهناك من تساعدها في مهام البيت من ترتيب وتنظيف مرة أو مرتين في الأسبوع. ترضي الجميع بتوفير احتياجات الكل. أحياناً تعرج بالوعظ غير المباشر - وبشكل أوضح للبنين - في النصح والتأنيد من السير على الصراط المستقيم. طبيتها تُتزوج بالمحاسبات الفورية لكيلا تقع أي هفوة أو خطأ، ثم تقديم كشف حساب غير مباشر عن استباب الأمور للأب. تسير خلف زوجها بكل رضا وارتياح وهو أيضاً يعاملها بمحبة يشوبها نوع من الحزم، ويغطي كل احتياجات البيت والأولاد دون تذمر أرادهم أن يتميزوا فأرسلهم جمِيعاً إلى المدرسة الألمانية التي أحبتها ليلي أكثر من ياسين أو منها.

لأعوام ظلت ليلي حائرة في الوصول إلى قلب أمها، بالتفيس عن مشاعرها وهوبياتها وأمنياتها في أي حديث خاص أو استفسار عن أوهى الأحساس العاطفية ولو بشكل غير مباشر، كلما كبرت اكتشفت أن أمها تعامل معها بصرامة مفعولة، كأنه دور محفوظ أفهموها أنه دور الأم، دون أي استثناءات، كموظفي روتيني يلتزم بقانون متعرس ينفذه كآلية، وإذا لم تجد رداً جاهزاً المشكلة طارئة تطالبها بالانتظار حتى تستشير محسن آخرها.

في ذاك المساء، وجدت ليلي اللقب الذي يطابق حالتها بالضبط، عندما دخلت أمها لتعنفها على ترك البيت، لقد كانت الأم بالفعل شبحاً هلامياً!

سألت صديقتها ناهد ذات يوم:

"ألا ترين أننا عموماً كبنات أو كنساء مضطهدات يا ناهد؟"

"ماذا تعنين بمضطهدات؟"

"يعني، فعل كل شيء بشكل مختلف عما يفعله الذكور."

"أنا شخصياً أفعل ما أريد، صحيح لا أبالغ، لكنني أعرف كيف أستمتع بوقتي."

"لكنه في السر، تسرقين يا ناهداً تختلسين المتعة!"

"صدقيني يا ليلي! لو جربتِ لوجدتِ أن أجمل المتع هي المتع المختلسة!"

"لا أدرى، ربما يكون عندك حق، لكنها تبقى سرقات مؤقتة. أنا لست طهراً، لكنني لا أحب التصرف كلص في أمور عادية لا تستدعي الخفاء. أريد أن أخرج من البيت فلا يسألني أحد: إلى أين؟ وحين أعود لا أريد أن يستجوبني أحد: أين كنت؟"

"أفعلي مثلي. أنا أقول إنني عند صديقتي فلانة أو مع صديقتي علانة! وكل الأمور تسير دون مشكلات!"

"كل ما أتمناه أن أمارس هوایاتي بشكل صريح. أنا أحب التمثيل، وأعشق الرقص مثلاً وأحب أن أمارسه كهواية في معهد أو حتى في البيت، أشعر برغبتي العارمة في ممارسته، ما العيب في ذلك؟"

"الممثل حرام والرقص عيب يا ليلي، الرقص درجة من درجات العهر!"

"والله؟! هل هذا صحيح؟ وما هو العهر في نظرك؟"
"الخلاعة!"

"وما هي الخلاعة يا فيلسوفة؟"
"لا أدرى!"

" تماماً.. هذه هي مشكلتنا يا ناهد، لا ندري ونردد أقوالاً دون أدنى تفكيراً"

"من الذي ي الفلسف الآن؟"

رغم الاختلاف بين تفكير ليلي وناهد إلا أنهما كانتا متفقين على الكثير، هي صديقتها الوحيدة حافظة أسرارها في فترة المراهقة وأول الشباب، حتى انكسرت العلاقة أيضاً معها بعد سنوات قليلة، حين استقصى خطيب ناهد عن العلاقات السابقة لخطيبه، فاضطرت لإخفاء كل ما يتعلق بزيارة الطائشة، ورمي له بجزء بريء من تجاربها هي الشخصية ومزجت كل علاقاتها بعلاقات ليلي التي لا يعتد بها حتى تشبع ذكوره وخضوعها، فاستاء خطيبها من سلوك ليلي، وكان هذا هو سر تبدل ناهد التدريجي نحوها، إلى أن أخبرها الخطيب بنفسه وبكل صراحة بما سمعه عنها، فانقطع التواصل بينهما وبين صديقتها؛ وكعادة ليلي لم تنشأ أن تفصح أو تشي بأسرار صديقة عمرها، وفضلت أن تمضي بشعور التضحية والتسامي عن فضحها، لكن الأمر بقي غصة في حلتها عانت منه لزمن طويل ولم تعرف من تتجلى.

في كل ضربة من هذه الضربات النسوية - التي كانت توجعها أكثر من قسوة الرجال - كانت تذهب إلى صورة ولد أخيها، الصورة التي تهرأت أطرافها من كثرة مطالعتها إياها. تذهب وتسأله لو قدر له البقاء هل كانت الحياة ستلوثه كالباقيين؟ أم اقتربهما كان سيجعله يتفهم مشاعرها. ظلام الغرفة وحالتها البائسة جعلاها تذكرة ما حدث معه فقد مات ميتة مفجعة في المنيا عند الجد عز الدين المباوي، حين خرج مرة في تجربة صيد أولى مع أقرانه، انزلق في المياه وهو لا يعرف العوم، وفرّ أقرانه مصدومين

من الحادث، ومن خوفهم لم يصرخوا أو يطلبوا النجدة. غرق وهو لم يتم السابعة، واكتُشف الأمر بعد ثلث ساعات ونصف كانت كافية لصعود روحه من الماء إلى السماء! ربما الموت وحده، هو ما جعل ذكريات ليلي عن أخيها رومانسية إلى هذا الحد، وجعل حزنها وبرؤسها يبدوان الآن لها كما لو كانا على فراقه، اعترفت لنفسها في هذه الغرفة المظلمة، بعد أن جمعت أشباح مها وختالها محسن وأمها وأجلستهن على طرف السرير المقابل. لو سألتها روح أي منهن عن سبب تكائنهما في حالة التباس مشاعرها الآن، لقالت إن غياب وليد عنها هو السبب.

*

وَقَعَتْ لِيلَى فِي الْحُبِّ كَكُلْ فَتَاهَ وَلَمْ تَجِدْ سُوَى حَافِظَةَ أَسْرَارِهَا وَالْأَمِينَةِ عَلَى خَزَائِنِ الصِّدَاقَةِ؛ نَاهِدْ صَدِيقَتِهَا الْأَثِيرَةِ، فَكَانَتْ تَصْرُّحُ لَهَا بِكُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَتَأْخُذُ مِنْهَا الْمُشَوَّرَةَ فِي بَعْضِ تَصْرِفَاتِهَا الْبَرِيشَةِ فِي تَجْربَتِهَا الْأُولَى؛ هَلْ تُبَادِلُ النَّظَرَةَ بِالنَّظَرَةِ، هَلْ تَبْتَسِمْ لَهُ، هَلْ تَسْمَحْ لَهُ بِالْكَلَامِ مَعَهَا، وَكَانَتْ نَاهِدْ تَعْثَثُهَا عَلَى الْمَزِيدِ وَبِالْأَلَا تَكُونُ سَاذِجَةً وَعَبِيْطَةً، بَيْنَمَا لِيلَى تَبْدِي تَحْفِظَةً فِي التَّوَاصِلِ وَالْإِسْتَرْسَالِ عَنْ شَبَهِ قَنَاعَةٍ وَشَبَهِ التَّزَامِ بِدُسْتُورِ الْعَائِلَةِ، بَيْنَمَا عَقْلُهَا الْبَاطِنُ يَزِينُ لَهَا طَرِيقَ التَّمَرُّدِ وَصَفْعَ تَلْكِ الدَّسَائِيرِ الْمُزُورَةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي تَنَاقُضِ تَصْرِفَاتِ يَاسِينَ بَيْنِ النَّظَرِيِّ وَالْعَمَلِيِّ وَتَلْكِ الَّتِي تَلْمِسُهَا يَوْمِيَا فِي سُلُوكِ أَخْتِهَا مَهَا!

أَسَامِيَّهَا هَذَا الشَّابُ الْبَهِيُّ الْعَابِثُ الْجَرِيءُ. كَانَ يَطَارِدُهَا كُلَّ مَرَّةٍ يَرَاهَا فِيهَا سَوَاءٌ كَانَتْ وَحْدَهَا أَوْ مَعَ أَخْتِهَا أَوْ أَخِيهَا. أَعْجَبَهَا هَذَا التَّهُورُ

المختلف في شخصيته، وحين ركب مرة خلفها في الترام اقترب ودس في جيبيها الرسالة الأولى، انزعجت لأن العالم كله ينظر إليها، كادت أن ترميها من جيبيها فوراً كأنه رمي في جيبيها بجمرة، لكنها خافت أن يكون الرفض أفضح من السكوت؛ بينما شيطانها الداخلي القريب يلح عليها بها جس هامس:

"أقرئي الرسالة أولاً ولا تكوني حمقاء!"

حين نزلت من الترام شعرت كأنها تحمل في جيبيها مخدرات. مشت في وجل حتى وصلت إلى البيت. هناك خشيت أن تلتقي عينها بعيني أمها، وكانت مصيبة هلعها أكبر حين وجدت أن خالتها م Hasan في زيارتهم؛ وأنها لن تتمكن من الدخول لحجرتها الخاصة لقراءة رسالة الحب الأولى في عمرها؛ فهي الوحيدة التي لا تستأذن في الدخول لغرفتها وتقتحمها وقتما تشاء. فضلت ليلي أن تدخل فوراً إلى الحمام. أغلقت الباب عليها وجلست على طرف البانيو، ثم فتحت الرسالة المكتوبة بخط ركيك فقرأت:

"نور عيني.."

قامت على الفور من مكانها كمن لدغها عقرب، شعرت بسخونة وجنتيها وتعرق كفيها وخفقة قلبها من الفرح والوجل، لم تفهم ما يحدث لها. أحسست حين قرأت الكلمة الأولى، كان الجملة رنة في أرجاء الحمام مجلجة، وأن الكل سيهرع إليها ليسألها عما يحدث، وستكون الرسالة بعد لحظات بين يدي خالتها "المفتشة م Hasan"، كما صارت تلقبها منذ زمن

ليس بالقصير. عادت لتقرأ الرسالة خطفاً ووجهها يضخ بدم فرحان:

"غر التي الحبيبة ليلى، ملكة جمال الكون.. نور عيني.. روح
قلبي.. حبيتي حياتي.. مشتاق لعنيكي.. مشتاق لك.. مشتاق
وانا لسه مقابلك.. وفي عز الشوق يا حبيتي.. وفي عز الشوق
باكتب لك..."

كتب أسامة كلاماً كثيراً بخط ركيك، لكنه حمل للمرة الأولى في عمرها الكلمة "حبيتي" وكلمة "ليلى" معاً. كان هذا كافياً لتسمع دقات قلبها الذي يكاد يفر منها ويجلجل هو الآخر مثل صوت أسامة في الرسالة، الابتهاج لم يجعل فقط وجنتيها تحرّمان بل كل جسمها يتغير، شعرت بسريان سخونة لا تعرف مصدرها تحتاج كل جسمها، شعرت في آن بقوّة تقاد بجعلها تقفز كالغزال وبضعف يكاد يشل كل أعضائها. شُمِّت الرسالة العاطرة ثم قبلتها وأعادت القراءة العاجلة مرتين ثم دستها في جيبها. غسلت وجهها بماء بارد وتنفست بعمق ثم خرجت.

في ذلك اليوم دخلت ليلى الحمام عشر مرات، ولما انتهت أمها، سألتها بانزعاج إن كانت متوعكة وتحتاج إلى مساعدة، فأوهمتها بأن العادة الشهرية داهمتها اليوم بشكل أقوى من العادة، لذا فهي مضطّرة إلى التردد على الحمام.

ليلة لم تتم فيها ليلى حتى الصباح. أخفت الرسالة تحت وسادتها، وأحضرت بطارية الطوارئ وظلت طوال الليل تحت الغطاء تطالع الرسالة، تقبلها وتشمّها، وتعيد القراءة للمرة الألف حتى حفظت كل حرف فيها.

نامت وهي تحلم بأسامة يقبلها قبلة مثل التي رأت أختها ناعسة فيها وقد نسيت الدنيا. راودها الحلم في يقظة مبهجة ساحتها برفق حلم حقيقي، في الحلم انفتح الجدار تلقائيا بلا صوت، واجتاحها نور غشى بصرها، أغمضت ووضعت ساعدها فوق عينيها، ورويدا بدأ تتصفح لها صورة المرج الفسيح المغطى بالعشب الندي الأخضر. كانت ترکض بفرح نحو الانحدار المؤدي للبحيرة، صارت تألف المكان تعرف الأشجار والطيور والأحجار، تتحدد مع المكان بسحر التعود. ذهبت للأرجوحة. لكنه كان قد سبقها إلى هناك، يتارجح عليها وظهره لها. عرفته. اقتربت منه انجدبت له فأحسست بخفتها، وجدت نفسها ترتفع عن الأرض وتتطير بانسياية وتراء من علٌ. نزل عن الأرجوحة يتأملها، فتهاوت نحو الأرض. ما إن لمست قدمها الأرض حتى وجدت نفسها تتخلص من فستانها الطويل، تعرت وبدأت في رقصة ملائكة وشيطانية في آن، شعرت فيها بإحساس خفة طيرانها، بسيطرتها على كل خلية في جسمها. تحركت ذراعاها لأعلى وحولها في تناسق وقدمها دارت في خفة راقصة باليه، كفافها المفتوحة كانهما أخذتا من نبض الطبيعة، فاهتز بطنها وصدرها وارتعش رفافها، وأحسست أنها لا تقف على أرض بل تتحرك في فضاء، ارتعش كل جسدها بعد الرقصة وهذا تدريجيا، حين انتهت من رقصتها، انهمر هو بها. كانت تعرفه ويعرفها؛ حبيها المنتظر اقترب منها، أغلقت عينيها، قبلها برفق، بل بالكاد لمس شفتيها، استسلمت فغمزها بقلبات أنعم، فبدا في مخيلتها داخل الحلم شخصا شفافا كملاك من نور، يده الدافئة كانت خلف عنقها تسسلل إلى ظهرها بدرية. شدها نحوه فاستجابت. التصق بها فشعرت

بلذة اللمس وتركت نفسها تذوب وجسمها يسخن ويتشكل. تريد أن تفتح عينيها لراه، لكنها مُسيرة لا تقدر، لذة اللحظة تسرّعها وتخرّ كل كيانها ومشاعرها. فجأة شعرت بقوتها وهو يصهرها في جسده، مد يده إلى كل ثمار جسمها المتظاهرة، فاجأها وحشاً أذنّيها بكلمات بذية أخلجتّها وأفرّحتها. شعرت بتحرّر رغم قبضته وانصهارها فيه، وبقدرة مثل لذة الطيران ومتعة الرقص. انزوت في جسمه، وقبل أن تفتح عينيها لراه وتتأكد منه، تغير حلمها إلى كابوس. رأت فيه خالتها تتّحد غرفتها وخلفها كل أفراد العائلة، مرتدّين جميعاً ملابس في نون واحد. رفعت خالتها البطارية فوقها من أعلى إلى أسفل، فبدت كمصابح ساطع كالذى يُستعمل في غرف العمليات، سلطته على وجه ليلي المذعور، ثم سحبّت الرسالة من تحت المخدة وقرأتها بصوت تجويسي متهمكم، وكل العائلة في الخلفية ردّت الكلام، فقهّهوا وهي تراهم كأشباح. انفضّت من نومتها. تأكّدت من وجود الرسالة تحت وسادتها. قامت عن سريرها ووضعتها تحت المرتبة، ثم جاهدت في استعادة النوم واستبعاد سحنة "طنط محسّن"، شعرت بعرق خفيف على كل جسمها له رائحة الندى، رأت على جسمها بعض السحجات الخفيفة والخبرشات الخافتة. ابتسمت في التذاذ وحاولت أن ترکض عائدة لمتصفّح الحلم!

لم تتبّه ليلي في البداية أن الرسالة الأولى هي نفسها كلمات لأغنية شهيرة، لم تبالي، بل زادت محبتها أكثر لأغنية عبد الحليم حافظ ولشخص عبد الحليم نفسه، الذي صار منذ ذاك اليوم مغنيها المفضل، وكلما استمعت للأغنية كانت تسمع فيها صوت أساميّة.

تعددت مناورات أسماء وبئه عشقه عبر رسائل كثيرة ومن أغانيات عديدة، لاقت كلها هواها. فالحب هو الشيء الوحيد الذي يسبغ قيمة كبيرة على أشياء لم نتبه إليها أو لم تكن تمثل شيئاً من قبل! جعلها تشعر باللهفة والانتظار والعتاب. وتغيرت حواسها وأصبحت أكثر رهافة. وعاشت أحلاماً عذبة، وحرضاً مبالغ فيها خشية اكتشاف أمرها، وعندما ألح عليها أن يأخذ رقم هاتفها، كتبته له؛ على وعد بآلا يتصل بها إلا حين تسمح له هي بذلك، وفي الوقت الذي تراه مناسباً. كانت فيما بعد، لو كان إلى جوارها أحد، تلجم إلی محادثته بصيغة المؤنث كأنها زميلة لها، بل أعطته اسماً أنشرياً (سمية). لم يتتبه أحد في البداية، لكن أمها لاحظت ارتباكها مع رنة التليفون وتورد وجنتيها، ثم همسها فيه وازرواهما به حتى لا يرى أحد وجهها.

الآن تدرك أن الأقسى بأساً هو أن تكون الأثني لفرح الأثني بالمرصاد، حتى إن كانت أمها، وأنه عليها من الآن أن تكون بعفردها في جلب الفرح لحياتها وتعريض المسلوب منه للحفاظ على سلامتها العاطفية، وألا ترك نفسها - مهما كان - فريسة اليأس وضحمة الأحمال المرهقة لكل حس طبيعي منها!

لم تهناً ليلى بحكايتها مع أسماء إلا لشهر قليلة، فخالتها محاسن تعرف كل حيل البنات والأعيين. تعرف الارتباك والتلعثم وحمرة المخلج وحالة النشوة والتحليق فوق السحاب، نظرة واحدة منها لأي فتاة تعريها من دفاعاتها، هي لا تنكر خبرتها التي اكتشفتها من تجاربها في قصص حبها

الفاشلة السابقة حين كانت شابة، عزاً لها أنها تُسخر هذه الخبرة – كما كانت تقول – لحماية فتيات العائلة. وبالفعل بخبرتها التفتيشية اكتشفت مزروعة الرسائل الغرامية النائمة تحت مرتبة ليلي، وانتهت قصة جبها قبل أن تبدأ.

كل ما نتج عن هذه التجربة، أنه منذ ذاك اليوم صارت السيطرة العائلية أقسى. وكان عليها لو أرادت أن تقيم علاقة في المستقبل أن تخذل تدابير وحيلًا لا تكشف بسهولة. صديقاتها كالعادة قلن لها إن فيما جرى درساً مفيداً عن الرجل، فعند انكشاف الأمر، لن يبدي شهامة ولن يجتنب غياب حبيبته كقيس، بل سيقع في حب الفتاة الأولى التي يلتقيها ربماً كنوع من المواساة وربماً لأنها طبيعته. على الفتاة فقط أن تنزوي بعيداً للتلملم شتات ما تبعثر منها، لكنها كالعادة أيضاً، لم تصدق كلامهن، لأنها تكره التعميم ولأن رأيها أن كثيراً من النساء يفعلن الشيء نفسه في الظروف نفسها، كل ما هناك، أنها نظرت إلى داخلها فقط، ورأيت فارس الحلم الملثم، يعدها بلقاء ما في مستقبل أيامها.

كلما اتسعت حرية الرجل مع النساء، ضاقت على امرأة قادمة يجهلها!

بهذا التصور أيقنت ليلي أن فقد حريتها جوار أخيها ياسين سيستمر لوقت أطول، وبدالها أن رسوبي في العام الأول في كلية التجارة، جعلها في بؤرة اهتمامه إلى جانب اهتماماته الأخرى، ربماً ليخفى إخفاقه أمام الجميع، كان يبرر هذا الإخفاق بأن اهتماماته الموسوعية جعلته

يحضر محاضرات موازية في كلية الفلسفة لأنه كان منبهراً بأستاذ شهير له عمود أسبوعي في إحدى الجرائد القومية، ولم يفوت له محاضرة أو لقاء أو مقالة أو كتاباً. نجح بعد عام لكنه كرر الرسوب مجدداً في عامه الثاني لاهتمامه بمحاضرات الأدب الألماني بكلية الألسن. هكذا كان يجد المير الذي يتوارى خلفه كلما رسب، هي لا تذكر أنه يبني نفسه فكريًا في ميدان الفكر الأكثر حادة، لكن سؤالاً كان يداهمها دوماً:

"ما فائدة هذا البناء ما دام لا يغير فكره وتصرفه معها؟"

كان يؤمن بأن الجامعة لا يجب أن تكون مكاناً للامتحانات بل مكاناً أوسع للعلم والبحث، وأن تكون كلياتها مفتوحة ليختار الطالب اختصاصاته كيفما أراد، ويحدد لنفسه الوقت الذي يراه لازماً لإنهاء دراسته. كانت له أفكار كثيرة فالتة ومبكرة. هناك سبب آخر خفي جعله يوازن على التوажд في كلية الألسن: وجود هياكل زميلة ليلى، فمنذ المرة الأولى التي شاهدها فيها أصحابه سهم الغرام. ظل يستفسر من ليلى عنها بأسئلة التحرري الناعم، بسؤالها مثلاً أنه يعتقد أنها تسكن في العباسية؛ فتصحح ليلى بأنها تسكن في ميدان الظاهر، أو بأنها متزوجة، فقد رأها تحمل طفلاً صغيراً، فتصحح ليلى، إنه ابن بنت عمها وهكذا. كان يجمع معلومات عنها لنفسه في أسئلة من هذا النوع غير المباشر الذي يحتاج لردود استنكارية وتريرية في آن. المهم في الأمر أن فارق الأعوام الدراسية بين ياسين وليلي تقلص، ولما بدأ هو عامه الجامعي الثالث، كانت ليلى قد بدأت عامها الجامعي الأول ومها تزوجت وأصبحت على وشك وضع طفلها الأول والتخرج في العام نفسه.

هيام كانت شخصية واثقة من نفسها، جميلة هذا الجمال الصافي الرزين. واثقة من حسنها لكنها تدرك أن أولويتها لعقلها ستمنحها اكتمالاً وإشباعاً أكثر من شكلها. أبوها مصرى وأمها نمساوية، ولدت في فيينا وجاءت صغيرة لمصر وأقامت مع الوالدين. ورثت معظم ملامح أمها من بشرة أوروبية فاتحة وعيين صافيتين بزرقة وسط أوروبا المميزة مع شعر كستنائي طويل وغزير وصوت رقيق أخاذ، ومن أبيها ورثت امتلاء خفيفاً في غير سمنة وخففة دم وسرعة بديتها. كانت موالصفات مثل هذه في أي مجتمع شرقي كافية لليهود وراءها العثرات. حكت لليلى أن ياسين اعترض طريقها مرات بالصدفة وأن هذا لا يضايقها، وقالت لليلى إنها ترتاح إليه وإلى حديثه الجذاب، وإنها أرادت أن تبوح لها حتى لا تشعر بأنها تغدر بالصداقة التي بينهما. أسعدها أن تعرف هيام لها بهذا، أن تزداد علاقتهما وثوقاً، ورأت في الأفق قصة بينهما توشك أن تبدأ، لم يضرها هذا الحدث، فربما خفف هذا الحب من تعنت شخصية ياسين بالتفهم أو بالانشغال، وربما تقوم هي في المستقبل بدور ما بينهما يجعل ياسين متساهلاً قليلاً معها، أو يمنحها هذا الوضع على الأقل قدرًا من القوة الخفية للمرة الأولى تجاه أخيها.

لكن ياسين لم يتعامل مع هيام بمعزل عن شخصيته البيتية، ولم يستطع أن يطبق نظرياته عن الحرية والمساواة معها، رأته ليلى بعد شهرين مبتئساً وقد أهمل تهذيب حياته وشاربه وعزف عن الخروج، فبدا كما لو كان دروشاً على أعتاب مولد، تعاطفت معه على الرغم من كل شيء. لا يجب أن يكون التعاطف مبرراً تجاهه، وإنما لتعاملت معه بعدها منذ فترة

طويلة. وعلمت السبب ب مجرد أن سألت هيام ذات صباح، فقالت إنه تكلم بفخر أن أختيه البتين لا يمكن أن تكون لهما أي علاقة ولو بريئة بشاب أو رجل قبل الزواج ولا حتى لقاء عابر وسط الناس. اندھشت، واعتقدت أنه يمزح، فارتبك، وحين واجهته بخطأ تصوره هذا وسألته عن وضعهما هما معا في ظل معتقداته الراسخة تلك، تحجج لها بأن هذا وضع آخر، فأصرت أن تعرف منه ماهية هذا "الوضع الآخر"، لكنه رغم حججه الكثيرة ومنطقه المرتب لم يقنعها.

يكون ياسين في أضعف حالاته وفي أشد الارتكاك والتناقض في الرد على أسئلة من هذا العيار الذي يخص التطبيق على العائلة والأختين تحديداً. أصرت هيام على سماع رده بل على إحراجه، لأنها شعرت بخسفة الكلام حتى ولو بدا مطلياً بالعفوية. عجز عن الرد وافتعل خلافاً وهماً وانعزل.

"لن تستطيع أن تخدع الناس كل الوقت!"

هذه الجملة التي كانت مُدرّسة المنطق تشرح عليها نظرية منطقية تذكرتها الآن، علقت في ذهنها قديماً وما زالت عالقة، منذ أن نطقت بها المعلمة في الصف الأول الثانوي، وقت أزمة رغبتها الملحة في التمثيل ورفض ياسين، على الرغم من تشدقه بحق الجميع في الحريات. تذكر الآن كل ما حدث، ها هي أنها وحالتها محسنة ومها على طرف السرير، وأبوها عند طرف النافذة ينفث دخان سيجارته، أما ياسين فما زال يروح ويتجوّل ساعة عتيقة لا يكفي، يحدث صخباً ويتضاعف صوته عشرات المرات كصدى في كل أرجائها، ياسين، ذلك الرجل الذي كان

كمسمار مدقوق في جنبها، يتناصح إلى عشرات الشخصيات ويفيظن
خلف كل شخصية متناسقاً ومتواافقاً تماماً مع ما يقول، لأنّه يلبس لكل
حال مسوح الشخصية، ربما يصدق لا يحس بزيفه، فهو يعبر بأمانة عن
مزاج وطبيعة الشخصية التي تتلبسه، لكن في الوقت نفسه، بسبب سطوطه
وما أسبغته عليه العائلة من رتبة أعلى، تمكن - في ظل تناقضاته - من أن
يرسم مصير ليلي في الحياة، ومن عجائب القدر أنها أرادت بالتمثيل أن
تتعدد في شخصيات خيالية يرفضها هو، بينما يتعدد هو في شخصيات
واقعية تتناضل ببساطة ويعامل معها الجميع على أنها حقيقة!

تستعرض ليلي ما حدث وقدراك، الجھت إليه في عزلته البوھيمية
وقالت:

"هيام إنسانة رائعة وترتاح لك؛ فلا تكون قاسياً معها."

بوجت من المباشرة، ومن علمها بالعلاقة ونصيحتها الوائقة. سألهما في
ذعر عما تعرفه، فلم تنقل له إلا ثناء هيام عنه.

ما فعله ياسين آنذاك أثار تعجبها، ما إن عرف بأن ليلي مطلعة حتى
أنهى كل شيء بينه وبين هيام، لم يقترب مجدداً من كلية الألسن، ولم يحاول
إعادة علاقته بهيام بعيداً وفي مكان آخر، ربما لأنّه لم يشاً أن يقيم مغاراته
العاطفية في ساحة قريبة من مرمى نظرات أخيه، فتطالبه فيما بعد بحقوق
كالتي يمنحها لحبيبه، وربما لأنّه أدرك في وقت مبكر جداً، أن هيام ليست
بالشخصية التي تقبل بازدواجيته!

* * *

تعالى صوت أذان الفجر وهي كما هي في قرفصتها بالملابس التي أتت بها على السرير. صوت المؤذن نفسه الذي تعودت عليه، يأتيها من المسجد الذي يظهر طرف مئذنته في مواجهة نافذتها من خلف حواف البيوت مع السماء التي بدأت تتبين. استقامت واقفة، وقررت أن تصلي. فكرت أن تغتسل من خيباتها وذكرياتها بالصلوة. هي دوماً تلجمًا إلى الله في نهاية المطاف، لكن بعد يومين من المواظبة والدعاء بكل مسامها، يعود إليها الإحساس بالتكلس، وتأخذها دوامة حياتها إلى الأعماق. قبل أن تعود لذكرياتها، انتبهت فجأة إلى أن فاروق لم يأت إلى بيت أبيها، لم يدفعه فضوله حتى لاستجلاء أمر اختفائها هكذا، حتماً توقعت أن ياسين قد اتصل به، لكن ألم يكن من باب إظهار الود والرغبة في الحفاظ على زوجته أن يأتي؟ "لا يأس!" قالتها لنفسها في مرارة، وتركت الذكريات تستكمل مداهمتها لها.

عندما رأت هشام، كان هذا في عامها الثاني بالكلية؛ هشام الهمجي بذكاء والأنيق بفوضوية، والمحظى بعفوية. ظاهرياً يبدو كأنه لا يأخذ أي أمر بجدية، لكنه جاد حتى النخاع حتى في إطلاعه للنكات وإشاعة المرح يضمّنه مغزى ذكياً. تلتف حوله الفتيات وهو لا يبالي؛ عن ثقة لا عن تكبر، فيتوعدن له أكثر، فأغلب الفتيات يصدقون هذا النوع الذي لا يتجمّل و"يائنك" نفسه لاستهلاكه قلوب أو الفوز بلحظات حسية مؤقتة. حين يقع أي زميل أو زميلة في مشكلة يكون هو أول من يهرع لحلها؛ وما إن تتحل حتى ينأى بنفسه بعيداً متجنبًا أي شكر أو امتنان. هذه الصفات انتبهت لها ليلي، بل أكثر من ذلك، لأنها كانت على مسافة منه، لا تقرب

إلا نادراً وعما تفرضه الظروف، وهذه المسافة هي أيضاً ما أتاح له أن يتأملها بروية ويغليبه الفضول ليعرف أكثر عن طباعها وتفكيرها. بدأ هو في التودد إليها دون ملاحظة. اقترب منها بالشكل الذي تحبه، وفاز كثيراً بصدق انفرادها، فتحدى إليها أحاديث واثقة عن نفسه وتحدى باختصار عن نفسها. ارتع قلبها له واشتاق إليه في كل طلة وكل غياب، حتى بدأ طيفه يطاردها صحوا ومناماً. التقت به في كافيتريا الجامعة مرات، ثم في أماكن عامة بجرأة منقوصة، كانت تخشى أن يحرق ياسين كومة مشاعرها الجديدة برعونته. كتمت سرها، رغم أنها كانت في أمس الحاجة لصديقة تخفف عنها لوعتها وتطمئن بالها.

أعجبه منها ذات يوم أنها لا توافقه على فكرته المتطرفة عندما تحاورا وقال لها:

"من الضروري أن تستولي الدولة على أموال وأملاك الأغبياء وتصرفها وتوزعها على الفقراء، حتى لا تتحول الدولة تدريجياً إلى الرأسمالية المطلقة؛ فالنموذج الشيوعي - رغم انهياره - هو أفضل النظم البشرية اقتصادياً إن لم يكن سياسياً!"

"لا أعتقد؛ فالشيوعية جبست الناس كأشخاص متساوين في العبودية، لهم الحق في السخرة، دون أن يشعروا بسبب تعيم صورة الآخر على الجانب الآخر من العالم، وجلب كوارثه فقط والتبيه الدائم على أنه العدو المبين.

"هل ترين أن الرأسمالية هي الحل؟"

"لا، لم أقل ذلك؛ فالرأسمالية أيضاً استخدمت العبيد بامتياز وبإيعاز القدرة على القفز من سور الفقراء إلى مرج الأغنياء والتمتع بثمرات المكاسب الهائلة المتطرفة، ومن سيختلف سيكون مصيره مثل مصير الشيوعيين، وأيضاً بالمثل دلت بكوراث المعسكر الشرقي وتنميته للبشر وبعدائه الأزلي وخطروه على المعسكر الغربي الحر!"

" تماماً هذا ما أراه.

"نعم لكن عليك أن ترى الصورة كاملة يا هشام! كلاماً يستخدم البشر كفراًن تجارب في مختبر المصالح السلطوية"

"لكن لا بد من نموذج واضح للبشرية لسير عليه!"

"هذه في رأيي هي المأساة، البحث عن نموذج واحد يصلح للكل. ليس هناك نموذج واحد مثل زعيٰ موحد يصلح لكل البشرية"

"لكن بدون نظام اقتصادي قوي ليس هناك حل!"

"ربما في الحل الاجتماعي المنسي طريق للتجريب، ليس على الطريقة الشيوعية!"

"لكن الحلول الاجتماعية غيل في الغالب إلى الفوضى!"

"لا أعتقد ذلك. الشعوب نضجت لكنها ما زالت أسيرة الملكية الخاصة وفاقدة لمعنى الملكية الجماعية، فلا الرأسمالي يستطيع حلها ولا الشيوعي. لم يبرز حتى الآن الشكل الاجتماعي المناسب

الذي يمكن أن يتنازل فيه الكل لصالح الكل، وليس الكل لصالح الفرد رأسماليًا، ولا الفرد لصالح الكل شيوعياً، وأن تكون السلطات مفتوحة ومراقبة ومتداولة على الدوام.

طال حوارهما في ذاك اليوم بكلام كثير. أكدت له صعوبة تحقيق تلك النظريات في الواقع العام، ثم أنهت كلامها قائلة:

"إن التجريب ولو على سبيل الغذاء المعرفي يوحى بأمل التغيير ولو بعد حين؛ فالسياسة والاقتصاد لا يحتاجان لمفاجأة بالتغيير فقط أو بالثورة فقط، بل لمِراس مرضٍ وصبر طويل قد يمر بمرحلة الحروب، لو تجاوز جهد التفكير السلمي أولاً"

كان هشام يستمع لها بانبهار ويستمتع بحوارها. استراحت أيضاً لإنصاته للنهاية، عوضها ذلك عما تمناه من أخيها منذ سنوات طويلة. وأعجبها منه أكثر، يوم أن دعاها إلى بيت أمه لتتعرف عليها، التي راحت بها في هذا الحي الشعبي القديم؛ حي المطرية. وجدت فيها صورة للأم التي تحبها، حكيمه ومضيافه وتحب الناس وتفتخر بابنها وابنتها. زوجها كان يعمل في مطابع الأهرام وتوفي في حادث العبارات السلام ٩٨ في البحر الأحمر، فانكشف لهم كابوس انهيار المجتمع قبل غيرهم، وجعلهم من صفوف المعارضين مبكراً. بالمعاش الضئيل تمكن الأم من مصارعة الحياة بعشقة حرمان، واستطاعت أن تكمل حلم زوجها بالحاق هشام بالجامعة والآن أخته فاطمة في الثانوية العامة، متفوقة وترغب في دراسة الهندسة المعمارية، منبرة بفكرة عمارة الفقراء للراحل حسن فتحي وطريقة زها

حديد العراقية للعمارة النائمة. رأت ليلي كيف يتعامل هشام مع فاطمة، حنان أخوي يثير الغبطة، يماز حها بلطف ويهتم بها. رأت جواً أسريراً حميمياً ومريراً رغم تواضع الحال. تأكد لها للمرة المائة أن الراحة المادية لا تخلق الراحة الأسرية وأن هناك أشياء أخرى تحتاجها راحة البال والسكينة، ليس بالضرورة أن يكون اليسر المادي أساسها. وجدت هشام صادقاً، لم يخش أن يعرّفها على محل سكنه في الحي الشعبي العريق ولا على عائلته الصغيرة، لم يخرجل أو يتجمّل، رغم أن مظهره في الجامعة وأناقته يُوحيان بغير ذلك، وأنه محل استداررة كثير من أعناق الطالبات نحوه، بينما هو يسير مبتسمًا واثقاً وعيناه على عيني حبيبته الأثيرة ليلي. ما أجمل أن ترى الحبيبة صورتها وحدها في عيني من تحب! كم امتنت له على هذه الحساسية! على لفّات صغيرة تدخل القلب وتبقى فيه للأبد؛ تذكره عيد ميلادها وإصراره على دعوتها في كافيتيريا قصر النيل وحدهما؛ وعلى إهدائه إياها في ذاك اليوم رواية "الحب في زمن الكوليرا" بالألمانية التي لم تكن متوفّرة بالعربية بعد؛ ثم مُوازرته لها أيام امتحاناتها رغم انشغاله في امتحاناته. كان يهدّيها كل حين شريط كاسيت موسيقياً أو غنائياً من اختياراته في ذوق رفيع، تستمع إليه فتفهم رسالته وتحب طريقة الرومانسية القديمة. في رحلتهما الجامعية إلى الفيوم كان لطيفاً جداً يحرسها بعينيه ويحاسب عليها من نزوات الشباب، ولم يفعل أكثر من أن أمسك كفها في الأنوبيس ليقرأ لها طالعها. ضحكت يومها كثيراً وكانت تمنى لو تبقى يدها في يده طوال العمر؛ لو يحتضنها مرة ويقبلها ويعلم بأشوّاقه على بشرتها. كانت ترى الوله الذي يملأ عينيه ويفيض، وترى احترام زملائه لهما واحترام

علاقتهما. يعود إليها حلم قديم ليراودها. تبحث في كل مرة عن ملامح الوجه الذي يرافقها، لكنها أبداً لا تصل إليه!

تخرج هشام بتفوق أثلج صدرها؛ تفوق عولت عليه حياة كاملة. أدركت منذ زمن أن هذا هو رجلها المستقبلي، وعليها أن تسانده في مشواره ليسعدها بحياة مشتركة. لكنهم استبعدوه رغم أحقيته في التدريس الجامعي. سقط في دوامة الاكتتاب بسهولة لم تكن تتوقعها من شخص مثله. وقفت ليلى إلى جواره تؤازره وتؤكد له أن هناك عملاً ما أفضل يتنتظره. بقي عاماً كاماً يقبل أعمالاً يصفها بالخائبة، يقوم بها بلا روح، وتدهرت أحواله النفسية وأهمل هندامه وصار أكثر عصبية مع الكل، ومع ليلى بالأكثر رغم أنها تحملته للنهاية. ثم فاجأها ذات يوم بأنه تراسل مع جامعة فرنسية ليكمل دراساته العليا في باريس، كانت مفاجأة أحلامها تكاد تنهار، فهو يتحدث عن سفره وعن دراسته وعن مستقبله وعن رغبته؛ فقط عن نفسه. لم يكن في الحديث أي كلمة مشتركة تجمعها معه، بدا لا مبالياً بكل ما يجمعهما. حاولت أن تستفسر منه عن فترة الإقامة؛ عن مصيرهما معاً؛ عن وضعها معه، لكن دون جدوى. صحيح أنه لم يعدها بشيء؛ وهي لم تكن تتضرر أو تتوقع أي وعد منه؛ فقد كانت موقنة أن ما بينهما أسمى. براحت من الكلام والوعود، استفسرت منه عن إمكانية ذهابها معه. رد بصلف واستهتار غير معتادين منه:

"كيف تسفرين معي.. هل تفكرين حالك أوروبية؟"

"لم أقل هذا، كت أظن أن هناك حلولاً يمكن أن تجمعنا! وأنا
سأنتظرك مهما كان!"

"لا تنتظريني.. قد لا أعود، ومن قال إنني سوف أعود لهؤلاء
الخوازير الخونة!"

"لا تنس أن هنا في هذه البلاد من سكت قلها وعقلها،
وتحتاج أن تضحي بالغالي من أجل إسعادك!"

لم تتوقع بأي حال من الأحوال هذا الانقلاب المفاجئ، ولم تمحسب أبداً
أن الضربة الموجعة ستأتيها منه، وأنه ليس سوى صورة مشابهة للياسين.
فوجئت بكلامه الذي تحول إلى النقيض، ولم تعرف ماذا تفعل، فعلاقتهمما
شيء خارج عن الناموس العائلي، وعليها كما بدأت بعيداً في الظل أن تظل
دائماً في الظل، حتى تموت ويتقات عليها دود النسيان دون أن يعلم أحد.
كل ما هناك أن هشام أثرى حياتها لعامين كاملين استطاعت خلالهما
أن تحيا ببعض الألوان والورود والأحلام المنقوصة. ليلي لا تصدق ما
تقوله لها صديقاتها اللاتي تأملن من قصص حب فاشلة، عندما كن يُرددن
على مسامعها أن الذكر يعتمد في علاقاته مع الفتيات على حرية مشوهه
اكتسبها من كونها علاقة خافية، لا قيود عليها أو التزام فيها، وأن الشاب
غير ملتزم تجاه فتاته مadam الأمر غائباً عن الأسرة أو بإمكانها تجاهله، وأن
الالتزام والشهامة لا يأتيان إلا في وجود جماعة تشهد على كلامه، وتلزمه
بوعده وتحاسبه إذا أخل بكل هذا. ولأن ليلي موقة أن ثمة رجلاً على

سطح هذا الكون لم يصبه الفساد العاطفي، هذا الرجل الذي تحلم به لابد أن يكون موجودا على الأرض كما تقول الأسطورة، فكل امرأة على سطح هذا الكوكب لها رجل بمناسبة المكمل أو قسمتها، نصفان ناقصان يظل كل نصف يبحث عن الآخر حتى يجده، فيكتمل بالعثور عليه معنى حياته ودائرة سعادته، ويظل يشقى، دون أن يدرك سبب شقائه، حتى إذا مارس طقوس الحياة جماعها، من حب وزواج وإنجاب حتى يبلغ الموت، وقد لا يدرى أن حبه الحقيقي يتنتظره في مكان آخر، وأن حياته قد مررت مع الشخص الخطأ، وعليه إما الارتهان والخنوع للنصيب أو المجاهدة لإعادة البحث عن القسمة. يتبعس عليها الأمر أحياناً، تكفر بفكرة النصيب تحت وطأة ما يحدث لها، لكن حلم القسمة يراودها ويعيد إحساسها بصدقه.

أبلغها هشام بقرب سفره إلى فرنسا وتأكيده الحجز، استسلمت وقالت إنه لم يتبق لها سوى أمنية أخرى؛ أن تودعه في مطار القاهرة قبل رحيله. أعلمتها بيوم وساعة السفر ورقم الرحلة والخطوط الجوية.

بصعوبة غير عادية أقنعت الأسرة بالتزامها بمحاضرة مبكرة جداً في الجامعة في صباح اليوم الموعود. نهضها الأرق تلك الليلة. كل أحلامها تتسرّب من بين يديها، ولا من معين. نامت مكدرة تخشى أن يأخذها النوم فيفوتها موعد سفره، وتخشى أن تصحو لتشهد يوماً معذباً في وداعه. رافقها ياسين حتى بوابة الجامعة، انتظر إلى أن غابت عن ناظره ثم مضى. عادت تلهث لتأخذ تاكسيها حتى المطار. نزلت عند بوابة الدخول.

عرجت في خطاهما بين قدم خفيفة ت يريد أن ترکض لطلته القادمة وقدم ثقيلة تستذكر أن تعيش لحظة فراق قادمة، لا تعرف أترفع عينيها للبحث عنه أم تخفضهما خوف اصطدامهما بعيون تعرف عليها. قلبها يوجعها ويأمرها بأن تنظر ما إن دخلت من البوابة، حتى صارت مثل حيوان أسير رموا به في قفص ضيق. وقفـت في زاوية تتيح لها رؤية المسافرين القادمين. ظلت عيناهـا تنتقلان إلى كل شخص يدخل إلى الصالة. طال الوقت ولم يدخل هشام. ذهبت لشاشة معلومات رحلات المغادرة، لم تجد أي طائرة ستغادر إلى باريس في ذاك اليوم. كانت قد حفظـت الموعد كاسمها، وكان قد قال لها إنه سيسافـر على الخطوط المصرية في الثانية عشرة والنصف، وهذا هي قد حضرـت في الثامنة والنصف. شـكت في معلوماتها، فأخرجـت الورقة التي سجلـت فيها موعد السفر، كل شيء كان صحيحاً. سـألت في مكتب الاستعلامات عن الرحلة التي ذكرـها لها، قـيل لها إن هذا هو رقم رحلةـ الثلاثـاء وأنـ اليوم يواـفق الخميس، لكنـ هناك رحلةـ إلى فرنسـا في الثانية والنصف بعدـ الظهرـ. فضـلت الانتـظار فـلعلـ وعـسىـ! حـاولـتـ في هذهـ الأثنـاء الاتـصالـ بهـ تـليفـونـيـاـ، لمـ يـردـ. انتـظرـتـ حتـىـ الثانيةـ والـنصفـ، حـاولـتـ الـاتـصالـ بأختـهـ فـاطـمـةـ، لمـ تـردـ، انتـظرـتـ وـالـلهـفةـ تـنهـشـهاـ، لمـ يكنـ معـهاـ رقمـ الأمـ. انتـظرـتـ إـلـىـ أنـ ذـابـ صـيرـهاـ وـتـبـخـرـ، بـقـيـتـ حتـىـ الثالثـاءـ وـالـنصفـ فيـ المـطـارـ وـبـكـاءـ حـزـينـ يـنـشـعـ منـ كـلـ جـسـمـهاـ، وـوـجهـهاـ مـازـالـ مـعـلـقاـ بـكـلـ الدـاخـلـينـ، وـاقـفـةـ تـسـولـ الـوقـتـ وـتـدـعـوـ لـنـفـسـهاـ بـالـرحـمةـ منـ عـذـابـ الـانتـظـارـ، ثـمـ عـادـتـ لـتـسـيرـ ثـمـ تـقـفـ، تـنـظـرـ، تـمـشيـ، تـقـفـ، تـنـظـرـ فيـ ساعـتهاـ؛ أـفـعـالـ كـرـرـتـهاـ مـائـةـ مـرـةـ. جـرـبـتـ الـاتـصالـ مـرـةـ أـخـيـرـةـ بـفـاطـمـةـ،

يداً خلها بصيص أمل أخير أن يكون هشام قد تراجع عن قراره؛ وستعتبر عذاب انتظاره المميت قرباناً لبقائه، وينغض علىها في آن بصيص الأيس من شكل تصميمه الأخير وحده. ردت أخته، فبادرت ليلي في لففة:

"أين هشام يا فاطمة؟ لماذا لم يأت حتى الآن إلى المطار؟"

"أهلاً ليلي! المطار! ألا تعرفين؟ هشام قد سافر بالفعل قبل يومين؟"

لم ترد ليلي، احتقان البكاء خنقها. شعرت بكل إعianها المؤجل يغمرها في لحظة، كادت أن تتهاوى من وقفه الساعات الطويلة منذ الصباح وأرق الليلة السابقة. وقعت السمعاء وطلت تأرجح كبندول كبير في الهواء وهي تسمع صدى صوت فاطمة يناديها.

أخذت تاكسيها إلى البيت، وأمرت السائق لا يركب أي أحد معها وأن ينطلق بها إلى ميدان الظاهر أكملت في التاكسي كل ما تبقى من بكاء الانتظار بنحيب مكتوم، كيف يحرمنها من اللقاء الأخير؟ تسائلت: هل تود وداعه حقاً؟ أم تراها كانت تريد حضور لحظة قبر أحلامها فقط.

شقشق الصبح قبل أن تصلي الفجر، وبدأت أصوات الناس تصل إلى أذنها، فكررت أنه عليها أن تعود إلى بيتها قبل أن يستيقظ أحد في بيت أبيها، لا تزيد أن ترى أيها منهم، لا أمها ولا أباها ولا ياسين، وقفت خلف النافذة فاستطاعت عيناهما عربات الكارو وهي تحمل الخضار والفاكهة في

طريقها إلى سوق الحضر القريب، وبعض الرجال والنساء يحملون بقايا نعاسهم وبؤسهم ويسرون، تركت مكانها وتجولت في الحجرة، تلك التي جمعت فيها الليلة الفاتحة كل من شاركوا في صياغة حياتها بحجة حمايتها، ثم خرجت من الغرفة. كانت السكينة تملؤها، فما زال الجميع نائمين. توجهت إلى الباب مباشرة، ففتحته ثم أغلقته وراءها بهدوء. تؤرقها كثيراً فكرة الخروج والدخول من أبواب تظن أن خلفها الأمان وراحة البال، لكن شعوراً ما يدخلها دائماً بأن الخروج من أبواب تلك البيوت التي تحبها أكثر ارتياحاً من العودة إليها!

لا تعرف كيف وصلت إلى بيتها، لم تُغْفِ عيناهما لحظة، لكنها كانت في حالة صحو مضاعف. قبل أن تضع المفتاح في ثقب الباب أخذت شهيقاً عميقاً وأغمضت عينيها، لكن المفاجأة كانت أن فاروق قد أغلق ترباس الباب من الداخل، وعليها إن أرادت أن تدخل إلى حياته مجدداً، أن تستأذنه.

فاروق نوع من الناس من تعتقد أنهم خلقوا في الحياة ليكونوا موظفين روتينيين مملين، حتى في مراهقته وشبابه الأول كان يختلف عن أقرانه، لا يورط نفسه في أي مهمة لا تجلب له فائدة مضمونة. إنسان مبرمج على أن النفعية هي أساس الحياة. يقبل مساعدات الآخرين ولا تنقصه كياسة الشكر والامتنان، لكنه يتتجنب تقديم المساعدة من تلقاء نفسه، يتهرب عكراً لو وجده نفسه مضطراً. يعول على ملابسه في كل علاقته، والكرافطة عنده أهم معلم في ملابسه، لا تراه بدونها مهما كانت الأحوال، يؤمن بالمقولة: "الرجل بلا كرافطة ليس رجلاً!". حتى يكاد من لا يعرفه يتخيل أنه

لا ينام إلا بها. يظهر دائمًا ببدلة مكوية بعنابة وحذاء لامع يبالغ في تلميعه من أي غبار، لذا يحتفظ في جيب البنطلون الخلفي بمنديل إضافي أسود لمسح الحذاء، يحمل في الجيب الصغير للجاكيت مشطا صغيراً لتصفييف شعره. هو نوع غريب من الرجال، يكاد يقلد المرأة في حركة لا يتتبه إليها. فلو وجد سطحاً عاكساً كزجاج أو مرآة، تراه يبطئ أو يتوقف، يعدل من كرافته ويلتوى بجسمه يميناً ويساراً وينظر لشكل شعره وترتفع كفاه معاً للطبعية على شعره ولتسوية أطراف هندامه. وحين يريد أن يوحى لمحديثه أنه يصغي باهتمام يهز رأسه صاعداً هابطاً ويزاح في مد ابتسامته، فتبعد إيماءاته غير مناسبة. تصرفاته تبدو مظهريّة غير عفوية، كأنه يقوم كل الوقت بدور في أحد الأفلام. المثير للاستغراب هو غياب أي توافق مظاهري أو ذهني بينه وبين ياسين، فهو نقىض له على طول الخط، ومع ذلك فهو صديقه منذ فترة ليست بالقصيرة. يظهران في الآونة الأخيرة معاً في كل مكان ويتردد على زيارة ياسين في البيت كثيراً. حارت في إيجاد أو هن خطيط يمكن أن يربطهما معاً؛ فلم تجد، ولعل مقوله: "الأصداد تتجاذب" أراحتها نسبياً.

الغريب أن ياسين كان وما زال يشق فيه كثيراً، يأتي به للبيت، يتحادثان في أمور تافهة لم يكن يتحدث فيها من قبل. فحديث الاقتصاد ينحصر في الحديث عن الأسعار وارتفاعها. الحديث السياسي يدور عن أناقة الرئيس وأنه اختير ضمن أفضل عشرة رؤساء يتمتعون بالأناقة حول العالم. الحديث العلم يتحول إلى نوعية الأعمال التي تدر أعلى الدخول. ثم أولاً وأخيراً، أحاديث الرياضة السفسطائية التي أصبح ياسين يوليهما فجأة اهتماماً

ملحوظاً وغريباً، وكان فاروق ضليعاً في هذا المضمار، يدرِّي أنَّ هذا ملعنة الذي لا يجاريَه فيه أحد.

في بداية الأمر كانت ليلي تسخر بصمت من فاروق، الذي كان يتودد إليها بتهذيب، مع الوقت شدَّها الفضول لشخصيته العجيبة وطريقه المبالغ فيها في التأدب وخصوصاً في تعامله معها، فبدأت تنصت له. الأعجب أنَّ ياسين لم يمانع في وجوده؛ بِثُ بينهما وهذا لم يكن يقبل حدوثه مع آخرين. كان فاروق يستمع إليها ويوافقها على كثير من الآراء، حقاً هي لا ت يريد شخصاً يوافقها بمحاملة أو رباء، لكنه أفضل من أن يعارضها في كل شيء، كما فوجئت بأنه مستمع جيد ولا يقاطع، وكان هذا وحده كفيلاً بأنْ يُبعد عن ذهنها فكرة سماحته، وتتواصل معه في أحاديث متفرعة غير عميقة لكنها على الأقل مسلية. فاروق كان قد بدأ الدراسة مع ياسين وتقهقر ياسين بكسله ورسوبه المتكرر، لكنهما كانا يلتقيان من وقت لآخر داخل الجامعة أو خارجها، ثم عمل فاروق فور تخرجه في أحد البنوك الأجنبية بمرب لا بأس به ومميزات إضافية منها إجازة سنوية طويلة.

بدون مقدمات فاتحها ياسين قائلاً بلهجـة حاسمة:

"فاروق تقدم خطبتك!"

كأنه لا يتنتظر موافقتها، بوغـت ليلي فاحتـجـتـ. هي تعرف أنَّ موافقة الأهل كانت ضمنية، لكنها بعد عدة أيام لم يعد لا تحتاجـاجـها سبـبـ، فهي لا ترى في شخصية فاروق أي مانع ولا أي سلبيات يمكنـها الاستـعـانـة بـسرـدـها كمسـوـغـاتـ رفضـ ولو مبدـئـيةـ. صـديـقـاتـها يـحـسـدـنـها عـلـىـ العـرـيـسـ "الـلـقطـةـ"

الأنيق. فاروق نفسه كان ودوداً يبذل جهداً صادقاً للتقارب إليها، حتى وإن بدا لها في بعض الأحيان شخصية كرتونية تحسد حزب المحافظين. ثمة خيارات بائسات دوماً في مثل حالتها، والحكمة أن تميل إلى الخيار الأقل بؤساً. هكذا حدثت نفسها، على الرغم من إيمانها أن فاروق ليس بؤساً كاملاً إذا سارت حياتهما بهدوء واحترام، فاختلاف طباعهما قد ينعش أماكن خفية فيها، وبواسطته يمكن تقبل بعض الملل والتحابيل على الرتابة، وهي دوماً لم تعيش ما تريده بل كانت في النهاية تقبل بالبديل المنطقى لما تريده وتميل إليه، خاصةً أن تصرفاته في ذاك الحين لم تتش بأى حياد، بل كان يقف إلى جوارها بطريقة تشعرها بأنها في النهاية على حق، وأن تصرفها مقبول، في الوقت الذي كان الجميع يرى في تصرفاتها تهوراً مستتراً، وأن في شخصيتها مشروع نزق. ربما ظهرت في هذا التوقيت خدمتها على غير توقع، فقد ظهر وقت أن كان ياسين يت弟兄 من حياتها تماماً، وهي ولسيب ربما متصل بطبيعتها الأنثوية الكاملة، لا تتحمل حياتها بدون رجل؛ رجل يجب أن يحل محل ياسين؛ رجل تقبل به الأسرة وترى وجوده مشروعًا، مadam شركاء قصص حبها غير مشروعين. وعندما تسألي عن سبب قبول ياسين له بهذه السرعة، على الرغم من اختلافهما الكلى، رجحت أنه ربما يريد أن ينتصر للرجل المخفق الذي في داخله مقابل الرجل المقبول في شخصية فاروق، ولم يجد غيرها لتكون الضحية.

حين تصفو ليلي لتنصت لصوتها الداخلي الصادق وتراجع سيرة

حياتها يتنازعها إحساسان: إحساس مطمئن من الخيال؛ عن حلم يراودها بلا هواة في العاشق الحبيب المنتظر الذي يغشاها بالجنون الذي توق إليه، يزورها في حلم يتكرر ليصبح فصلاً من الحياة، حلم بشخص قريب لكل حس فيها إلا قليلاً؛ محجوب الوجه حتى الآن، ويتنازعها إحساس مقلق من الواقع، تجاهد في أن تزيحه عنها، كابوس جاثم ت يريد أن تنزع نفسها منه بصحو لا يأتي مكتملاً، إحساس الواقع تعايش فيه مع فاروق بسلمية إجبارية يتوجه لفقير رهب الروح. تعيش الواقع بنصف حياة وترك وريقات الحلم تتسرب إليها في النصف الآخر. كانت ليلى واعية لا تسقط بين الإحساسين فتعيش مرحلة مس لا براء منها، حين فقد التمييز بين الواقع والحلم. وجدت الحل المؤقت في السلمية الإجبارية وتركت للأمل ببابا مواربا، ودعت روحاً تصلي للوصول إليه!

تسترجع ما آل إليه حال صديقاتها: سحر، نهلة، سيسيل، نسرين، مريم، سهام، جانيت، سلافة، شيرين. كلهن تزوجن دون قصة حب، ومنهن من كانت تحب قبل زواجهما، ولم تكن ليلى تصدق أن واحدة منهن يمكنها أن تتنازل عن ذاك الحبيب مهما كان، لكنهن تركن الحب أو تركهن الحب وتزوجن ويعشن حياتهن، صحيح أنها لا تعرف ما تمور به قلوبهن من لوعة في الوقت الحالي، لكن قارب الحياة يسير مع التيار ولا يعود. تلتقي بالبعض منهن نادراً أو تصلها أخبار عن بعض آخر. والحديث يدور في الحاضر فقط عن سيرة وإنجازات الأولاد والبنات، وأحوال الدراسة والأفراح والأتراح والأمراض، لكن شيئاً يمس حياتهن الشخصية وأمنياتهن الحقيقة من الماضي لا يبرز أبداً على السطح. لم تعد عيونهن

تلمع بهذا الحب القديم. حائرة ليلى في فك هذا اللغز: هل الحب بحر خداع مؤقت نعيشه مسيّرين ثم نخرج من الحب باختيارنا إلى بر أمان. كيف يصير البحر هو الاستثناء والشاطئ هو الأصل!

الزواج أمر حتمي وقدر لا بد واقع ولا مفر منه، لكن قلبها وحلماها لا يغلقان الباب تماماً. يصيص من الأمل يقودها لزاوية قلق مطمئنة. هكذا كانت تردد بهمس يشبه الابتهاج كلما احتضنتها الظلمة بين حنایاها. قبولها الزواج من فاروق ربما كان متوجلاً، لكن لم يكن هناك آخر تنتظره أو تؤجل نفسها من أجله. حالة تتكرر لنساء كثيرات بوعي أو بدون. لحظة في حياد الزمن تجعل القرارات الحاسمة تفقد معناها وتصير عادية ويصير أي ارتباط ممهوراً باختيار الجماعة لا الفرد، ولا عجب فالجماعة تحجز لعرس لتفريح فيه وترفع فيه وتزين الفرح فرحاً للعروسين بزمن استثنائي لاحتفاء واهتمام خارج الزمن، ربما لمرة واحدة في الحياة. مجرد تغير وضع للبعض وهو روب للبعض أو حتى تقليد للبعض. قلب ربما يسعد وقلب قد ينشطر. والحياة تسير بأفراح نصنعها ونعيشها أو نعيش فيها أو خارجها، لكنها تسير، من يقف فيها لا يوقف الحياة ولا يغيرها بل قد يتعرض لحبطات أكثر من كل مار!

معظم من يراجعون هذه المنطقة المحرجة يشعرون بقلق من الاسترسال في الغور في الذكرة أو اللجوء لمقارنات. من تصر على الاسترسال وتمضي في تخليلها وراجعتها، قد تنجو وتمكّن من الردم عليها للأبد وتقنع نفسها بحالة من التعايش السلمي، وقد تفشل باجترار وجع الذكرى مدى الحياة،

أو قد تلجمأ إلى حل ثالث بفتح كوة لأمل حين يأتي يجد مدخله.

ليلي عاشت بجذب طرفين من الثلاثة وهذا نادر الحدوث. فقد قررت أن تمنع فاروق نفسها فرصة التعايش السلمي وتبدأ صفحة جديدة مع الحياة، لكنها في آن لم تمنع الحلم من أن يراودها. لا تزيد للزمن أن يمر عليها وهي في حالة استלאب تام. صوتها الداخلي هو أنيس وحدتها، إذا ضجرت منه أحياناً ترفع صوت الراديو، ليوقف ولو قليلاً استرسال فكرها، ويجعلها قادرة على مشاركة الحياة في تيارها الهاذر.

انحرف ياسين في تيار يخصه، توالى الأحداث التي وقعت قبل سنوات، من إخفاقه في قصة حبه مع هيا، ثم حالة التخطيط بعد تخرجه واختيارة طوعية للعمل في مجال السياحة، قد تكون السبب الذي دفعه للشعور بأن هذا ليس ما يصبو إليه.

في إحدى الرحلات تعرف على ماريـانـه، قال وقتذاك إن أسطورته الشخصية بدأت في التحـقـقـ، هي نسـاويـةـ جـمـيلـةـ رـشـيقـةـ مـقـبـلـةـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ، أـتـتـ مـعـ وـالـدـيـهـاـ، وـهـيـ أـيـضـاـ وـحـيدـهـماـ. انـجـذـبـ إـلـيـهـاـ، وـتـوـدـدـ لـلـعـائـلـةـ مـنـ أـجـلـ عـيـنـيهـاـ، قـدـمـ لـهـمـ عـرـضاـ خـاصـاـ لـرـيـاـرـةـ أـمـكـنـةـ لـيـسـ فـيـ الـبـرـنـامـجـ. شـرـحـ بـثـقـةـ وـلـغـةـ سـلـيمـةـ وـاضـحـةـ. مـاـ أـدـهـشـ أـبـاهـاـ لـيـقـولـ لـهـ:

"لابد أنك عشت زمناً طويلاً في ألمانيا!"

"لا، لكنني أتقى زيارتها".

"لكنك تحيد اللغة كأهلها، لا أكاد أسمع نبرة مختلفة في لغتك!"

"درست في المدرسة الألمانية في القاهرة!"

انهارت ماريانته ياسين ولطفه ومعلوماته الغزيرة عن تاريخ مصر وثقافته العالية وتبادل العناوين، ثم تراسلا وتبادل الصور في وقت لاحق، وتطورت العلاقة لتصل إلى أن يتصل بها وتتصل به بصورة منتظمة، ثم قررت أن تأتي مرة أخرى لمصر مع والديها، وتفرغ ياسين للقيام معهم برحلات خاصة في أمكنة عديدة من مصر، وانتهى الأمر بأن دعا العائلة إلى البيت. ليتنهي المطاف بزواج ياسين من ماريانته ويسافر بعد انتهاء الإجراءات معهم. هكذا كانت الأمور معه: وهو في منتصف حلمه يدل بقيته فوراً إلى واقع ينفذه بإصرار وسهولة. ضاربا بتوسلات أبيه عرض الحائط، وبكاء أمه، حتى ليلى ثمنت آنذاك أن يبقى، على الرغم من صفحات تاريخه القابض معها.

ربما كل هذه الأحداث كانت قدراً مرتباً لها ليرسل ياسين لها الآن يدعوها للسفر إلى فيينا. السفر، الذي لسبب غامض لا يفصح عن نفسه، يدخل لها الكثير من المفاجآت.

ستسافر إذن، فاروق لم يمانع، حتى ولو جاء رده اللامبالي: "أنت حرّة!"

قامت من مكانها وتجولت في البيت، أدارت الراديو وبحثت عن أم كلثوم، كانت لحسن الحظ المقدمة الموسيقية لأغنيتها الأثيرة، "ألف ليلة

"ليلة"، التي ارتوى جسمها رقصاً على إيقاعاتها في السابق، وكيلاً يتهمها بالجنون إذا رقصت الآن، سارت بخطى إيقاعية هنا وهناك كفراشة، ترتب البيت وترفع حقيبة ابنتها المدرسية وما ألقاه ابناها من ملابس على الكراسي، ثم عرجت إلى غرفتي ابنتها وابنتها، ابتسمت في وجه كل منهما بلطف، قبل أن تدخل في حلم رهيف ينتظرها في غرفتها.

أجمل الأحلام هي التي تستدعينا لسمائها لتبهجنا بين نجومها دون أن ندري. الأحلام التي تقطر شهدًا في ليالي السأم. نحن لا قدرة لنا على استعادة الأحلام كأحلام وقتنا نشاء، تلك منحة عزيزة لا يهدى بها العمر لبشر، لكن أروع ما يمكن أن يسعد إنسانا هو أن يزوره حلم قديم فاتن، يُحيي وجدانه وشعوره دون أن يتوقع، ويعيده لمكان وزمان لا يتكرران، ويفتح له أبواب الفرح والتفاؤل بالقادم!

المرة الأولى في عمر آدم التي شم فيها رائحة في حلمه؛ رائحة راوغته أفتتها بتمنّع جذاب، وحين فتح عينيه وهو مُستلقٍ على ظهره مدد كالفرعون - وهي طريقة نومه المفضلة - جاهد لحظات في شد أطراف

الحلم برفق، فالألحام تفزع من القبض عليها بعنف، تفر كالعصافير المذعورة. حاول أن يعود متلصصاً لحلمه عبر المرآء الخافي بين أول الصحو وأخر النوم، وهو على يقين بأن تلك الرائحة سجلت نفسها منذ زمن سحيق في ذاكرة أنفه، ولو ركز قليلاً وصفى ذهنه لتوصيل إليها. لم يأبه بإيزيس المتحفزة وهي تصعد هضاب جسمه وتنزل، تهرّ بصوتها وتدور ضاربة ذيلها في وجهه برشاقة وإلحاح واضح ليفز من استلقائه الكسول. ظل مخدقاً في أرفف المكتبة المواجهة لسريره وفي نبتة "دارسينا" الخضراء - التي تتطلب الإضاءة الخافتة والتي تجاوزت بارتفاعها أعلى رف - دون أن يراهماحقيقة، فعيناه تبحثان داخل معطفات الذاكرة بارشاد أنفه عن شكل الأمكنة أو ملامح الأشخاص.

كانت ليلة صيف في أحد شهور أغسطس قبل ربع قرن تقريباً. مر النهار القائظ بطريق دون أن يصرف لحظة نسيم واحدة للخلق. في الليل استلقى آدم في غرفته على سريره العريض فاتحاً النافذة متمنياً مرور نسمة تلطف الجسم الواقع وتهيئه للنوم. ارتاح لغياب ضجيج الأصوات تدريجياً ولتسرب الحشائش الخجولة للصفصافة القرية من نافذته التي ساحت له للحلم. استسلم برضاء!

استيقظ في ذلك اليوم مغموماً بإحساس مخدر لذيد بأن جسمه قد تخلص من شحنة توتر لم يدرك مصدرها. صحا وهو مازال يحاول أن يلمم أطراف حلم نادر راوده. تلمّس برفق الدليل نحو الحلم مستعيداً ملامح الوجه الذي كان برفقته. صاح بصوت فرحان:

"يا الله.. ما أروع الأحلام! ما أجملك يا هند!"

كانت هند - التي يتولّه مشاهدتها في الأفلام وفي صور الصحف منذ أن بلغ الخامسة عشرة - هي هند رستم الدلوعة الجميلة، مارلين مونرو الشرق، لكنه لم يتخيل أن تأتيه في حلم متوجّل طويلاً كهذا. لم يصرّ بعد البداية فسحب قصاقيق الحلم بعجلة فجأته المشاهد متقطعة: وجه هند / شجرة / ضحكتها / سحابة / ساقها / رمانة / صدرها / مطر ساخن. عطى فقط استكفي نوماً ثم ركز تفكيره حتى استطاع أن يستعيد شريط الحلم من أوله. حلم بأنه يركض خلفها عند الغروب، وهي تهرب منه بعمومة مثيرة وتجلجل بضحكتها الرائقة المنفلتة. صعدت بخفة فوق شجرة رمان قرية. اقترب منها وسند لها حتى صعدت ولم يصعد، وقف يتأمل ثمار الشجرة التي ترتعج، وترتعج معها ثمار هند. ثبت مكانه ينظر بوجه لساقيها الشهيتين ويُطيل النظر للنعمومة التي تسحبه من كعيبها حتى مخابئ اللذة والفتنة الكاوية. استشاره المنظر الذي لا يرحم، فاستدار خجلاً لتمرد أطراف جسمه وخروجهما عن سيطرة مجده. صرخت هند فجأة، شيء ما أثار ذعرها فوق الرمانة، انزلقت نازلة ملهوفة، ليتلقفها قبل أن تسقط محظتنا ثمارها المنفلتة، وقد انغرست أطراف جسمه المتوتر في مخابئ ليونتها الدافئة المترجرحة، بينما فستانها القصير قد انسلخ من أثر السقوط وتعلقت أطرافه بين وسطيهما ولم ينزل. تدفق دمه الأبيض ساجياً خيطاً كثيفاً من دفء، ولذة من كل أطراfe. تذكر كلمتين فقط منها:

"آیا ها.. آیا"

كلمتان خرجتا منها وارتدىتا بشكل معكوس، كأنها تستعيدهما في شهيق وزفير مثير. كررها وراءها كالمجذوب، وحين استيقظ وهو يتمطى في استلذاذ بأواخر الحلم، أحس ببرودة في بنطلون البيجامة عند أسفل بطنه، لفت نظره وجود بقعة كبيرة واضحة على البنطلون الأزرق الصيفي الخفيف. كما لاحظ بقعة أخرى تتوسط السرير، أطراها جفت وصارت شفافة ومنتصفها مازال مبتلا. أصابه الارتكاك والخجل، شد الملاءة المنحسرة الخفيفة وكرمشها ثم غطى بها الجزء الأسفل من بطنه حتى ركبته، ثم قام كالملدوغ مسرعا للحمام قبل استيقاظ أهل البيت، غسل أسفل بطنه ودلك البقعة من على البنطلون بالماء. وعاد بطرف الفوطة المبللة إلى السرير ليمسح آثاره الفاضحة مع هند، كان يخشى دخول أخواته البنات عليه، فقد تعودن على التسرب إلى غرفته ومداعبته ليستيقظ وأحيانا تدخل أمه، أما أبوه فكان نادرا ما يدخل عليه في الصباحات المبكرة أو يوقظه، ولو فعل فإن آدم يقوم متزوجا ويعرف أن أمرا جللا قد حدث، كوفاة أحد الأقارب، أو مرض يستدعي إحضار الطبيب. أو تأخير نادر منه وغير مقصود في النوم.

لم يعبأ للمرة الأولى في حياته لمواء ايزيس الاحتجاجي، فهو مازال مستغرقا في ترميم حلمه في لهفة، متبعا إشارات أنفه في صبر. عاد يلملم الطرف الأول من الحلم بجهد مرهق. انشرح فجأة بارتياح غمره بشعور استثنائي بالوصول إلى جنة الحلم. صاح بذات الصوت الفرح:

"يا إلهي! هل هذا معقول؟!"

لقد تكرر حلم المراهقة القديم. هي مرة أخرى، يركض خلفها. تهرب بإثارة وتدلل. تفلت منها ضحكة صافية. تصعد بخفة فوق شجرة مانجو. يسندها لتصعد لامسا كفها، ساعدها، ذراعها، حوضها، فخذديها، ساقيها، قدميها، يقف تحتها يتأمل حبات المانجو وهي ترتج و كل ما يرتج معها. ينظر بشوق لساقيها المشدودتين. ينسحب نظره رغمما عنه لدهاليز اللذة ومنحنيات الحسن الساحر. يستثيره المنظر الذي لا يرحم، ويتغير وقع أنفاسه وتصارييس جسمه. تصرخ فجأة وتنزلق نازلة ملهوفة، ليتلققها بقوه في حضنه تفوح منها رائحة المانجو، فينغرس توتر جسمه في نعومتها الحريرية الدافئة المرتعشة، فيرتعش بالعدوى ويتدفق صهد أنفاسها وجسدها، ومعه يتدفق حليب دمه مدغدغا كل خلية في جسمه بلذة مخدرة تفوص في كل عصب من أطرافه. تنطق هذه المرة كلمة واحدة فقط فيها بعض من حروف الحلم القديم:

"آدم.. آآاه دمًا"

يصبح بصوت الدهشة:

"يا إلهي! هل هذا معقول؟ ليلي؟!"

لأول مرة يشم في حلمه رائحة؛ رائحة يكاد يعرفها. الآن يدرك ويفسر.

حلمه الأزلي الذي انتظره كل هذه السنوات يتجسد في ليلي؟ كيف حدث هذا؟ منذ متى؟ أين هذا المكان؟ داهمه فيضان أسئلة مركزه ليلي

وتدفقاته كل تاريخها القصير في زيارتها الأخيرة قبل عامين ونصف، وهو بين مصدق ومكذب؛ فرح ومندهش. شعور غامض غمره بإحساس لذذ بأن جسمه قد تخلص من شحنة توتر نائمة فيه منذ سنوات، شحنة تستعيد حيويتها بالشغف بالحياة، وعليه بعد أن وجده مفتاحه في الحلم أن يستعين به لفتح باب الواقع المنتظر!

إيزيس كانت تحوم بإصرار غاضب ليقوم، وهو يمسح على فروتها ليهدئها وينظر للبقع على السرير وعلى البيجامة - هذه المرة دون هلع - يتذكر بقع الحلم المتاثرة في ذهنه بابتهاج يتلاعده. قام من مكانه ودخل غرفته الخاصة التي لا يدخلها أحد غيره. ذهب إلى الإيشارب الأزرق المعلق على الحائط، خلعه من مكانه بهدوء وشم رائحته. إنها رائحة الحلم: إنها ليلي! هذه المرة اجتاحته حس جديد عميق، مربك ومريح. ضربات قلبه خففت بفوضى أجبرته على الإنصات لها، على تحري الصدق في هذا الحس الجديد. صحيح أنه فكر فيها مرات بشعور يغلفه الشتياق ورغبة خفية، لكنه كان يزيح هذا الإحساس برفق إلى مكان بعيد لا يعرفه؛ فهي في نظره امرأة متزوجة، رغم أنه يعرف تماماً أن الزواج ليس بالضرورة مساره الحب ومداره القلب، فالحب قدر والقلب قسمة ويستحيل التحكم فيهما. والقلب لا يتزوج، القلب يحب. القلب رباط القسمة والزواج رباط القسم. هناك ميل خفي إليها يكبح جماحه منذ وقت طويل، أثراها المعلق على الحائط ينبئه كلما دخل للحجرة إلى أنها معه، ثمة إشارات خفية ترسلها له.

دخل حجرته وابتهدل في صلاته الخاصة ناظراً إلى إيشارتها تاركاً قلبه يستدعيها وروحه تحضن روحها. شعر بارتياح. أشعل شمعة لطيفها الذي تجسّد أمّامه، وضعها في الركن وجلس مستقبلاً رائحة يعرفها جيداً، رائحة لم ينسها طوال عامين وثلاثة أشهر وأربعة أيام. دخلت إليه إيزيس وبirstت أمّامه كأنّها تخشع أمام حلمه أو تثبّته له. استلقى مرتاحاً على ظهره فوق السجادة العالية ساندا رأسه بكفيه كمن يمنع تسرب أي لحظة تمرّ به، كأنّها إن لم تبق في رأسه سيتلقفها على كفيه ليعيد قراءتها!

الرجل قد ينسى فضوله بتراكم الفضول مع الوقت، وقد يظهره دون قصد في الوقت الخطأ. المرأة لا تنسى فضولها، ربما تؤجل استفسارها، وقد تسأل بحيل غير مباشرة حتى تصل لمرادها.

لما لاحظت ليلي - في ذاك اليوم الذي لن تنساه - وجود وشم واضح على كتف آدم الأيمن مرسوم بخط جميل ويحمل كلمة "فیروز" خمّنت أن صاحبة هذا الاسم شخصية ذات وضع خاص مرت في حياته، حتى يشتمّها على جسمه بهذا الوضوح وفي هذا المكان. خنقت فضولها بذكاء الأنثى، فلم ترغب في ذاك اليوم في العودة من السموات التي سرت إليها معه، بسؤال يعيدها إلى الأرض، قامت بتصرف عجيب لم يتوقعه آدم الذي كان قدقرأ فضولها الخجول؛ قبلت موضع الوشم بمحبة كأنه اسمه هو أو اسمها، فقبلتها قبلته الندية الطرية البطيئة التي احرمت فيها شفاتها وارتعشتا طلباً للمزيد؛ فسررت معه مجدداً إلى النجوم!

اليوم مسحت بأناملها على الوشم ثم أعادت تقبيله، كأنها تطرح السؤال بشفتيها في صمت وحياة. استحسن آدم رقتها وحصافة فضولها، ولم يشأ أن يعذب انتظارها. بادرها:

"أعرف أنك ترغبين في معرفة حكاية هذا الوشم!"

هزمت رأسها ب أيامه تعني أن الأمر يعنيها، وفتحت عينيها على اتساعهما بما يعني أنها في انتظار المزيد من البوح، ولما لمست بكفها الدافئ موضع الوشم، سربت بفطنة حرقة شوقها في أن يشهد في الحكاية بأسرع ما يمكن، وقد فعل. قال:

"الحكاية طويلة يا ليلي، شيقة وشائكة وشاقة!"

استعادت ليلي على الفور جملة سمعتها منه مرة وأعجبتها كثيراً:

"أنا كُلّي أُذن!"

وهي تعني أن كل جسمها قد تحول إلى أذن كبيرة للإنصات. استنشق آدم خلاصة هواء ما يقرب من أربعة عقود لي رد رداً طويلاً في مشوار بعيد في الذاكرة:

"خياراتنا في الحياة متواضعة يا ليلي، الاختيارات الخامسة ليست بأيدينا؛ ليس لنا اختيار متى أو أين نولد، وغالباً ليس لنا اختيار متى أو أين نموت. بين المولد والموت تخبط في حياة منهكة فائضة بالمفاجآت، أجمل ما يمكننا أن نلقاه فيها ونحسّ بمحنته هو القلب الصادق المريض، فقط حين نحسن اختياره ويوفقاً القدر به!"

وحكايتها تبدأ من هنا؛ فبدون إلحاح أو توسل أو مشورة قررت أمي وحدها الانفراد بتسمية مولودها الجديد؛ المولود المنتظر بعد ثمانى عشرة سنة من انتظار صبور وحرمان جارح. كان أمي قد ولدت للمرة الأولى، وكأنى صرت لها فجأة البكر البنات الخمس اللاتي ولدن قبلى بسنوات بعيدة تراجعت قيمتهن فجأة في بورصة الذرية، وتقدمت أنا بأول صرخة في الحياة للمركز الأول في العائلة لأزيح وجودهن الأقدم بوجودي المختلف ومستقبلي الذّكريِّ القادر الباهر !

حكت لي أمي أنتى على عكس أخواتي كلهن، جئت للحياة نازلاً من رحمها بقدمي. وأن الداية جاهدت لتعديلني داخل الرحم لأنزل برأسى ككل ولادة صحيحة، لكنى أبيت. نزلت بقدمي بكل يسر وبدون تأخير، لم ينحضر رأسى في حوض أمي، كما هو معتاد في مثل هذه الولادات المتعرجة، ولم يتلف جبل المشيمة حول عنقى كما حدث مع أغلب المواليد النازلين بأقدامهم للحياة، بسملت الداية أم تهانى ونبست بيأت لتسكين الدهشة والجزع وإبعاد شر الحسد، وهي تراني أنزل ماسكاً جبل السرة بقبضتي اليسرى وهي يدي الأساسية التي استعملتها فيما بعد في حياتي. نزلت مكتوماً، لم أصرخ كعاده المواليد. مجرد انزلاقهم من رحم أمهاهاتهم؛ فاضطررت الداية لرفعي بيد واحدة لأعلى مثل أرنب، وشنقى من قدمي في الهواء، ثم ضربت على مؤخرتي بكفها حتى انطلق صوتي حاداً يضم الآذان. قالت فيما بعد لأمي وهي تبسم وتحمد الله على نجاتي، وتخشو كلامها بالدعوات التي تريج بالأم وتطيب خاطرها هي، قالت إنها المرة الأولى - في تاريخ توليدها المديد - التي ينزل فيها مولود بقدميه حيا. فقد

حدث معها ذلك نادراً، فقط أربع حالات، في عمر توليدها الذي قارب الأربعين عاماً، جرت فيها للحياة ما يقرب من ألفي ومائتي طفل، وفي كل المرات مات فيها المولود اختناق، ولم يكن متوفراً وقتذاك تلك الأدوات الطبية الحديثة الموجودة حالياً، وكان من المستحيل آنذاك إجراء عمليات قصيرة في البيوت. أمي أيضاً عاندت ورفضت أن أولد في أي مستوصف أو مستشفى بعيد عن هذا المكان الذي عاشت في طقوسه شهوراً طويلة، منذ علمها بالحمل والذي رتب نفسها أن آتي فيه إلى الدنيا.

توقف آدم قليلاً، لينظم استرسال الكلام واستدعاء صفحات الذاكرة؛ فهى المرة الأولى التي يتكلم فيها عن حياته ونشأته تفصيلاً. سُئل مراراً من نساء كثيرات عن معنى الوشم المبهم على كتفه، القليلات من استطعن قراءته سألن مباشرة وبغيره واضحة عن صاحبة الوشم، الوحيدة التي امتلكت حصافة الاستفسار بفضول متirth هي ليلى، وهي الجديرة - التي طالما انتظرها آدم - لسماعها حكاياته كما يجب أن تُروى. في نظرة عينيها كل الأسئلة التي يقرؤها. بادر لهفتها الصامتة:

"أجزل أبي العطاء للداية أم تهاني، التي شهقت من كرمه بشكل
توجست فيه بخطه، فبادرت تتأكد منه: إنت متأكد يا حاج؟
مش غلطان! دا مبلغ كبير، ربنا بيبارك فيك، ويهليهولك
ويسعدك بيه ويكرمك دنيا وآخرة! أكدر لها أبي أن هذا حقها
وحق الفرح الذي أنزلته الآن في هذا البيت وأن قدمها قدم سعد
 علينا. زغردت وقتها أم تهاني أحلى وأطول وأعلى زغرودة في

حياتها، فرحة بهذا المولود الذي منحها مبلغاً من المال لم تحصل عليه أبداً في عمر توليدها المدید، بل زاد عما رزقها به الآباء والأمهات في عام كامل. وقالت لها أمي: 'هديتك الخاصة مني أنا يوم السبع يا أم تهاني!'"

اقربت ليلي من آدم حتى شعر بصهدها الحامي يغلفه، تنهدت بفضول مضطرب، فارتفع صدرها ولم يسد صدره بحنو ورغبة في أن تكون متوحدة به. أناملها مازالت تمسد الوشم بحثاً عن 'فiroz' كان آدم يدرك حرقة الفضول وتوقيها لتفاصيل، قبلها بنداءة أحس فيها بسندس شفتتها واستطعم شهد طراوتهما، لكنه رغب في أن يستكمل حكاياته لها بلا فجوات:

"حكت لي أمي أنها اختللت مع أبي وعمتي كاميليا على أربعة أسماء تصلح للذكر والأثنى هي: 'نور' و'فرح' من اختيار أبي، و'بدر' و'شمس' من اختيار عمتي. قالت إن اختيار هذا الاسم الصالح للذكر والأثنى حمایة لي من شرور الحسد، وهو الذي سيحدد مصير حياتي، قال أبي: 'نسمى نور أو فرح'، في حين كانت عمتي تكرر: 'بدر أو شمس.. ليس هناك أفضل منهما!'، وبينما كان لغط اختيار اسم من بين الأسماء الأربعة يشوش على سكون الغرفة التي صرخت فيها صرخة نزولي للحياة، نزعوني أمي من صدرها الدافى ومن محاولات رضاعتي البدائية الواهنة، خلعت عني لفاطي، وهي مازالت مستلقية على ظهرها ثم رفعتي

لأعلى عارياً أرفف في الهواء برجليٍ وذراعيٍ في وهن وارتعاش،
رفعتي بيضاء من ظهري بكتفها نحو بورة ضوء المصباح الساطع،
الذي بدوره كأنني أوزع إشعاعاته على الغرفة ومن فيها.
كانت مستلقية على ظهرها. لم أبك بل كنت أنااغي بأصوات خافية
منغمة، ثم في حركة غريبة كانت ترفعني بامتداد ذراعيها، كأنها
تسلّم إلّا فرعونيا، وقالت بصوت واثق عميق وحاسم: 'فيروز..'
سوف أسميه فيروزا'"

كانت ليلي مستغرقة بكل حواسها، بل صارت كلها أذناً كما قالت.
لم تر غب في مقاطعته بأي استفسار لكيلا يتوقف أو ينحرف كلامه عن
هدف فضولها. صوته يهز كيانها دائماً، صوت خلق لها ليمتعها ويشجيعها
ويمارس سلطوته عليها كما تتمنى. سرى حديثه متناغماً شجياً، فحكى لها
دون توقف عن أيام بعيدة لم يتخيّل قربها من ذاكرته بهذا الألق وتلك
العنوية؛ حكى عن تفاصيل مولده كما سمعها من أمّه بدقة، ويبدو أنّ أمّه
هي الأخرى أحسّ بأن دورها الأهم هو منحه دفتر سيرة حياته متكملاً
في شفوية شفافة عما غاب عنه، ينقله في يوم ما لامتداداته في الحياة؛
حكى لليلى عن تلك الغرفة الصاجة بالحركة والكلام - وعن أخواته
الخمس اللاتي سمع لهن بالدخول في زعبوبة فرح لرؤيه المولود الجديد
وليسه وحمله وتقبيله - تلك الغرفة التي أصبحت كصورة فوتوغرافية أو
كمشاهد سينمائي ينتعش بالحياة وهو يسترجع الحكاية من صمت مخيلته
إلى شهوة الحديث.

في ذاك اليوم كان النطق باسم "فiroz" قد رسم شرخاً في وجه الأب بين ما رأى وما سمع؛ ظن أن الأمر قد التبس عليه حين رأى المولود ذكراً وحمله في لفته الأولى بتلك الفرحة النادرة، وأن كلام الدایة أم تهاني شابةً غلط سيهد عماره البهجة بولي العهد المنتظر! في حين شكلت كلمة: "فiroz" التي سمعها ببللة في كل شيء، كانت أشد وقعاً والخطبة للعمة سواء في الاستيعاب أو في التنفس أو في النطق. ركضت نحو المولود تعain عن قرب موضع الريبة واليقين على جسده العاري.

قالت له أمه إن أباه وعمته حاولاً أن يثنوها عن التشبت بهذا الاسم الغدار، لكنها أصرت بجرس أعلى وضوحاً:

'فiroz.. أسميه فiroz.. وسيبقى فiroz! أنا الأم.. وأنا الأحق
بسمية مولودي كما أشاء!'

أعادته لدفء حضنها وهي تبادر عمتة بتحدد، فسكتت العمة كاميلا حانقة وهي تنقل نظرتين منها: واحدة حادة لأمي، وواحدة مستعطفة ومحفزة لأنجحها ليتدخل ويزيل هذا الحرج بكلمة واحدة، يكسر بها شطط اختيار هذا الاسم، حتى لو سماه كما أراد هو: نور أو فرح، وليس كما ثمنت هي: بدر أو شمس، وستتنازل هي بكل سرور وارتياح. لكن الأم ثبتت عينيها في عيني الأب بتحدد وتجاهلت تماماً وجود وإيماءات وتشنجات العمة، وقبيل أن ينغمس الأب في حماس رجولي متوارث بدعم من تشجيع الأخت، ذكرت الأم بعهده القديم حين وعدها ذات يوم في ساعة رضا بتصریح واضح:

‘إن أنجينا ولدا ستسميته بنفسك بالاسم الذي يرضيك!’

قالت بصوت فيه تأنيب قادم:

‘لم تقل لي بلسانك إن تسمية المولود من حقي؟’

على غير توقع جاء حمل الأم، فلم تتبه لانقطاع الدورة الشهرية إلا بعد أسبوع طويلاً، وبقي الجنين كائناً مكتوناً فيها، لا تقب لها بطن ولا توجع ولا يصيبها دوار أو حتى قيءٌ حادٌ. لكن الأمر العجيب أنها في وحمها تاقت نفسها لطلب نادر ومستحيل؛ طلبت رطباً. ولم تثنها كافة الحيل عن جلب أي فاكهة من فواكه الموسم تعويضاً عن تلك الرغبة الغريبة، لم تقبل بديلاً، حاول جده لأمه توضيح استحالة تنفيذ هذه الرغبة العسيرة، لكن بلا جدوى، تبعه المقربون من العائلة، قدموا لها أنواعاً من التمور ولكنها أصرت على الرطب. قالت له وهي تضحك ضاحكتها المميزة:

‘لكنك أنت الذي أصررت على الرطب يا فيروز، أنت السبب!’

كان الكل مصدقاً ومقطعاً بأن الحامل التي تتوحم على مرغوب ولا يُلئي طلبها، يتوصّم شكل المرغوب على بشرة الطفل في أي مكان بعلامة واضحة لشكل ما حُرمت منه: عنقود عنق، برقة، فراشة، سمكة، ريشة، حبة كمثرى أو أي ثمرة أو أي شيء كان، وأسوأ الأحوال هو أن يظهر هذا الوشم جلياً في صفحة الوجه أو اليد أو في مكان ظاهر من الجسد والأصعب لو كان لأنثى، لذا بدأ البحث والاستقصاء عن إمكانية

الحصول على بلح أو رطب في هذا الوقت من العام من أي مكان في العالم، وكيفية إحضاره بالسرعة المناسبة قبل أن يفسد. قيل وقتها إن هناك منطقة واحدة في السودان، عند منحنى من منحنيات النيل يلتوي فيها النيل شرقاً لبضعة أميال، قبل أن يرتد صاعداً للشمال، بالقرب من منطقة تُسمى 'مروي'، وهي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يوجد فيها رطب في هذا التوقيت. يقال إنها البقعة التي عُثر فيها على النبي موسى طفلاً في قاربه الصغير. وتذكر الرواية أن أمه وضعت في رصغه سواراً عليه رسم لأسد ونخلتين، كتميمة تحفظه وتبين أنه ابن مجيد لعائلة مجيدة، وأن هذا السوار انسلت منه عند هذه الضفة حين رُفع إليها للمرة الأولى قبل أن يعاد للنيل، ولم يُعثر عليه فيما بعد، وبعدها بأيام قليلة نبت شتلات النخيل الأولى في هذه المنطقة، وبعدها بسنوات طرحت نخلة 'توم'، أولى؛ وهي نخلة بجذعين وجذر واحد، طرحت أشهى ثمور عرفوها، سموها تمر 'موسي'، أو تمر 'العوام'، نسبة للطفل العائم الذي أتى عبر النيل، والغريب أنها كانت تطرح في توقيت عكسي لكل نخلات البلاد؛ في موسم الشتاء. يقال إن هذه النخلات غمرت هذه المنطقة بخير واسع وأن الحوامل والمرضعات والنفسواطات كن يأكلن منها لفضلها المعروف في استعادة عافيتها سريعاً، بل حتى من أرادت أن تتزوج كانت تأكل سبع مرات وتشرب بعدها ماء من بئر قرية، وتفاعل بعرسها الذي سيأتي بعد ثلاثة أيام أو أسابيع أو أشهر أو أعوام. وكان هناك أقدم مقام أقيم في هذه البلاد بين النخلات اسمه 'مقام شيخ توما'، يزورونه لجلب البركة؛ إلى أن جاء حاكم أرعن في أحد الأيام الكارثية بجيش ودببات وذخيرة بحثاً

عن متمردين وهميين، فدمر المقام وحياة المكان وحرق كل التخلات، لسبعين كلامها أغبى من الآخر وينبهان عن جهل وطيش بالغ للحاكم وزمرته: سبب لا يخرج إلا من رأس مخضب بالعسكرية الحمقاء، يتحجج بأن التخليل يخفى المتمردين، ومنذ متى تخفى رشاقة النخل بشرًا! والحججة الثانية مخضبة بها جس ديني متطرف يدعى أنها ضد مشيئة الله على حد زعمهم، فهي فال شر لأن التخلات تطرح في عكس موسمها، وهذا يعني أنها نذير شؤم في ظنهم. ويؤكد آخرون أن هناك سبباً آخر خفياً أدى إلى تدمير تلك المنطقة، وهو رفض شيخ القبيلة ذي البأس والصيت تزويع ابنته الفتنة لهذا الحاكم الأهوج الذي ثُيِّمَ بحملها وأراد أن يردها لبقية حريمها في قصر الجزيرة. يقال إنه تبقى عدد نادر من هذه التخلات سراً في بيوت بعض الناس وبعض المتصوفين، لا يوح أصحابها بوجودها خشية التشكيل بنخلاتهم قبل التشكيل بهم. كان اقتناه هذه التخلات بمثابة عبادة مخالفة ودين جديد!

أرسلت جدة آدم "أبو ميسوطة الجنائني"، لأقارب لها في شندي في السودان ورصدت له المال الكافي ليأتي بالبلح الذي سيتحول رطباً في مسافة الطريق وذكرت له طريقة حفظه في "الرَّدَّة"^(١)، حتى يصل به إلى مصر، استأننته لمهمتها واختارت له أنها تعرف قدرته الفائقة وذكاءه الزراعي الفطري الذي يتمتع به في جنائن ومزارع العائلة.

* * *

(١) "الرَّدَّة" أو الشوفان وهي نخالة قشرة القمح.

قبل مولد آدم بساعات، كانت أمه قلقة تشعر من رفاته الناعمة المتزايدة برغبته في ولوح الحياة. أيقنت أنها علامات المخاض التي خبرتها من قبل، استغربت أنها لم تشعر بشيء طوال مدة الحمل ليتغير حالها هكذا فجأة. صارت تتكئ على جانبيها، مرة يميناً لدقائقه ومرة يساراً لأقل من دقيقة. توقف ثم تجلس وتجلس ثم تقف، تمشي وتدور حول نفسها كأنها مسيرة في طقوس لا إرادة لها فيها، أو كأنها ترسم بخطواتها علامات على الأرض، تنطق جملًا غير مكتملة أو مبهمة، يعلو صوتها ويختفي في الجملة نفسها، وتنتابها حالات من السرحان المفاجئ والسرور المؤقت بعرق جسمها فجأة. تضحك لتتوقف ضحكتها فتسوّق ألمًا لا يأتي. كانت علامات الوضع تحرّف عن الواقع المعتمد، يغلّفها إحساس مرير يقرب تحقق الأمينة القديمة التي لا تبارحها، الأمينة التي تجتاحتها منذ ستة عشر عاماً. صارت تتقلب كل دقيقة، بالتعود وليس بالوجع، على مصطبة البيت العريضة في حوش البيت، المصطبة العالية المجهزة بسجاجيد وثيرة ومخذات وطنافس، مصطبة نصفها مغطى بشرفة علوية عريضة من الأرابيسك تتسلقها من جانب تكعيبة عنب ومن الجانب الآخر شجرة ليف وتلتقيان في المنتصف. النصف الآخر من المصطبة مفتوح على الهواءطلق؟ على السماء.

* * *

حين مسد آدم بيده على بطنه بتلقائية، أحسست ليلى برغبته في الطعام، لكن شوقها لسماع الحكاية غليها. تداركت بسرعة:

"سأجهز لك بيدي طعاماً لذينما، بشرط أن تكمل لي الحكاية!"

دخلت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة فوجدت فيها أكثر مما توقعت. باذنجان وفلفل رومي وطماطم ولحم مفروم. ضحكت ليلي بفرح وهي ترى ذلك، قال لها:

"ستضحكين أكثر لو علمت أنتي اشتريت هذه الخضروات ثلاث مرات على مدى أكثر من ثلاثة شهور، حتى فسدت، انتظاراً لوجة مسقعة من يديك!"

"حيبي يا آدم!"

قالتها بصوت خافت جداً وبعمق هزها.

قام آدم يساعدها. وقف إلى جوارها متلتصقاً بجانبها. في ذاك اليوم فهمت للمرة الأولى في عمرها معنى فتنة التلامس الحميم بين امرأة ناضجة ورجل يشع رجولة أيّنما وقف. إشارة الطفولة أكملت معناها في آدم في تلك اللحظة. شعرت بلذة مثل مس كهربى خافت يدغدغ جسمها فاستسلمت له وجعلها تختك به كقطة متتمعنة. للمرة الأولى في عمرها يقف رجل معها في المطبخ، بل ويساعدها. لم تسعده في عمرها في وقتها في المطبخ مثل سعادتها في ذاك اليوم الذي طبخت فيه آدم مغمورة ببهجة الدنيا وسطوة محبته الصامتة، وأدركت أن الحب لا يكتمل إلا بإعداد المرأة طعاماً لمن تحب، وتأملها له وهي تعده بامتنان صامت، برغبة مجهلة، تخفي فيها إحساس حواء الأولى، زمن الكهوف البدائية. اقترب من خلفها وهي منهماكة في التحضير، مستغرقة في أفكارها، وبأصابعه رفع في

خفة شعرها الغجري العاطر برائحة الطبيعة، طبع على عنقها قبلة دافئة كبسولة طويلة كادت تنهار فيها على الأرض، مالت برفق بظهرها نحوه مستندة على يده اليسرى بينما نزلت يده اليمنى حتى وسطها لتصلب عود وقوفها. قام بأفعال كثيرة في وقت قصير خلبت لهاها. أسد ذقنه على كتفها وصار صدره متتصقاً بظهرها، وكلما تكلم رج الكلام الخارج من صدره كل كيانها، وكلما التفت نحوه لامس خدتها خده. أرادت أن تهرب منه إليه. دارت في مكانها لتواجهه، رفع كفيها وقبلت أناملها برغبة وصدق؛ مص سباتها ليذوق طعم الصلصة مطيلاً ز من المص وهو ينظر إلى عينيها. مسح دموعها بكفيه من أثر تحرير البصل. استغل إغماض عينيها ليرضع كل وجهها وعنقها بقبلات متلهفة؛ ولأنه طباخ ماهر ويعرف خطوات تحضير الطعام بحرفية، كان يفاجئها في الوقت الصحيح بإحضار ما أو وعاء أو سكين أو تجهيز توابل، يلمسها عمداً كلما اقترب: على يدها، ساعدها، كتفها، صدرها، حوضها، ردها. يشم أنفاسها بعمق فتحمر وجنتها، يتسم لها وهو يوزع خصلات شعرها بع بشية وفوضى تزيدها ألقاً. ينظر في عمق عينيها بشغف، فتعلق عينيها على الشوق وتمدد أسارير وجهها، ويختنق قلبها بدبيب واضح إلى صدره. رجل بارع يعرف فن وطقوس وعشق المداعبة. لم يمهلها راحة من سطوة افتاته بها في أي مكان: في الصالة كان يداعبها، في الشرفة كان يتأملها، في البانيو كان يت shamها، في غرفة النوم كان يتوله فيها ويروح معها لجنات النعيم، وفي المطبخ كان يتذوقها بالفعل كأطعم وجدة يحبها، يستطيعها بزاج عال بشكل يدهشها، تمنت في هذا اليوم أن تبقى معه طوال عمرها!

بنظرة من عينيها فهم آدم وعده باستكمال ما يثير شغفها: سيرة حياته. بدأ الحكاية التالية من عند جده. كان جد آدم ميسرة ود المبروك العطار المعروف باسم 'العطار'، قد بدأ في أوائل القرن الماضي في تجارة راجت في ذاك الوقت؛ تجارة العطور. وأصحاب بخاخا سريعاً بسبب موهبته في تركيبات العطور النادرة الغالية، استطاع بجودة صناعته ومهارته أن يكون له صيت عبر الآفاق، خصوصاً في مصر. جاب كثيراً من البلدان: من بلاد الحبشة واليمن وعمان وزنجبار حتى الهند ومن مالي والجزائر وموريتانيا حتى المغرب. تزوج بضع مرات وطلق مرات رغم أنه لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، ولم يكن له أولاد في زيجاته المتعددة إلا من هادبة بنت صالح العمدة التي أنجبت له بنتين جميلتين وذكراً.

في رحلة تجارة له إلى مصر وكان يقطعها على ظهور الإبل من أواسط السودان إلى مصر. كان قد اقترب من المنيا سائراً في محاذاة النيل. سمع صوتاً حاداً يأتي عبر الريح الضعيفة طالباً النجدة. توقف يومها بقافلته الصغيرة يتلفت نحو مصدر الصوت، فلمح في النيل هيكلًا بعيداً يخطب في الماء ويدور في دوائر. نزل عن ناقته وخلع جلبابه، فلَكَ عمته من على رأسه ولفها على جذعه، ليسحب بها هذا المشارف على الغرق ثم رمى بنفسه في النهر. سبع حتى وصل للغلام الذي يبح صوته من طلب النجدة. كان الغلام هالكا في إحياء التثبت بالحياة، فلَكَ العطار العمامة من على بعد مترين ورمها له. أخفق مرة في مسکها وأمسکها في المرة الثانية. جره بصعوبة إلى أن اقترب منه، ومن هلعه تعلق بعنقه حتى كاد أن يختنقه. وصلاً منهكين للضفة وارتدى العطار على ظهره، بينما الغلام قد التأم

جالسا خجولا مبتلا ضاما ركبتيه إلى صدره. حين اقترب معاونو العطار رأوا مشهدا عجيا لم يتبه له العطار حتى ذاك الوقت. لما رآهم يحلقون في الغلام الذي أنقذه، نظر نحوه ثم انتفض جالسا:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. أَنْتَ إِنْسَنٌ وَلَا جَنٌ؟"

الغلام كان ذات شعر طويل، وببل الجلباب القصير الضيق شف عن ثديين واضحين وجسم أنتوي مستدير وساقين بضئين لامعتين. لم يتبه العطار في انهماك إنقاذه لجنس المخلوق الذي يسحبه متخيلا أنه صبي. على الصفة صار الغلام فتاة في ربع العمر في منتهى الحسن متوردة الخدين من خجل ورعب، وارتجافاتها الحقيقة ترعش شفتها السفلية المكتنزة لظهور صفا منتظمما لوليا من الأسنان. الببل جعلها أكثر أنوثة وإثارة، فأمر أحد أعنانه بالإسراع بإحضار جلباب من جلابيبه وغطاء لها وصرف الباقين ليبعدوا. ثم سألها:

"ما اسمك؟"

"قمرا!"

"بنت من؟"

"بنت بحر النيل الأسيوطى!"

"بحر النيل.. بحر النيل.. هذا اسم غير مألوف هنا.. هل أبوك سوداني؟"

"لا، أبي مصرى.. تاجر غلال معروف.

"كم عمرك يا قمر؟"

"خمس عشرة سنة.

"وما الذي رمى بك في النيل هكذا؟"

صمتت لحظة كأنها ستبكي، لكنها ضحكت ضحكة خافتة، صار يتأملها وهي آية جمال منحوته على الضفة مثل عروس نيل بحق. جسدها ملفوف لا يبين هذا العمر الصغير، حديثها واثق رغم خجلها ورجفتها وخوفها من الآتي. ردت بشقة، فتنته لهجتها المميزة، قبل أن يكرر سؤاله، ردت:

"أنا أحب النيل وأعشق السباحة، وأبي معنني من التزول للماء بعد سن السابعة، فكنت أهرب في طريق العودة من بيت خالي القريب، أذهب لهذا المكان المنعزل. أخلع ملابسي وأدسهها خلف شجيرات الجميز وتحتها ألبس دائمًا جلباباً قصيراً وسروراً لا يعيقني في السباحة، وأنزل خلسة. أصبح قليلاً في خفاء مجموعة شجرات الكافور الكثيفة، فلا يرايني أحد ثم أعود."

"وأين تعلمت السباحة؟"

"في النيل.. أمري تجيد السباحة وقد علمتني خفية، خوفاً عليّ من الغرق، بعد أن ماتت خالي في النيل وهي صبية.

"لكن كيف يحدث لك ما حدث وأنت تجيدين السباحة؟"

"كُتْ قَدْ نَزَلَتْ إِلَى الْمَاءِ، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ رَائِقًا وَهَادِئًا وَكَانَ الْمَاءُ دَافِئًا كُلَّ مَرَةٍ، سَبَحْتُ كَثِيرًا وَاسْتَمْتَعْتُ بِخُفْسِي عَلَى الْمَاءِ، فَجَأَةً رَأَيْتُ جَذْعَ شَجَرَةٍ ضَخْمًا طَافِيَا يَسْتَدِيرُ فِي دَوَائِرٍ سَرِيعَةٍ كَالْمَرْوَحَةِ وَيَتَجَهُ نَحْوِي، تَفَادِيَتُهُ بِالْغَطْسِ، وَلَمَّا طَفَوْتُ مَجْدَدًا شَعَرْتُ بِشَيْءٍ يَسْبِحُنِي فِي دَائِرَةٍ وَاسِعَةٍ، فِي الْبَدَائِيَّةِ بَدَا مُثِيرًا لِي وَبَطِيَّا، فَجَأَةً تَسَارَعَتِ الْلُّفَاتُ وَصَارَتْ أَضِيقَّ.

"يَدُوِّ أَنْهَا كَانَتْ دَوَامَةً!"

"نعم، بِالْفَعْلِ جَذَبْتِي دَوَامَةً دُونَ أَنْ أَنْتَهِي. وَجَاهَتِي لِأَسْبِحَ ضَدَّ اِتْجَاهِهَا حَتَّى لَا تَسْبِحَنِي لِلْقَاعِ، لَكِنِي اسْتَزَرْتُ قَوَاعِي دُونَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْهَا. وَأَحْسَنْتُ بِالْعَصْفِ وَالْخَطْرِ وَفِقدَانِ السِّيَطَرَةِ فَبَدَأْتُ أَصْرَخُ، حَتَّى أَنْقَذْتِي أَنْتَ! أَشَكْرُكَ لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي. لَكِنْ هَلْ يَعْلَمُ أَنْ أَعْرِفَ مِنْ أَنْتَ؟ وَمِنْ أَينْ أَتَيْتُمْ؟ وَإِلَى أَينْ تَذَهَّبُونَ؟ لَا تَبْدُو أَنْتَ وَلَا جَمَاعَتُكَ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ؟"

"أَنَا مِيسَرَةُ وَدِ الْمُبْرُوكِ الْعَطَارِ، تَاجِرُ عَطُورِ مِنْ السُّودَانِ!"

كان ميسرة العطار قد نقلها للضفة الأخرى محمل وقوف قافلته، حيث كانت الناحية الأقرب لإإنقاذ قمر، بينما الضفة الأخرى مكان نزولها قد احتشدت بجمهور صغير، جهزوا من هناك قاربا للانتقال نحو القافلة. رأى ميسرة العطار وجهها مخطوفا وأدرك ما يمكن أن يحدث لها مع أبيها.طمأنها ألا تخشى شيئا وأنه سيكون معها. اختفى للحظات غير فيها جلباهه باخر وعاد.

لرائحة الجلباب الذي كانت تلبسه قمر عطر لا يمكن أن ينسى. سيصنع العطار فيما بعد عطراً خلاباً سيسميه 'عطر عروس النيل'، بعد أن يضيف إليه توليفة من شجر الجميز وقصب السكر الموجود في هذا المكان، وسيهديها يوم زواجهما عطراً جديداً نادراً سيسميه 'قمر النيل'.

لما نزل القادمون من القارب. رأى العطار الغم الذي غمر وجهها. توجه نحوهم في جلبابه الناصع وعمته البيضاء. وقف وفته الشاحنة في كبراء وعرفهم بنفسه:

"أنا الناجر ميسرة ود المروك العطار من السودان، وهذه بنت بحر الدين محمد الأسيوطى. سحبناها من دوامة في اليل وأنقذناها؟"

قالها بحصافة في صيغة الجمع. استغرب الناس وقمر أيضاً من إضافة اسم محمد الذي سيكون موجوداً بالتأكيد ضمن أي اسم. قالوا:

"نعم. هل تعرفه؟"

"أود أن أذهب معكم إليه.

لم يرد بأنه يعرفه، ارتبك الناس من ثقته وكلامه الواضح. ثم نادوا على الواقفين على الضفة الأخرى لإحضار قارب آخر. أمر اثنين من معاونيه أن يحملوا حمل ناقة من العطور والهدايا وينتقلوا بالقارب القادم معه. ركبوا في قاربين وحرص هو على أن يجعل قمر خلفه.

لم تقاطع ليلي حديث آدم. كانت تستمع كطفل يستمتع بحكاية سحرية. جهزت الطعام بخفة وسرعة كأنها في مطبخها الذي تعرفه، أزاحت كل شيء داخل الفرن وجهزت أرزًا على نار بطيئة وتفرغت لصنع سلطة بلدي. كل شيء كانت تنجذه كساحرة بعشر أياد وفي سرعة عجيبة. يتبع تعجلها ويعرف أن دافعها هو لهفتها للإنصات. قالت له:

"سيحتاج الأرز لنصف ساعة وما في الفرن لأربعين دقيقة حتى

"يجهز كل شيء"

"إذن لنجلس في الشرفة، ماذا تشربين؟"

"أريد من هذا العصير الذي تذوقته أمس!"

"عصير التفاح الطبيعي من مدينة كريمس على الدانوب؟"

"نعم.. لو سمحت!"

أحضر آدم زجاجة عصير تفاح طبيعي، شاركها وصب لنفسه كوباً خفيفه بالماء لنفسه وصب لليلى دون تخفيف. وضع لها الكوب على المائدة الصغيرة وقبلها في رأسها وجلس مواجهها لها.

"ثم ماذا حدث؟"

"الحكاية طويلة يا ليلي، إنها حكاية عمري، سأحكيها لك على دفعات. الوقت أماننا، ولكنني سأتم لك حكاية الجد العطار.

حكى لها آدم في ذاك اليوم كيف رافق الجد العطار الناس إلى بيت

أبي قمر وأن الرجل أحسن استقباله. وأكرمه بعد سماع القصة، وكان بحر النيل الأسيوطى أبو قمر رجلاً فطيناً ذا هيبة وبأس، ويتمتع برجاحة عقل واتزان في شدة وحلم. يحب بناته جميعاً وقمر هي آخر العنقوذ يخصها بمحبة خاصة يقول إنها تشبه أمه، فكيف يوبأ أو يقسّ على من تشبه أمه! استمع بحر النيل للحكاية من العطار في مندرة الضيوف، بينما كانت قمر تحكي لأمها وأخواتها ما حدث في الغرفة الخلفية؛ فخشيت الأم غضب الأب من تعليمها سبب السباحة دون مشورته. كان العطار أيضاً يفهم في الأصول ويعرف كيف يجلس في المجالس مرفوع الهامة طيب الحديث. لا يفاخر بأصله ونسبة دون داع، بل يصدر عمله أولاً ثم يتفرع لأصله وفصله حين يكون السؤال مطروحاً وباختصار. يتبع الناس لأصله دون عمد منه فيزيده ما أحوجه من حديث احتراماً أكبر. فاجأ العطار بحر النيل بعد حديث طويل عن عمل كل منهما بسؤال مفاجئ:

"أبي أطلب منك يد ابنتك قمر. أعرف أن الأمر يهدو متجللاً وعجبياً ومفاجئاً، لكنني أطلبها على سنة الله ورسوله، ومهرها كما تحددونه، وبيتها الذي سيكون لها تختاره هي. وأريد أن أكتب كتابي عليها قبل أن أرحل إلى أعمال لي في الإسكندرية تستغرق ستة أسابيع. سأبقى مع رجالى في بيت الضيافة عند نزلة الشرف، لو وافقت سأكتب عليها وحين أعود لها القرار أن تلحق بي وستكون في بيت عز أينما حلت، أو لبق في بيتك إن أصرت، لكها ليست سنة الزواج!"

بougت بحر النيل بهذا الطلب، فكُر في هذا القدر العجيب، لقد كاد يفقد ابنته بالفعل، وقد تكون ب فعلتها هذه مثار كلام جارح طوال عمرها، وما يفعله العطار ابن الأصول هذا لهو من المروءة والصدق والشهامة، حتى أن بحر النيل لم يستطع أن يرفض الطلب، وإن كان من داخله متوراً وغير قادر على اتخاذ قرار سريع. بحر النيل لديه خمس بنات وليس لديه ولد، وهذا هو سبب زواجه الثاني. لكن معden العطار الطيب يوحى إليه بأن الموافقة أقرب من الرفض. قال الأب إنه فوجئ بالطلب، ومن حق قمر أن تقول رأيها. سألها فصمتت مستغربة لهذا الطلب السريع. ارتاح الأب لكن قبل أن يغادر الغرفة قالت له:

"هل تسمح لي يا أبي أن أجلس معه في وجودك، لدُّي بعض الاستفسارات؟"

"تعرفين أنتي لا أرفض لك أي طلب!"

خرجت قمر في أجمل حلة، بملابس جميلة لا تكشف إلا يديها ووجهها، لونها مازال مخطوطاً. جلست في جرأة واحترام وسألته بصوت واضح خجول:

"لماذا طلبت يدي يا سيد العطار وأنت لا تعرف عني شيئاً؟"

"أنت ابنة رجل معروف وذي أصل وربّاك تربية صالحة، وأنا لن أطلب يد من لا أصل لها ولا فصل، رأيت فيك عزة نفس وجرأة وأصالحة أحبيتها. ليس من حقي أن أرغملك ولا سلطان

لي على ذلك، ولن أذل ابنة من بيت عز وأنا قادر أن أوفر لك
استمرار عزك أينما تجدين، ولست أطلبك بدني إنقاذه؛ فهذه
خسفة ليست من شيمتي. الله هو المنقد، وكنت أنا مجرد يد الله لك
على الأرض!"

كان أبوها يتنقل بين عينيها وبين كلام العطار، يستشف من كلامه
صدقًا ويستشف من لحظ ابنته «افقة ولو مستترة».

كلام العطار كان صادقاً وإقاماته كان واضحاً وإصراره عليها بث في
نفسها روحًا عالية هرت ثمار أحلامها، كان هو قدرها، ذاك الآتي من
الجنوب بسمرته وبسمته ولكتته. تزوجاً وانتقلت معه للسودان لتكون
وليفته الفاتنة في بيت جميل على النيل، صار يرافقها بعض الليالي الصيفية
لينزلها معاً إلى النيل لساعة يستمتعان فيها بالعلوم، وبنى لها بيتاً آخر
وسط أهلها ينزلان فيه وقتما أرادت. ومع المولود الأول أهدتها بيتاً في
الإسكندرية، يطل على البحر حيث كان يبقى معظم الوقت في تجارتة
الشمالية، كان ينفق عليها بوسع دون مَنْ ويعتبرها فأل خير للخير الذي
غمره من بعد اقترانه بها، ولم تخرم في حياته من شيء. عاشت معه وأنجبت
منها ثلاثة أولاد وبنتها أسماءها بدر.

أحبها مثلما لم يحب من قبل. كلما استيقظ صباحاً كان يقبل جبهتها،
وبعد صلاتة تجلس أمامه وهو يسبح الله في حسنها وطبعها، ثم يغمرها
بدعواته ليحفظها الله له ولأولاده، فتقرب منه ليحتضنها في سعادة لا
يعرفها سواهما، ثم يقوم لإفطار جهزته فيما زحها كما تعود كل صباح،

ويحكى لها عن طرائف السفر ويختفي عنها أي حديث عن المشقة، ثم يخبرها بما نوى من عمل أو رحيل وتأتي أخته رحمة لتبقى معها حتى عودته. كانتا مثل أختين لا تفارقان إلا بصعوبة، وبكياسة قمر وطبيعتها المبهجة أحبها الجميع وصارت وردة الحب الزاهرة التي تتمتع بكل احترام في بيت ميسرة ود المبروك العطار وفي كل الحب.

كانت قمر بجمالها الذي نضج وفاض بعد زواجها تثير كل خلية فيه، خاصة كِلما رأها مبتلة إثر استحمام. كانت تهرب منه بدلال فيمسكتها وبغرقتها في قبلات تستسلم لها، ويدركها يوم إنقاذهما ونعم الله عليهمما بفال هذا الحادث النادر الجميل، فتدوّب ذوبانا يتکور منه بطئها بعد أشهر قليلة. كانت امرأة جمالها يزداد في حصافتها، حكيمة تعرف كيف ترضيه، وكان يعرف كيف يرضيها بفيضان المحبة وراحة البال فتغمّره بُقرَّة عينه من البنين والبنات!

قال آدم لليلي:

"الغريب أن الجلد العطار مات غرقا في حكاية أخرى أعجب،
لكي سأحكى لها لك في وقت آخر لأنها حكاية طويلة!"

أمطرت في هذا اليوم من شهر أغسطس على غير توقع بعد أن كاد الصهد يقتل كل ساكن ومتحرك، قبل المطر بقليل سكنت الدنيا سكونا

مرحبا ثم هبت نسائم منعشة، تبعها مطر غزير لساعة ثم توقف. تنشقت ندى أم آدم بعمق هذا الدعاش الصاعد من الأرض وتفاءلت خيرا، ثم هبت لركن البيت البعيد الذي يحوي مستطيلا خشبيا بامتداد الجدار، ممتلئا بالرمل الناعم النظيف، داخل صندوق بديع من القيشا尼 المغربي الملون مغطى بألواح رقيقة من خشب البلوط النمساوي الصالح للأجواء العارية والمنقوش بحفريات لقصائد فارسية جميلة الحرف والمنظر. غطاء يمنع القطط وحيوانات الليل أو طيور النهار من تلوشه. تعودت أن تقوم بعمل "مساس لأقدامها بالمشي عليه حافية لوقت طويل، وهو رمل أحضره الجد خصيصا من شمال العريش من بقعة لا يوجد رمل في العالم في روعته، يقول بعض الناس إن النبي موسى وقف عند هذا الموقع حين شق البحر بعصاه، ويقول آخرون إن الوقفة الأولى لراحة للعذراء مريم كانت عند هذا الشط، وإنها حَمَّت ابنها النبي عيسى الحمام الأول داخل مصر في هذا المكان.

هذا الرمل الذي يتحول لبياض عجيب بعد المطر، كان ملمسه على أقدامها مريحا راحة الجنة. تمنت أمها يومها أن يعجل الله بأمنيتها الأزلية وأن تلد في هذا اليوم، وأن يكون الميلاد كما حلمت وتمنت طول عمرها. استدعت حلمها الأثير الذي لن تنساه والذي لم تحك عنه لأحد إلا لآدم في عيد ميلاده السابع؛ فففي أوائل حملها به، رأت في حلمها صبية صغيرة. قالت أمها إنها كانت تتأمل هذه الصبية الجميلة وهي تمشي في الطريق، وتعرف أنها ستكون السيدة العذراء مريم ولا يعرف غيرها هذا، كانت الصبية في العاشرة أو الثانية عشرة، حسنها خفي وخجول بصفيرتين

سميكتين بلون أسود فاحم وبهيج. وقفت ندى أمامها، فاقتربت العدراء باسمة ومسحت على بطن ندى ثم نظرت في عينيها ففممت ندى بكلمة احتفظت بها سرا. استعادت الأم هذا الحلم حين بلغ آدم السابعة، وعانت أن يتحقق بحق العدراء مريم أم عيسى النبي الرسول!

قالت أم آدم:

"علّي نذر يجب أن أوفيه!"

البيت الواسع الذي انتقلت إليه ندى بعد الزواج وهو أكبر بيت في الحي. بنته لها أمها روضة، وأشرفت بنفسها على أن يكون بيته مختلفاً عن البيوت؛ أرادته أن يكون أجمل من بيتها هي، بل أزهى بيته في الحي. قبل ميلاد ندى كانت الجدة روضة قد عاينت الأرض واحتقرتها، مساحة كبيرة استغرب الناس في ذلك الوقت أن تشتري كل هذه المساحة في هذا الفراغ الكبير، كلفت يومها جرجس البيطار باختيار المكان في كل أنحاء القاهرة، وكان جرجس يعمل لدى الخديوي، وهو الذي اختار له منطقة حلوان كأصح مكان طبيعي لإقامة مستشفى خاص لعائلة الخديوي. كان جرجس البيطار صديقاً للجد ومحروفاً بدربه وعلومه الطبية والبيطرية، كان يحسب درجة نقاء المكان بأن يترك لحوم الغزلان المذبوحة حديثاً معلقة في الهواء لأيام ومحجوبة عن الشمس في فترات معينة من مواسم السنة، وكان يحسب بداية درجة تعفن اللحوم في هذه المناطق، فتأكد بهذا من صلاحية المكان عن غيره في الصحة والمرض، وقد اكتشف منطقة حلوان المعادي ومنطقة المطيرية وعين شمس وعزبة

النخل والمرج كأفضل المناطق ذات الهواء الصحي الجاف، فضلاً عن أن ماء آبارها الجوفية قريب من سطح الأرض ويعد من أفضل المياه وأعذبها، والماء والهواء هما العنصران الرئيسيان لكل حياة.

استغرب الناس في ذاك الوقت أن تشتري الجدة روضة كل هذه المساحة في هذا الفراغ العريض، وأنها بالتأكيد قد خانها التوفيق وستندم يوماً ما على هذه الفكرة الحمقاء. كانت الأرض بالضبط على حدود بداية الصحراء في أقصى الشمال الشرقي وعلى حدود الأخضر الخصب في شمالها. منطقة فيها من الصحراء المنبسطة الكثير وفيها من الأرض الطينية أكثر. قبل بضعة شهور من مولد ندى، كانت الجدة تنتظر قدوم المولود ولا تدرى هل سيكون ولداً أو بنتاً. كانت قد جهزت سبع شتلات لسبع شجيرات اعتنت بها عنابة كبيرة قبل أسبوع قليلة، هي التي أنفقت عمرها في الاهتمام بالزرع والورود. كانت الشتلات السبع لنخلة ورمانة وزيتونة وتينة وليمونة وجوافة ومانجو. كلفت أبو مبوسطة الجناني، ليزرعها في مواقيت معينة حسب التواريخ القبطية التي تحفظها، طلبت منه أن يغرس الشتلات في الأرض الطينية في الواقع التي حدتها بنظام معين كل اثنين مقابلتان: التينة أمامها الزيتونة والرمانة أمامها الليمونة والجوافة أمامها المانجو والنخلة وحدها، جعلتها في شكل رأس حربة رأسها النخلة، وبين كل شتلة وأخرى مجاورة لها سبع خطوات، وبين المتقابلات كالتالي: بين التينة والزيتونة إحدى وعشرون ذراعاً، بين الرمانة والليمونة أربع عشرة ذراعاً، وبين الجوافة والمانجو سبع ذراع. وطلبت منه أن يسور المكان بسور طيني بطول يعلو قامة رجل بالغ بخمسة أشبار على

الأقل، وأن يغرس بامتداده شجيرات الكافور والنخيل والكرم والجميز وحنك السبع والكافورينا وشعر البنت وسنط النيل والنيم والجميز والتوت والنخل الملكي الأبيض، وأن يصنع حوضاً عالياً في الوسط يملؤه بماء البشر، وهذا الحوض له فتحات متعددة تؤدي إلى قنوات تفتح كل منها في الوقت المناسب لري الشجيرات حسب احتياجاتها، وأن يتعهد أبو ميسوطة الجناني 'المكان منذ ذاك الوقت بالعناية الفائقة وأن يجعل فيما بعد شجيرات ونباتات أخرى ستره بها، مثل أشجار الجهنمية وحنك السبع والفل المصري وشجر الحبة الغالية وخف الجمل وأبو المكارم والخروع، ليحمل المكان بها. كانت قد استقدمت متخصصاً في البحث عن الآبار الجوفية يسمونه "السومطري" أو "الفايد" نسبة لشجرة نادرة اسمها (فايدا) تنمو في هذه المناطق وربما اندرت حالياً لاستخدام كثير من الرعاة لها كحطب، "والسومطري" أو "الفايد" هو شخص توافر له قدرة نادرة على معرفة أمكنة الآبار المختفية تحت الأرض، ليس هذا فقط بل تحديد مسار البئر وأقرب مكان منه إلى سطح الأرض، فهو يستخدم غصن شجرة (فايدا) للبحث به عن الماء. والغصن له ثلاثة أطراف، يمسك الفايد طرفين بيديه المتدين على ارتفاع وجهه رافعاً الغصن بفرعه الثالث الحر لأعلى ويسير في المنطقة التي يمسحها. حين يقترب من عرق ماء تحت الأرض يتلوى الغصن بقوه إلى أسفل، يقاومه الفايد بالرفع لأعلى ويستمر في السير، وحين يصعب عليه رفع طرف الغصن لأعلى كأنه مشدود بمحاطيس يجذبه لأسفل؛ يعني هذا أن وريد الماء في هذا المكان قوي وقريب، في ذاك الوقت يبدأ البحث عن الماء أو الحفر.

رسمت الجدة روضة بثرين في المكان لري هذه الشتلات. وسمّت المكان "جَنَّاتٍ" بمحبت كل خططها واستغرب الناس، وبعد سنوات قليلة ازدهرت دوحة (الروضة)، هكذا كانوا يطلقون على اسمها، كما كانوا يسمون أم آدم باسم (الندى) احتراماً، مثلما كانوا يسمون الجدة الكبيرة (السُّلْمَى) وجديتي باسم الروضة. كان عيماً على الأغراض نطق اسمها دون الألف واللام. صار للجدة روضة دوحة خضراء جلبت أجمل الطيور، وصار المارة والرجل يركنون تحت أسوارها الظلية، فعملت سبيلاً لهم. بدأ الناس يتواافدون عليها من أمكنته بعيدة لأخذ مشورتها في الزرع وللحصول على بنور وشتلات منها، فكانت لا تبخّل عليهم بالمشورة ولا بالشتلات.

البيت مع الوقت تغير وبنيت أسواره بالحجارة، وأصبح لا يشبه بيوت الناس لا من الخارج ولا من الداخل. جعلته الجدة روضة في دورين وكل البيوت المعروفة في هذا المكان الممتداً كانت من دور واحد. لما عاد الجد من المغرب جلب معه أكبر حمل من القيشاني رآه الحي، من منطقة أصيلاً وطنجة التي انتقلت منها جودة الصنعة لاحقاً إلى إسبانيا وإيطاليا. جلب نوعاً اسمه قيشاني سيدى سليمان بأروع الأشكال والألوان. وجلب معه بنائين مغاربيين من مراكش صمماً له البوابة والمدخل، وفقاً لرغبة روضة، كان كلما عاد من تجارتة من المغرب جلب معه كميات كبيرة من أجمل أشكال القيشاني. صمم في حوش البيت نافورة ثمانية رائعة بالقيشاني الصغير المنمنم من نوع مولاي بوسليهام، هذا النوع الذي اندثر، واسم مولاي بوسليهام يرجع لأحد الأولياء،

يقال إنه أتى من مصر إلى المدينة واستقر بها؛ والسلهام هو البرنس أو العباءة. وجلب معه الصناع المهرة وأجزل لهم في العطاء. اشترط عليهم شرطاً وحيداً وهو ألا يبيتوا داخل غرف البيت بأي حال من الأحوال أثناء فترة العمل، أقام لهم بيته مؤقتاً بالقرب منه، فيه كافة ما يلزمهم، فيما بعد عاد منهم إلى بلاده من عاد، وبقي منهم من بقي وتزوج وأنجب وعاش بقية حياته في مصر.

ولما انتهت روضة من بناء البيت أحضرت بدوية معروفة بالرقية وعلاج الناس. بخرت البيت لسبعة أيام كل يوم خمس مرات، أثناء مواقف رفع الأذان، وقرأت أدعية كثيرة وحرقت كميات من البخور المخلوبة من السودان ومن بلاد شنقيط مثل بخور الشاف وبخور الصندل وخشب الطلح، وخصوصاً بخور التيمان^(١) الشهير. أجزل لها جدي العطاء ثم أحضر شيخاً قرأ القرآن كاملاً في أربعين ليلة بال تمام والكمال. ولم يكن يسمح بدخول أي أحد إلا بقدمه اليمنى لهذا البيت، وهو يتمتم ببعض الأدعية القديمة التي توارثها عن الأجداد.

(١) بخور التيمان ينسب إلى التوأمان وهو من أشهر أنواع البخور في السودان ويعتقد البعض بأنه قادر على طرد الأرواح الشريرة وفك السحر وكف العين، وكان يعرف قد يد باسم (الكتاسة)، لأنه تم اكتشافه بالصدفة حينما تم كنس الدكان لتنظيفه وتم حرق هذه الكناسة؛ فكان لها رائحة عطرية جذابة، مما أدى بالتوأمان أو التيمان جمعها والاحتفاظ بها بعد أن أضافوا إليها بعض الأعشاب ليكون لها اسم (بخور التيمان)، الذي أصبح يستخدم في كثير من المناسبات، ويقال إنه يتكون من سبعة أعشاب لذا يطلق عليه اسم (المسبع)، وهي: الشب والقرض وصمغ اللبان والسدر والكمون وعين الديك والحلبيت (والأخير نوع من الصمغ النباتي يستخدم منذ القدم لطرد الجن والشياطين).

كانت ليلي تستمع بشغف كبير لحكاية آدم عن العائلة، تشغف بطريقة آدم الساحرة في الغوص للماضي واستعادته بهذه النصاعة. تحول آدم إلى شهريار الحكااء وصارت ليلي هي شهرزاد المنصته لحكاية دون تهديد من سطوة سيف أو زمن. سأله ليلي:

"حكاياتك تلد عشرات الحكايات الشبيهة يا آدم، لا أريد أن أقاطعك، أحك كما تريده.. أنا كلني أذن!"

قال آدم:

"أنا أختصر كثيراً من الحكايات؛ فهو عمر طويل. عشت في عائلة لا تكف عن الحكي واسترجاع تاريخها القديم وكان هذا من حسن حظي، لأنهم قد رهنوني لأكون دفتر العائلة المتقل عير الزمن والامتداد الواسع للجيل القادم. لم أحل سوى نصف قليلة متفرقة وسطحية للبعض، لكنني شرعت منذ أكثر من عام في كتابة تفاصيل العائلة، لتبقى لدى بنات وأبناء أخواتي، لكنني أراهم غير مكتثتين بتاريخ العائلة، الحاضر يجرفهم معه؛ لذا سجلت الكثير من كتابة وما زلت أفعل.

"وهل ستطلعني على ما كتبت يا آدم؟"

"بكل تأكيد، لكن حين أنتهي منه. أنا الآن في الدفتر الخامس وكل دفتر في حدود مائة صفحة. أكتب فقط حين أشعر بأن الكلام يت伝ق، كأنني أتلقاءه من أمي ومن كل الأقارب، سأحكي لك الآن ما قالته أمي:

حكت لي أمي بابهاج عن زمن مولدي، قالت إنها في صباح يوم الطلق استيقظت مبكراً واستحمت ثلاث مرات دون أن تدرك السبب. رملت قدميها في حوض الرمل الأبيض ثم غسلت قدميها ورجلتها عند الفسقية مرات. سمعت هديل يمامه على شجرة الكافور القرية، رفعت رأسها تتأملها، فشمت رواحة الياسمين في نسيم الصباح، الظلال المرمية على المر المؤدي إلى النخلة بدا مشجعاً على المشي إليها. تفاءلت وقامت تتمشى بحس مطمئن يؤكد لها أن المولود هذه المرة سيكون ولداً.

كان عليها طبقاً للمواريث القديمة والعادات والتقاليد في العائلة، أن تذر ندراً كبيراً يخصها هي لو تحقق أملها، غير نذر أبي وجدي. نذرت أمي نذراً عجياً، أن تخج للقدس بسبب رؤيا العذراء مريم، وأن تطعم أربعين مسكيناً يومياً طوال شهر رمضان الذي يحل بعد مولد ولد! نذر أبي كان نذراً اعتيادياً ينم عن الكرم الشديد كما يفعل معظم الناس؛ قرر أن يذبح ثلاثة ثيران لو كفت ولداً ويدعو أهل الحي جمِيعاً لعشاء جماعي.

كانت أمي ندى مضطجعة في حوش البيت الكبير عند المغرب تتأمل القيشاكي ورسومه الزرقاء البدعية وتشعر بوجع خفيف فتقف ثم تجلس. ولأنها تمرست في الولادة مرات صبرت وتأملت خيراً، وشعرت بارتياح دفين لم تعرف سببه. كانت ترتاح للحظات ثم تشعر بالألم الطلق فتجلس أو تقوم لتمشي. لما أرهقتها التعب وهدها. كادت تنام وهي تتأمل بزوغ النجوم في السماء وتنصت لخفيف الشجر في الجنينة الواسعة وصوت

الطيور التي هجعت للمبيت في أعشاشها، في هذا المساء صار صوت حفييف الشجر لها فجأة - كما قالت لي - مثل صوت الموج. أقسمت إنها كانت تسمع صوت الموج بوضوح وتشم رائحة البحر. كانت تستمع لأغنية فيروز التي كانت تصدح من الراديو المركون داخل غرفة النوم والذي يغمر صوته الواضح كل أرجاء البيت: "شايف البحر شو كبير.. كبر البحر باحبك!"

حب أمي لي فاق مجتها لكل شيء في الدنيا. كانت تحكي لي طوال الوقت حكايات لا تنتهي وتكررها من زوايا أخرى، فأسمعها كأنها للمرة الأولى، وقد أحست بهذا في سد ثغرات مهمة لي في سيرة العائلة. كنت لا أملأ أبداً من أي تكرار، وكان أجمل ما في حكاياتها هو تلك الأغاني التي كانت تتخللها بصوتها العذب. كنت أضحك بشيء؛ فأرى منها ساعتها أجمل نظرة في عمري وأنا غارق في الضحك اللذيد. بعد موت أبي أسرت لي أمي - بعد تهديد جعلته على درجات من البوح والإخفاء حتى جاءت لحظته المناسبة - حكت لي عن حبها الأول والعميق الذي لم تعرف غيره على حد قولها. كلامها هزني فجأة. لعلها قصدت هذه الصدمة لأفique لحكاية لم أعرف أنني سأحكيها يوماً ما عنها.

أسرت لي أنها شغفت برجل آخر وهو الذي أهدأها شرائط فيروز كلها وجهاز "ريكوردر" للاستماع للشرائط. كانت نادمة أنها أو جعت شعوره برد فعل لم يكن يستحقه، لكنها غيره المرأة كما قالت: 'الغيرة أمر ليس باليد، الغيرة كالعطسة لا يمكن حبسها، قد تكون كلسعة شمس عابرة أو

كضربة شمس مؤذية، ومن لا يغار بعقدر لا يعرف طعم الحب، والغيرة
المعتدلة مثل نسم في صيف والبالغة فيها تجعلها كعاصرفة تخليع الحبة من
جذورها‘

كررت اسمه مرات - مهدي - دون أن أربطه بزوج الحاله نعيمة؟
الرجل الدمعت الوقور هادئ الطياع الذي لم لاحظ منه أو من أمي أي
شيء يشي بما حكت. أحب أمي وشغفت به وهما في شهد الشباب.
لم ير غيرها ولم تر غيره. كلما التقى في فرح شعراً أن الفرح القادم هو
فرحهما. ترقص فتخلب لب الشباب ويرقص فيخلب لب الفتيات. أصر
أبوه على أن يزوجه لابنة عمه، فرأى فاحتنه وهو يافع ولم يأخذ مهدي
الابن الأمر مأخذ الجد، وعندما وصل الابن لسن العشرين شرع الأب في
الإسراع بخطبة لم يستطع الابن أن يرفضها في ذاك الزمن، فغضبت أمي
من عدم وقوفه ضد الزيار والحفاظ على جبهما، رأته جبنا منه وضعفا
وقلة حيلة، فقررت أن ترد عليه في وقت قصير بالموافقة على الخطبة من
صار أبي. تألم مهدي وتكسرت في روحه كل مباحث الحياة، ثم عجل
بسخ خطبته بعد موت أبيه المفاجئ، على أمل عودتها إليه، لكنها كانت
ماضية في تأدبيه، قالت أمي أسوأ عقاب للمحبين هو الحب الذي لا
يعرف الغفران ويتسوّر بالهجر لم يتزوج مهدي لسنوات وكان عناد
أمي سبباً في نصف تعاستها وسبب كل تعاسته.

بقلبها ظلت تحبه وتكتابر، احترمت أبي وأخلصت له؛ أحبته محبة عشرة
ومحبة زوج لا محبة حبيب، لكنها لم تفكّر أبداً أن تخونه ولم تقدر أيضاً أن
تخون قلبها أو مشاعرها. قالت لي: 'قلب المرأة يا آدم ملك أبيدي للحبيب؟'

فيما سعد من أسعد قلبها بقلبه فأزهت روحه بروحها! وليس ضروريًا أن تعيش المرأة عمرها كله في سعادة، يكفيها أن تعيش السعادة الحقة الصافية يوماً واحداً؛ فباستطاعتها أن تنسخ هذا اليوم وتعيشه في خيالها آلاف الأيام دون ملل!

أذكر أمي في فترات صبאי حيث كنت ألازمها كثيراً وكيف كانت تبكي بكاء مختلفاً عن كل بكاء رأيته لبشر؛ بكاء نصفه صامت ونصفه الآخر مموه بخدعة الضحك الكاذب. كانت تبدو غريبة الأطوار في حالات شجنها، لكنني تعودت ذلك منها. كانت تلاطفني بإفراط وتصطحبني معها لأي مكان تذهب إليه. لم يستطع أبي أن يأخذني منها. حاول أن يدربني على رجولة مبكرة بعيداً عن النعومة الخالصة المتاحة لي بكرم من نساء العائلة، وكان في الوقت نفسه لا يرتاح للهو أخواتي الخمس بي أو معى وتزييني كدمية صغيرة بالورود والعقود والأساور. كان يخشى من هذا الحنو المبالغ فيه وهذا الانحراف في التزيين أن يؤثراً على ويطبعاني بطراوة أنشوية قد تؤثر في ظنه على مجرى حياتي وعلى خشونة رجل قادم من السلالة بقوه.

حملت أنا في حياتي هذا القلب العاشق الرهيف نفسه؛ قلب أمي. لم يتوصل أحد لسر استماعها الدائم إلى فيروز. حفظت معها أغانيها وكان الناس يستغربون من مداومتها على الاستماع لأغانيات غير مصرية، وأنها تعيش خيالاً غريباً يقال بكلام غريب. لكن أمي كانت تعشق أغانيات كثيرة لأم كلثوم ونجاة وشادية وسيد درويش، لكن فيروز كانت شغفها

الأكبر كما كانت شغوفة بالزمن الماضي !

كنت أحب أمي كثيراً وكتبت سرها أكثر من كوني سراً لأبي. تعودت منها ذلك فلم أستغرب من بوحها كأنها تحكي لصديقة حميمة، صرت أكثر تفهماً لكل ما تحكيه لي، لكن بوحها لي كان بلا نهاية، حتى أختي الكبرى نوراً أو أي من أخواتي البنات لم يصلن لمكانة البوح والأسرار التي سربتها لي أمي خلال الأعوام الجميلة التي عشتها معها.

كنت كتوماً مثل أمي، فبحكت لي أسرار النساء لأنعلم وأحب لا لأكره. حكت لي عن رشيدة التي تبدي ورعاً كاذباً مبالغ فيه، لكنها في غياب زوجها - المتزوج من أخرى - كانت تعاشر مدرس ابنته الصغيرة معاشرة الأزواج. كانت تصلي وتصوم يومي الاثنين والخميس، لكنها عشقته والحرمان أهللها، ويوم جلس في الصالة يشاهد برنامجاً ترفيهياً خرجت عليه شبه عارية من الحمام محتاجة تصرخ: 'حرام.. حرام!', وحولت القناة لقناة دينية يكفر فيها الشيخ كل من لا يشبهه. جلست تبكي وقطعت عنه الترفيه الأهون. تكرر الأمر مرات بالصورة نفسها، حتى سئم منها ومن طريقتها. هجرها، فزادت صلواتها واستغفاراتها.

بحكت لي عن بسمة التي هجرها زوجها وهي شابة دون سبب مقنع، سافر وحين رجع، عاد برفقة زوجة أخرى لا تساوي خصلة منها، استغرب الناس من ارتباطه بهذه الجديدة الغريبة. ولما ذهبت بسمة لطالب الحقوق في الطابق العلوي تستفسر منه عن حق الطلاق، وقعت في غرامه ووقع في غرامها. صارت تقوم معه بأغرب الفنون في ممارسة الجنس، يتفرجان

فيها على أحد أفلام البورنو، ثم يحاولان تنفيذ ما شاهدا، كانت أكثر المشاهد إثارة لهما هي تلك المشاهد القاسية. تلذذت بالألم بأن يصفعها وأن يضر بها، وأحببت منه أن يسبها ويعاملها كعبدة. العبودية كانت رديفا للاستمتاع الجنسي والرضا. حككت لي أمي عشرات الحكايات، كانت مستودعا للأسرار التي شاركتني وحدني فيها، باعتباري جزءا منها وأن السر الذي كانت تبوح لي به إنما هو لنفسها!

ما لم أنسه لها قوله لي: 'لا تتزوج من تحبها.. تزوج من تحبك.. إن استطعت أن تجتمع بين المحبّتين فستكون محظوظاً. مع الوقت وحين كبرت عرفت ما كتبت أمثله لأمي. تركت لي كل تاريخها الشخصي من طفولتها حتى آخر يوم في حياتها بكل تفاصيله.

ضحك آدم فجأة كأنه تذكر شيئاً. نظرت ليلي إليه كعادتها بنظرة الاستفسار الجذابة حين تطرح السؤال عينيها لا فمها، فتسمح له بذلك أن يسترسل في الحكي من الزاوية التي يراها، هي متشوقة لكل ما يحكيه. بأدر تساوئل عينيها بالقول:

"تذكرة الآن عمتي بلا سبب معين، فقط خطرت على ذهني.
كانت عمتي قاسية، أخلاقية متشددة بطريقة شبه مرضية؛
ففي المرات القليلة التي كانت تغيب فيها 'الدادا' زينات عن
الحضور لاستلامنا وتوصيلنا للمدرسة، كنا نضطر لصاحبة العممة
التي تظل تراقب عيون أخواتي طوال الطريق، تسير بانحناءة مائلة
وغرية، بحيث يكون وجهها في وجه البنات، وكلما اقترب شاب

استشعرت ملامح الخطر كإشارات لا مرئية، تراها هي فقط عبر مجسات أخلاقها، وب مجرد شعورها باقتراب نظرات أو ابتسamas، تكب عبوسها في وجه البنات وتنزل كلمات تقرיעها كالطلقات: «أدب يا عديمات التربية! مفيش بسمة ولا ضحكه ولا نظرة! أدب يا قليلات الحياة»، كانت لا تورع أن تشلّ القاصد بنظره نارية في عينيه تربكه، وتکاد تزيحه في مشيتها الميري من الطريق والوابيل له لو نطق أو تبرم منها.

أخواتي كن يذهبن عادة للمدرسة بصحبة دادة زبنات. تصحبهن صباحاً وتعيدهن بعد الظهر. كانت عمتي تستفرد بها ل تحفظها لائحة شفوية في الحفاظ على البنات بأنهن لسن أي بنات، بل هن بنات أكبر عائلة في الحي، وأنها تعول عليها في حمايتها من أي حرفة انحراف، والانحرافات كانت في عرف عمتي: الضحك في الطريق مثلاً أو البطء في المشي أو التلکؤ أمام أحد المحلات للتلطع إلى أي شيء. الشيء الوحيد الذي كانت تثابر عليه عمتي لأخواتي البنات هو الحفاظ على أناقتهن التامة ونظافتهن وتصيف شعرهن على أجمل الموضات، وعدم استعمال أي نوع من أدوات التجميل التي تستعملها النساء ما عدا الحناء والكحل. كانت تعمل بتناقض غريب؛ تحمل البنات بشكل مبهر كأنهم عرائس في الحي وتنبع العيون عنهن في آن. لم أتوصل أبداً لحكمتها الكامنة وراء هذا التصرف الغريب.

لكن الأكثر غرابة في عمتي رغم صرامتها الشديدة، أنها كانت تتمحك

في وجود الرجال الزائرين، تصر على تقديم المشروعات بنفسها، ثم تأملهم من خلف الستار تسأل عنهم كأنها لا تهتم، وتلقى الأسئلة كأنها لا تبالي وهي في تشوق لسماع كل التفاصيل، ثم تبدي في المقابل خشوعاً شديداً واستغفاراً ملتها في صلواتها وأحاديثها الجهرية.

عمتي شهيز باسمها التركي الغريب في العائلة، لا أدرى من اختاره لها، لكنني علمت في وقت لا حق معنى الاسم وهو (ملاك)؛ فهم كانوا يتباهون في عائلتنا بحسن اختيار الأسماء. فقط عندما يتوقف الناس عند اسمي (فiroz) يشعر البعض في العائلة بغرابة الاسم رغم اعتيادهم عليه. فجأة يؤرّقهم هذا الاسم النسائي لشاب يكبر في السن وسيصبح اسمه نسويًا بجدارة، يشعرون أن هذا الاسم اللطيف المداعب الجميل الذي ناسب الطفل لسنوات – ولصباه إلى حد ما – قد يكون جالباً النحس له أو مهيناً على الأقل لعثرات قادمة في الحياة لا يد له فيها.

تعود ليلى لتساؤله هذه المرة بوضوح؛ فمثل هذا السؤال لن تبوح به عليناها مهما فعلت:

"ولكن متى تغير اسمك من فiroz إلى آدم؟"

يلاحظ فجأة على جبينها سحابة جزع وارتباك. تقفز سريعاً من مكانها خوفاً أن يكون الطعام قد بدأ في الاحتراق. يقوم خلفها ضاحكاً، يطمئنها ألا تنزعج حتى لو احترق الأكل، لكن انزعاجها يطبع صرامة تطول قليلاً. يضاحكها:

"جمال وجهك وابتسامتك عندي أهم من احتراق ألف وجهة
يا ليلى.. صدقيني!"

تفرج أساريرها ويعود جمالها الذي تراه في عيني آدم، وتذكر كيف كانت تتعرض للسخرية من فاروق لو طال الشياط أو الحريق طعامها مرة، بسبب انشغالها في مائة مهمة ومهمة. نظرته وحدها التي لا تساويها نظرة في العالم يجعلها تبتسم رغمها عنها؛ تلك الابتسامة التي تبئها روح آدم فيها. تشرح أن الطعام في طريقه إلى النضج بعد دقائق. تقوم لتجهز المائدة فيساعدها آدم بوضع الملاعق والأطباق والشراب. يلمسها في كل حركة لها، يتحرّك كأن كقطنين عاشقين يتلامسان، يعودها على التخلّي عن استعجالها في مهام لا تحتاج للعجلة.

ما زالت متشوقة لحديثه. تكرر سؤالها له بمرح:

"لم تقل لي يا فیروز، متى تغير اسمك إلى آدم؟"

"هذه أيضاً قصة طويلة سأحكّيها لك بلا شك، لكنني أسرفت هذا النهار في الحديث. الآن أنا جائع وهذه الرائحة ستجعلني ألتهمك مع الطعام دون أن أشعر. سأحكّي لك أثناء الطعام حكايات أخرى طريفة، فهذا صحي ويساعد على الهضم، وبعد الأكل سآخذك في رحلة عبر الدانوب، ما رأيك؟"

"وهل لي رأي أمام الدانوب يا فیروز؟"

تشعر ليلى للمرة الأولى بمعنى أن يأكل المرء مرتاحاً مبتسمًا، غير متضرر

أن يكون فيما يشبه الامتحان على المائدة. تكاد تغيب أثناء الطعام في حلم جميل، تطرده برفق وتبقى في واقع عيني آدم واستحسانه الحقيقي لطعامها. يقوم من مكانه ويمسك كفيها ويطبع عليهما قبلة امتنان. ينظر لها وتنظر له ويأكلان في صمت احتفائي مقدس!

8

"أنت حرّة!"

للمرة الألف تستفزها هذه الجملة، حين لا يشاركها في حسم أمر تراه جوهريا، وللمرة الألف يتنازل عن هذه المشاركة وعن الدعم وعن الرأي وعن حضورها بالمناقشة أو عن غيابها بالسؤال.

كم تتمنى المرأة أن تسمع من الرجل هذا الرد: (أنت حرّة!), حين تتعلق الحرية بأمور تافهة غير مصيرية أو نسائية ولا تخصه من قريب أو بعيد ولا تقلل من شأنه ولا تجعله في موقف مخز! لكنه يتدخل كثيرا في هذه الخصوصيات ويسأل، حتى يسيئه العلم بها لأنه يؤول لها غالبا تأويلا خطاطئا.

تمنى المرأة من رجلها أن يكون حنوناً كأب عندما توق لضمة حنان من تشتها؛ ولأن يكون أخاً يخشى عليها ويقدرها؛ ولأن يكون صديقاً يسدي لها المشورة الصادقة وتسر له بما يقلقها؛ ولأن يكون ابناً يلطفها ويخفف عنها ويترك نفسه في أوقات ضعفه يرمي عجزه في حضنها؛ ولأن يكون زوجاً يهيج قلبها وروحها وجسمها بكل ما تشتهي.

لم يكن فاروق - يوماً ما - واحداً من هؤلاء الرجال، كان نسخة متفردة في قسوتها، ليس في عنف بدني محبب مما تشتهيه الأنثى بل في عنف نفسي لا مرئي مهلك. فتوره يغتالها بسم بطيء اللامبالاة في العلاقة الزوجية. مثابة حفر متهمل لقبر العلاقة! تخس بأنها تستيقظ يومياً لتجد نفسها موظفة وعاملة في مصلحة تسمى "مؤسسة الزواج" مؤسسة خاملة تضطر فيها لتنفيذ أعمال روتينية تتكرر كل يوم بحذافيرها. لا مفاجآت سارة، لا تغيير، لا بهجة، لا حياة. برنامج يومي ممل. تستعرض ليلى في ذهنها سنوات طويلة، حاولت فيها أن تبهجه، لكنه لا يتهمج؛ أن تفاجئه وتغير من طباعه، لكنه نجح في الثبات على شخصيته. وجهه يطالع الجريدة أكثر مما ينظر إلى وجهها. يشاهد التلفزيون ويرد على نشرات الأخبار وعلى مذيعي المباريات أكثر مما يتتبه لحديثها أو أسئلتها أو حتى ردودها. لا تذكر متى قبلها آخر مرة أو لمسها لمسة حنان علمت في وجدها. تشعر أنها من داخلها تهرم وتشيخ أسرع مما يبدو على شكلها الخارجي. روحها تكتسب تدريجياً وتخشى عليها من الاحتراق التام. تعرف أنه حتى إذا امتلك عواطف جياشة تجاهها فما كانت عواطفه لسعدها، ربما لأن الرجل، أي رجل، كي يصل إلى قلب المرأة يجب

أن يمرّ عبر عقلها أولاً، وتقتنع به قناعة مطلقة لا تشوبها شائبة، وربما لأنها ككل النساء، توقفت عند هذه النقطة، وبحثت عن شماعة تعلق عليها تعاستها، وكان فاروق تلك الشماعة. لولا حاتم ورانيا لانفصلت عنه منذ سنوات، وعلى الرغم من شعورها الجارف بالحب تجاههما لا تعني بهما من منطلق هذا الحب، بل لأنهما مسئوليتها. هما لا يعرفان أن أما مختلفة تماماً عما يعرفونها مقتولة بداخلها، قتلتها استكانة فاروق في حياته الربية، أو اعتقاده بأن الرتابة ما هي إلا نظام حياتي مريح يجب أن ينتهجه. تتساءل أحيانا هل استسلامها الخافي هو ما يصوغ علاقتها شبه الفاترة بهما، وهل يشعران أنهما يتعاملان مع جنة حية؟ هل يفتقدان صورة أمّ أخرى في مخيلتهما كان من الممكن أن تكونها لو كانت سعيدة؟

"أنت حرّة!"

يالها من كلمة قصيرة قاتلة! تخرج ليلى من الصالة حانقة مكسورة. تدخل غرفة النوم وتحلّس على طرف السرير. توقف دموعها التي بدأت تسيل على خديها بحرارة وتقول لنفسها:

"أنا حرّة!"

* * *

جهزت ليلى كل أوراقها في وقت أطول مما توقعت. بعد التصرير بخبر سفرها مباشرة، ألح حاتم ورانيا على مرافقتها، لكنها، وبقلب يتوجّع أفقّعْتهما بالبقاء في مصر، وبالسفر كالعادة إلى جدهما في الإسكندرية،

وبأنها في مهمة عمل عائلية أكثر منها فسحة وأنهم ملن يستطيعوا البقاء معها في بيت ياسين الضيق، ولن يتمكنا من الخروج وحدهما. كان وجعها أكثر لعلها بتخلّي فاروق عن وجوده معهما في غيابها؛ فمنذ زواجهما وهما ينفصلان صيفاً انفصلاً إضافياً، هي تتجه نحو الإسكندرية لأهلها وهو يتجه نحو المنيا لأهله لخمسة أسابيع كل عام، وهو لن يتنازل في أي ظرف من الظروف ليغير جدوله المعتاد!

كانت في حاجة إلى التوحد؛ لأنّ تحس عن حقّ يعني الحرية، لأنّ تخفف من ثقل تُحرّجُه سنوات بلا معنى. تسأّلت: هل هي أمّ بغيبة حقاً لو قامت بذلك مرة! تشعر للمرة الأولى في حياتها بأحساس متناقضة بين التحرر والتشتت، بين الراحة والقلق، أملتها كأنّ من خلال هذه الرحلة أن تلملم شتات النفس لتعود شخصاً مختلفاً، إنساناً يحب الحياة ويُقبل عليها. هي فرصتها الأخيرة لل Thur على نفسها، حتى ولو اضطررت للعيش في بيت ياسين زمان، وهو بيت تبقى بقاؤه لن يريحها، لكنه التغيير الذي تحتاج إليه بأي حال، تغيير إن لم تجد فيه بعض السعادة المفقودة، فعلى الأقل ستيّح لها استعراض حياتها، ربما استطاعت العثور على مفتاح شخصيتها.

في أغوار نفسها لم تصل إلى ارتياح مقنع يؤيد سفرها أو بقاءها، وقعت في حالة اليين بين. ظاهرياً كانت تعد للسفر وداخلياً كان تؤجل حسم القرار. حاولت أن تخفف من قلق النفس بتصرف ما. اتصلت بيسين وذكرت له أنها لن تستطيع أن تبقى إلا لستة أسابيع فقط وليس لثلاثة أشهر كما كان يريد. أرجعت السبب إلى عدم قدرتها على ترك

حاتم ورانيا بدونها كل هذه المدة، بهذا القول طمأنت روحها، بأنها تتنازل طواعية عن المنوح لها بل تضيق على نفسها. هو أيضا لم يجد أي مبادرة لأن تحضرهما معها ولو على سبيل المجاملة. يلمح دائماً أن شقتها صغيرة لا تحمل مبيت الضيوف. في زيارتهما السابقة كان قد جهز لهما حجرة مزدوجة في فندق بسعر معقول ولم يساهم في أي تكاليف. اعتبر أن ما أسماه ببحثه المضني عن الفندق وإيجاده ونقلهم من المطار إليه، بمثابة المساهمة الكافية، حتى فاروق تخاضى عن المساهمة المالية باعتبار أنها صاحبة الفكرة، واضطررت هي بلا تردد لصرف ربع مدخراتها، خلال سنوات، من أجل رحلة واحدة قصيرة إلى فيينا، دون أن يطرف لأي من الرجلين أي جفن، لا فاروق ولا ياسين. على كل حال كان إغفاله دعوة ابنيها مريحاً لشعورها الخفي بتأنيب الضمير، وسبباً كافياً - حتى إذا كانت تعرف في قرار نفسها أنه غير حقيقي - لتسافر بدونهما.

حين يمْعنَ الوقت في بطئه حد السأم، يفاجئنا في نهايته برفض نلهث فيه معه، فجأة انتهت امتحانات رانيا وحاتم وانتهت هي من التدريس وتصحيح الامتحانات. جهزت أوراق سفرها إلى فيينا بين انشغال حياتي وأآخر، كأنها مغيبة، أو كأن السفر القادم مجرد فكرة قد لا تخرج إلى حيز التنفيذ، لا تذكر من عناء إنهاء الأوراق سوى سماحة مسئول السفارة وهو يستنكر طول الفترة التي ت يريد البقاء فيها في فيينا بعنجهية غير مبررة: "ستة أسابيع وقت طويل قوي!" فأخبرته بألمانية سليمة لم يكن يتوقعها: "فعلاً، حتماً سأُسأَم سريعاً، لدى حياتي وأولادي هنا!" هي بالطبع لم

تكن تقصد تسفيه قيمة الرحلة، أو البلد التي هي بقصد السفر إليه، لكنها رأت ضرورة ألا تتركه دون أن تخزه بكلماتها.

حين تسلمت جواز سفرها بالتأشيرة للبقاء في فيينا لستة أسابيع، لم يكن هذا ما يفر حها بقدر ما أفرحتها بطاقة السفر. منذ أن اقتنتها قبل ثلاثة أسابيع - قبيل بدء الرحلة - وهي تطالعها كل يوم مثل قيمة حظ، تنظر في الرقم السحري (797)، يطمئنها عدم تغيره، يطمئنها رمز وجود آدم عليه. يطمئنها هذا الرابط به أو المفتاح إليه، تستريح وتشملها غبطة غامضة تحول غمماً دفيناً مبهماً فيها.

خامرها إحساس مربك في الطريق إلى المطار عندما اكتشفت أنها تنصلت لكل كلمة من حاتم ورانيا بكل وضوح، بينما يأتيها كلام فاروق من بعيد كأنه صدى معدني لقطار متلهلك. كادت أن تطلب منه أن يعود إلى البيت، ويترك لها حاتم ورانيا. أن يعيفيها في اللحظات الأخيرة من الشعاع السلبي الذي يخرج منه ويتكسر، أشعة تشبة الأسهم تخترق جسمها وتدميها. ندمت لأنها خرجت مبكرة عمداً، كانت فكرتها أن تجلس معهم خارج البيت. أن يعرجوا على جروبي لتناول القهوة. ليقضوا وقتهم الأخير معاً.

طلب كل من حاتم ورانيا آيس كريم وطلبت هي قهوة "مظبوط" وطلب فاروق كابتشينو واختار قطعتي جاتوه. كانت عيناهما على ولديها، ترى بقایا طفولتهما تبرغ في بهجتها وهمما يقارنان المذاق المختلف للأيس كريم ويتبدلان إطعام بعضهما بشقاوة، تتطلع إليهما،

لا ت يريد أن تلتقي نظراتهم. كيلا يتسرّب إليهما قلقها وما يعتمل في جوفها من مشاعر فاروق انشغل في الجرائد التي اشتراها من الكشك المجاور. لم يهتم بأنها اللحظات الأخيرة. شعرت ليلي أن موجاته السلبية بدأت تنصب عليها، وأنها أخطأت بهذه الوققة لأنها تُشعرها بالأسى أكثر. سالت رانيا وحاتم مرة أخرى عما يطلبان من فيينا، لتعمن في الهرب مما تفكّر فيه، فابتھجا لأنهما كانا قد جهزوا لها قائمة طويلة بما يرغبان، وضعاهما في شنطتها خفية صباح يوم سفرها: شيكولاتة وملابس وقائمة طويلة رأتها ليلي حين أخرجتها بسرور من حقيبة يدها.

ضاحكت وقالت مازحة:

"لن أحضر لكم شيئاً!"

قبل أن يعادلها أولادها المزاح بأخر، كان فاروق قد أسقط الجريدة على المائدة وخلع نظارته، متحفزاً للحظة المشاركة أو طرح السؤال عليه، لكن ليلي تغافلت ذلك، فايتدرها بطفولية:

"وهذه قائمة أيضاً بما أطلبه!"

ختمتها بضحكه. أمسكت ليلي القائمة واستغربت أنه لم يشتّر هذه الأشياء أثناء زيارتهم للمرة الأولى، وتذكرت أنه وقتها عاين هذه المطلوبات بدقة وأجل الشراء كل مرّة لليوم التالي، "لا بأس!" قالت لنفسها وأكملت: "إذا اقتصر وجوده في حياتها الفترة القادمة على شراء هذه القائمة فلا بأس دستها في حقيقتها بلا اكتراث. ضاحكت أولادها قليلاً وفضلت أن تسرع للمطار.

كان الوداع مؤلماً. للمرة الأولى تشعر بحضن أولادها عميقاً يغوص في ضلوعها. تمسكت، كتمت البكاء وحولته لمزاح وضحك، ثم قبلتهم بحرارة. شعرت بثقل خطواتها وهي تمر من بوابة التفتيش. التفتت من الداخل ولوحت بوجه أجبرته على الابتسام. كان حاتم أكثر صخباً وضحكاً، بينما فاض حزن في عيني رانيا. أما فاروق، فكان مثل عمود حجري متتصب وبارد، لا يلفت انتباه أحد.

* * *

الانتظار القصير أشقاها. أرادت أن تتسلل من أفكارها القابعة معها في المكان نفسه، قامت تتأمل المحلات وهي لا تتوи شراء أي شيء، كانت تتسم وتهز رأسها في وجه البائعات اللاتي يتسمن تلك الابتسامة السطحية الممنوعة لكل عابر في محاولة منهن لجذبه للشراء. اكتشفت أن أفكارها تتبعها أينما ذهبت. تمسكت. نظرت في ساعتها وفي شاشات جداول السفر وظللت تتلكلأ في مرات السوق الحرة، دون أن ترى شيئاً إلا صورة رانيا وحاتم.

"تعلن شركة مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم 797 المتجهة إلى فيينا. على حضرات السادة الركاب التوجه إلى صالة السفر رقم 7"

سماعها للرقم 797 أدخل فيها إحساساً بالاطمئنان، إحساساً غدّته الأسابيع القليلة الماضية، الرقم الرامز إلى التحليق نحو جنة تتوق إليها؛ تتوقعها وتخشاها في آنٍ. حتى رقم صالة السفر في تلك اللحظة كان يمثل

آدم. قالت في نفسها:

"يا رب! إن طيفه يحوم حولي منذ بدء قراري بالسفر إليه، هل يا ترى أعيش وهما ساذجاً أم هي أقدار رتبها الآلهة بقدر ليس فيه عشواء ولا صدفة؟"

توجهت للبوابة رقم 7. اتصلت تليفونياً لتسمع صوت ولديها. وجلست في يدها جواز السفر وكعب التذكرة عليه رقم الرحلة ورقم المقعد. كان كل جسمها وعاء رقيقاً من الدموع يتظاهر وخزة. أخرجت من حقيبتها الشال الحريري الأزرق، الفاقع ذا المفاتيح والعلامات الموسيقية الذي أهدتها إيه آدم في الزيارة الأخيرة في المطار. تأملته وهي تستعيد ذاك اليوم بحنين كبير. ارتعشت وهي ترى رقم 7 عليه. رفعته وربطت به عنقها فشعرت بدبء يحتويها لبعض الوقت.

حين ارتفعت الطائرة عن الأرض هاجمتها الوخزات، رشح منها الأسني واللحسين. كانت المشاعر المتباينة تعلو بها وتختفي، تسربت الدموع ساخنة. أصقت رأسها بنافذة الطائرة وهي ترى أرض مصر من على. ترى اللون الصحراوي الباهت والأخضر المغبى في طبقة رمادية ناسبت روتها وحزن انخلاعها إلى الفضاء. رأت آثارها على هذه الأرض وحزنت أن لا أحد غيرها يرى آثارها عليها، ولا أحد سيتألم لغيابها إلا ولديها، وإذا قضيا إجازة ممتعة فلن يتذكرها إلا للحظات. حاولت أن تشغل نفسها بقراءة الجريدة لكنها ظلت ثابتة على الصفحة الأولى، تقرأ العناوين العريضة مرات دون استيعاب، فضلت متابعة الفيلم المعروض

الذي لم تتبه لعنوانه، بعد دقائق ملت منه، ثم اكتشفت أنها لم تأكل شيئاً من وجبتها التي بردت قبل أن تدرك أن المضيفة وضعتها أمامها منذ فترة، فأعادتها شاكرة. واستسلمت للتفكير في عبارة (أنت حرة) مرة أخرى.

وسط السحاب تغبشت ملامح الأرض ثم اختفت وتاب الأفق. بقي الفضاء الرحيب بسطوته. تدخل الطائرة في دهاليز الغيمات من غيمة إلى أخرى كأنها تغسل في فضاء السموات. استسلمت بعد لحظات لهذا العبور الكوني المهيّب، أحسست براحة، وبدأت تستعيد ملامح محطات حياتها دون ترتيب. أغلقت عينيها وأخذت السماة وحولت بين المحطات، فوقفت عند أغنية أسرت في عروقها سكينة وجرت منها البسمة الأولى الحقيقة، كانت أغنية لأم كلثوم:

قربك نعيم الروح والعين
ونظرتك سحر وإلهام
وبسمتك فرحة قلبين
عايشين على الأمل البسام

ارتاحت للأغنية واسترخت حتى نامت.

في نعاسها تبدى لها الحلم القديم بصورة رائقة سماوية متحركة. الحلم نفسه يتكرر بشكل أكثر بهاء هذه المرة:

رأت نفسها تقوم من نومها الترتفع نحو الفضاء، حافية تسير بخفة فوق السحابات بقميص نوم أبيض سماوي، ظلت تتقلّل من سحابة لأخرى بقفزات طويلة رشيقه كالغزاله كأنها في حقل قطن ناصع البياض، يتلقى هبوطها عليه برفق، ظلت تسير في هيوم السحابات وتشكيلاتها، حتى

وقفت أمام جدار شفاف صلب من الجليد لم تتمكن من عبوره لكنها كانت ترى ما خلفه، منظرا خلاباً ذا خضرة ترهي النفس. ظلت لوقت طويول تبحث عن مدخل من هذا الجدار وهي منبهرة بالنظر الداخلي، وتمنى أن تدخل إليه. فجأة ذابت أمامها طاقة دائرة سمح لها بالدخول. دخلت، أول ما شعرت به هو الدفء، بخلاف مكانها الذي كانت به في الخارج. في الداخل رأت في الفضاء كوكباً يشبه البدر في نوره، لا يؤلم العين عند النظر إليه، له طبيعة الشمس في دفء الشعاع. كان أمامها مرج فسيح مغطى بعشب ندي أخضر، في درجة اخضرار مذهلة لم ترها من قبل. ينحدر انحداراً مريحاً نحو أفق من هضاب يضاء من الثلوج، في بطنه بحيرة فiroزية اللون. مياه متلائمة، تحت أشعة الكوكب تسرب من بين فروع أجمة أشجار يضاء تنهادى مع الريح في الناحية الأخرى. هكذا، وجدت نفسها في مكان عجيب باعث على السكينة، مكان شعرت أنه يشبهها ويتناهياً لتكمله. شعرت بألفة في المكان حاولت أن تذكر أين رأته من قبل؛ فهو يبدو مألوفاً لها، لا تذكر متى وأين زارتة من قبل، تحولت هنا وهناك تكتشفه متتابعة تغريد طيور يضاء لم تتبه لتواجدها بهذا العدد الكبير ولا بأشكالها البدعة. تراها للمرة الأولى، حتى قادتها قدماتها إلى مكان ظليل بين ورود يغلب عليها اللون الأبيض والأزرق السماوي في وسطه أرجوحة، اعتلتها وبدأت في التأرجح، روادها للحظة أنها هي الثابتة والكون تحت قدميها هو الذي يتأرجح. رمت نفسها بخفة من على الأرجوحة وتركت جسمها يتدرج على العشب الطري حتى مياه البحيرة، وقرب حافتها اغترفت

من مياها غرفة، بللت بها وجهها، شعرت بدفع الماء على وجهها. ثم بدأت في الرقص بلا انتظار، خلعت رداءها وطوطحت به بعيداً، لتجرب الرقص عارية.

الأفعال في الأحلام لا تخسب بمعايير الصحو، عري الأحلام ليس مخجلاً ولا عيباً ولا يترك في الشخص شعوراً بالخزي أو الخجل، العجيب أن الأحلام يغلب عليها عادة أحاسيس الخوف والذعر أو البهجة والارتياح. تحررت من ردائها في بساطة، رفعت رأسها إلى الفضاء الأعلى ودارت حول نفسها، كان الفضاء يدور في ألوان من البياض، كان كل شيء يضحك بصوت يثير البهجة في الروح، تكاد تسمع أصوات كل شيء: هسيس ريح وخرير ماء وحفيظ أوراق شجر، صدح طيور، أصوات حيوانات أليفة غير مرئية، انتبهت إلى صوت يناديها باسمها؛ صوت تكاد توافق أنها تعرفه جيداً، أفرحها سماعه وتوجهت نحوه كالمسحورة مسيرة لم تأبه بغيرها؛ حين كادت تقترب من الصوت وتتعرف على المنادي، شمت رائحة تعرفها جيداً، الصوت ما زال يناديها من وسط ضباب ينقشع. فجأة تلاشت كل الأصوات في لحظة، سمعت باب الحلم يوصد. استيقظت على صوت الإعلام الداخلي للطائرة يدعو المسافرين لضبط المقاعد استعداداً للهبوط. كانت مازالت عالقة في تهاويم الحلم تبحث عن ملامع المنادي. عبر النافذة تأملت تلك المستطيلات والربعات التي تشبه سجاجيد خضراء ممتدة. والبيوت الملصومة معاً في فصوص كعنقود عنب وأخرى متند في أشكال هندسية دائرية مرکزها بناء ضخم، خمنت أنها كنيسة أو قصر،

و تلك الأنهر المترعة بأذرعها العديدة. و خطوط الشوارع الواضحة، وبقع سماوية متعددة الأشكال والأحجام لحمامات سباحة خاصة دخل البيوت. صارت الملامح تتضح أكثر والطائرة تهبط.

لم يطرأ على ذهنها قبل أن تمس العجلات أرض المطار سوى حاتم ورانيا.

خرجت من الطائرة مباشرة إلى الممر الطويل المضاء نهاراً بأضواء قوية. مرت من الحواجز بسهولة، قبل أن تصل إلى حقيقتها وتجذبها من السير الدائري، وتخرج.

مفاجأة غير متوقعة كانت بانتظارها، وجدت آدم بصحبة ياسين في المطار لاستقبالها. أمنية لم تفكّر حتى في جلب متعتها إلى ذهنها لا قبل السفر ولا أثناءه. ارتباك وفرح وقلق وتذكّر وحنين وتعجل وبطء؛ جملة مشاعر اجتاحتها في لحظة واحدة، فكادت قدرتها على الوقوف تنهار، جرت الخطوات القليلة وارتمت في حضن ياسين محمضة العينين، أما خيالها فلم يكن يرى سوى آدم في وقته جوار أخيها بانتظار مصافحتها. تخوفت أن تعتد لحظات تخيلها فرفعت جفنيها، ومدت يدها إلى آدم سلمت عليه، ونسى يدها قليلاً في يده، ثم سحبتها ببطء. انتبهت إلى أنه ينظر إلى عنقها، فارتقت يدها بتلقائية لتلمس الشال الحريري الأزرق؛ هدية آدم لها آنذاك في المطار. ابتسم ابتسامة كمن يمنحها قبلة لقاء قبل أن يأخذ عنها حقيقة يدها. سارت متخففة من

أحمالها، ثقيلة بالمشاعر، ترد على كل أسئلة ياسين بكلمة واحدة:

"الحمد لله بخير!"

تعرف أنه يسأل عن كل أفراد العائلة واحداً واحداً. سيرها على يسار ياسين والاثنان إلى يمينها، يسّر لها أن تخطف بعض النظرات من آدم في الجوار. كرر آدم سؤاله عن الأهل في الإجمال وعن أحوالها وعملها حتى يتمكن من النظر إليها. رأسيارة آدم. وجلس ياسين إلى جواره في الأمام فارتاحت ليلى في الخلف. تعلقت به طوال الطريق، لكنها أجرت نفسها على النظر إلى ياسين وهي لا تراه بل طيف السائق كان الأكثر سطوة عليها. على المرأة الداخلية كانت عيناً آدم تركزان عليها كل برها. الطريق بدا قصيراً لها. اكتشفت هذا عندما توقفت السيارة وأعلن ياسين عن وصولهم. ربما بدا الطريق كذلك لأن نظرته أشعرتها بدعة وطمأنينة، رغم الصمت الغالب شعرت بأنوثتها باذخة في حضوره. ودعّته وشكرته على توصيلها ودعاه ياسين على العداء في اليوم التالي، اعتذر لعدم رغبته في إرباك يومهم واحتفائهم بالضيافة. لكن إصرار ياسين وعيناً ليلي اللذان حملـاً ألف رجاء له بأن يقبل، دون أن تنطق بحرف، وكأنه قرأ ما في ذهنها. رد بالموافقة!

صعدت ليلى متزرعة نفسها من أحاسيسها، سلمت على فاطمة احتضنت عبد الله واحتتوه في صدرها وقبلته بفرح وسعادة حقيقة. وراحت تبحث في ملامحه عن ملامح ياسين أو حتى عن أشباحه له في

العائلة. جهز لها التليفون للتصل بالعائلة تطمئنها على سلامتها وصوتها، ثم استأذنت لتدخل الحمام. اختلت بنفسها وسط مشاعر لم تعرف لها اسمًا ولا تصريفاً إلا بكاء حار فتحت الصنبور ليطغى صوت المياه على صوتها شبه المكتوم. كانت المرأة تواجهها. ظلت تنظر إلى صورتها وتبكي، كانت هناك من تبكي معها؛ من تشاركها تلك اللوعة والحنين والفقد وارتباك المشاعر والإحساس بذنب لا تعرفه، مضفورة بارتياح وسکينة وضجر واغتراب. تركت نفسها تماماً ماعتمل بداخلها، لارتباك المشاعر الذي لم يكن له تصريف سوى الدموع التي اثالت حارّة تغسل ما بداخلها، وبعد أن انتهت غسلت وجهها بماء بارد واستعادت فقط ملامح الوجه المرهق من السفر وخرجت للعشاء.

أثناء تجهيز فاطمة للعشاء أخرجت ليلي الهدايا التي أحضرتها لهم معها من مصر. أخرجت لياسين حجراً صغيراً وقالت له:

"هذا الحجر لك يا ياسين، لكنه يريد أن يعود لمصر معك.
يعيش لمدة عامين فقط في الغربة ثم يموت، الذنب ذنب لو
مات هنا!"

كانت قد خاطت نفسها طقماً جميلاً لعبد الله، من القطن المصري الناعم، وقدمت لفاطمة حلقاً وسواراً فضياً. كما أحضرت لياسين - بناء على طلبه - كمية من الأطباق المكتوب عليها آيات قرآنية، وسجادة ومسبحة.

جلسوا بعد العشاء يحكون قليلاً عن أشياء كثيرة لا رابط فيها، كل ما

يطرأ على الذهن كان يخرج في أسئلة قصيرة وردود سريعة. ثم استأذنا لأنهما تعودا على النوم المبكر، ودخلت غرفتها التي جهزها لها. تأملت عناوين الكتب في المكتبة وفتحت التلفزيون وأغلقته ثم فتحته وتركت الصوت خفيا للغاية. سمعت بكاء عبد الله فابتسمت. تذكرت حاتم ورانيا، تمنت لو تستطيع أن تحادثهما مرة أخرى. ذهبت إلى الحمام وأخذت حماما ساخنا. في البانيو راحت بآفكارها في عالم بعيد عنها قريب من ذهنها. تستغرب أن ثلاثة أشخاص يلحوون على ذاكرتها طوال الوقت بصورتهم: رانيا وحاتم وآدم. تتذكر غيرهم بالتأكيد، لكن صور الآخرين تبدو بلا ملامح واضحة، مجرد أسماء لأشخاص تعرفهم تحتوي ذاكرتها على صور مهزوزة لهم أو باهتة.

فكرت أنه من الأفضل أن يكون لديها تليفونها الخاص، لا للتصل بحاتم ورانيا متى أرادت، بل لتمنح القدر فرصة ليشاغبها، هي ربما في هذه اللحظة تمنت أن تهدي آدم طريقا سهلا يسلكه إليها. عندما فكرت هكذا ابتسمت، لا شيء غير إحساسها بأن قدرتها على الحب أو المغامرة تعود إليها، لذا قررت أن تخاطب ياسين لتشتري شريحة برقم محملي.

حاولت أن تلهي بشيء ما، تذكرت الجريدة المصرية التي كانت معها في الطائرة، فأخر جتها من حقيبة يدها وفتحتها لتقرأ ما فيها، لكنها لم تستطع التركيز في أي شيء. سرح ذهنها إلى السفر والطائرة والحلم. عند مغازلة الحلم لها؛ فضلت أن تستغل الفرصة وتذهب معه لسريرها ربما يساعدها ذلك على النوم. أطفأت الأنوار. شعرت بالسرير الوثير تحتها

مرحبا للغاية لكنها مؤمنة أن الأسرة كي تكون مريحة يجب أن تكون مألوفة تماما، فالآلفة تستدرج الأحلام، وعليها يخلع المرء تعبه ويعوض في عالم آخر بعيدا عن أرض الواقع. حاولت أن تراود الأحلام، لكن مثل هذه الأحلام لا تقبل الغلظة أو الإجبار. بعد إرهاق طويل وتقلب متكرر لم تقدر أن تخذع الأحلام ولكنها خدعت للنوم. في الصباح استيقظت على صوت فاطمة توقظها لنفطر معهما. قامت وأخذت دشا سريعا. ثم عادت لتحمل عبد الله وتداعبه. فرحت كثيرا أنه ألف صوتها فورا وأهدأها ابتسamas لا تحصى. استراح كل من ياسين وفاطمة للمشهد، واطمأنا لمهمة الأيام القادمة.

قال لها ياسين بطريقة عملية سريعة:

"قررنا أنا وفاطمة أن تكوني مع عبد الله من الاثنين للجمعة، ولنك الحرية في نهاية الأسبوع، لتخرجي وتفعلين ما تشائين. طبعا سنتخرج خلال الأسبوع أيضا، وقد نقوم بعض الرحلات معًا، لكن نهاية الأسبوع ستتحدين من هم عبد الله."

"هذا جميل ويناسبني، ليست هناك أي مشكلة!"

تابعت فاطمة:

"صحيح نحن في عطلة دراسية الآن، لكن الدراسات العليا لا تعرف بعطلات، سأعمل طوال الأسبوع هنا وفي بعض المكتبات، سأكون أيضا قريبة منكما."

"لا بأس، سأجعل عبد الله يبكي ويضحك ويعطس بالعربية بعد أسبوع!"

انشغلت ليلي مع فاطمة في التعرف على كل الأشياء الضرورية التي ستحتاجها في الشقة، تابعها ياسين ببعض الملاحظات الإضافية. كان ذهنهما مشتتاً في انتظار الغداء بكل ترقب. ولم تكن جائعة لكن جوعا آخر كانت تشعر به. ساعدت فاطمة قليلاً في تحضير الطعام واللعب مع عبد الله واسترجاع بعض الحكايات القديمة لياسين. وجدته في أقصى حالات الفرح الطفولية حين ذكرته ببعض الأمكنة والأحداث القديمة بل وبعض الأشخاص الذين نسيهم، حتى الشيخ عزوز لم تنسه، استعرضت أمام أخيها شخصيته كرسم كاريكاتوري مضحك، ونعته لأول مرة بما كانت تخزن له طيلة الأعوام السابقة:

"هل تذكر الشيخ عزوز؟"

"ومن لا يذكره.. رجل متدين يعرف الله!"

تمادت في التصريح قائلة:

"تدين ظاهري.. لكنه لا يفتأً يتحرش بمؤخرات الفتيات الصغيرات إذا أتيح له هذا!"

"كيف تقولين هذا الكلام؟ هذه جرأة لا ينبغي أن تستخدمنها عند التحدث عنه!"

لم تستطع أن تخبره أنه استخدمها لإشباع رغباته - ربما - أكثر من

مرة، حتى اكتشفت فيما بعد، عندما دلتها أنوثتها أن ما يفعله يسمى تحرشاً، أو بلفظ أقل حدة انتهاكاً. فجأة تغير ياسين تماماً، وبدا ذاك الآخر الذي كان يظهر لها في السابق، فلا تعرف منهنما أخوها. صمتت ولم تستطع أن تكمل الحوار. اعتقدت أن هذا التذكير وهذه الروح المنشحة التي بدت منه ستبقى طويلاً، لكنها ستكشف من الآن وخلال الأيام القادمة أن الكآبة أصبحت أصلية في شخصيته، والبهجة هي الاستثناء، وقد تكون منحصرة في أوقات تذكر الماضي. كأنه يرفض ما ي behge باعتبار الفرح نقىض التدين. حتى نضحت ساحتته علامح سخط وبدا على طبعه قلة المزاح. غالب على كلامه تزمرت ديني لم يكن موجوداً في السابق. تعقيباته الدينية عن كل شيء تخرج في المناسب وغير المناسب. خمنت أن مكان عمله قد طبعه إلى حد كبير بهذه المسحة التي ضاع منها هذا التسامح والمزاح خفيف الظل. حتى أنه غضب منها يوماً غضباً متفرجاً حين تفوّهت بدعابة ساخرة على مبالغات المُتدينين، قائلة: "هل تصدق يا ياسين أن هناك فتوى سمعتها من شيوخ الفضائيات تجيز للحجاج رمي الجمرات بالنبيلة؟" فرد بما جعل استفزازها ينطلق من مربطه: "شيوخ الفضائيات يا ليلي؟ لماذا أستشعر السخرية من كلامك كلما تحدثت عن الدين؟" صدمت من رد فعله لأنها اعتقدت للحظة أنه سيندهش من محتوى الفتوى فأكملت حتى تتأكد: "هناك فتوى أخرى أيضاً استفزني؛ عن ضرورة إرضاع المرأة لزميلها في العمل كي يصبح محراً لها ولا يبقى لوجوده معها في الغرفة أي شبهة!" فما كان منه إلا أن أعلن استياءه لسخريتها من رجال الدين!

وشعرت أنه أخذها مأخذ الجد واعتبر نفسه مقصوداً بكلامها بشكل غير مباشر. ظل متربما طوال اليوم، والمشير في الأمر أن هذه الفتوى نفسها التي ذكرتها ليلى، قالها هو ذات يوم في مصر. بينما كانت فاطمة غارقة في الضحك من قلبها على هذا الشطط.

دق جرس البوابة الخارجية ورفع ياسين السماعة مرحباً بآدم. سقطت الملاعق من يد ليلى، للملتها وغسلتها وأعادتها للمائدة وظلت متوتة. دخل آدم أنيقاً كعادته ضاحكاً. قدم باقة من ورود الفلامينجو لفاطمة، أهدى لليلى شقائق النعمان. يعرف أنها تفهم في أنواع الزهور ومعانيها. داعب عبد الله بكلمات عربية. ثم بادر ليلى بسؤال إن كان لديها جهاز موبايل. قالت نعم. فقال إنه اشتري لها شريحة برقم محلي واقتني لها رصيداً يمكنها من بعض الاتصالات الخارجية للاتصال بمحاتم ورانيا وقتما ت يريد. نظرت إليه بدھشة، هل اطلع على ما فكرت فيه ليلة أمس؟ أم ترى كانت لديه الرغبة نفسها؟ تمهد طريق يوصل كلاً منها بالآخر! كم كانت ممتنة له! كادت تقف وتقبله على لفته، بينما تجاهل ياسين الحال وشكّره بفتور لا يتناسب مع فعله، ذاكر الله أسماء الشركات الرخيصة التي يمكن الاتصال بها من تليفون البيت الثابت، لكن آدم لم يذكر له أنه بواسطة هذا "الموبايل بإمكانها الاتصال في أي وقت شاءت ومن أي مكان.

بعد الغداء ساعدها في وضع الشريحة الجديدة، قال لها:

"لديك الآن رقم جديد، فضل أن يكون سهلاً عليك للحفظ والذكر، ورقمك هو كالتالي: ياسين، آدم، ياسين، آدم، مصر

للطيران! سأكتب لك في ورقة لكن عليك أن تحفظي هذه الصيغة.
هيا كوريا"

"ياسين، آدم، ياسين، آدم، مصر للطيران! لكن ما معنى هذا؟"

سؤاله ليلي وهي تضحك باستغراب، كان استغراب وفضول ياسين
وفاطمة أكبر. سجل لها الرقم وهو يتسم قائلاً:

"كود الشركة لن تسيه، قصدت ياسين هو رقم الحي الذي
يسكنه وهو ٢ ثم ٧ وهو الحي الذي أسكن فيه ثم رقم رحلتك
إلى فيينا ٧٩٧ يعني رقمك ٢٧٢٧٧٩٧، أعتقد أن هذا رقم سهل
الحفظ؟"

اندهش الجميع فقطع آدم دهشتهم قائلاً:

"الدبي صديق يعمل في شركة (رنج) للاتصالات ويمكنه منح
وتسجيل أرقام جديدة غير موجودة، وقد طلبت منه رقماً سهلاً
هو رقمك الآن!"

نقل لها أرقامها من الشريحة، كان رقمه موجوداً ضمن الأرقام، رغم
أنها لم تجرؤ مرة على الاتصال به من مصر. عرض عليهم بعد تناول الطعام
المخروج للتمشية على جزيرة الدانوب، تمنى من قلبها أن يرحب ياسين
بذلك، لكنه تقاعس وذكر أن ليلي مازالت مرهقة من رحلة الأمس. لم
تشأ هي أن تخرج كذبته وتبدى رغبتها. صمتت. لكن ياسين تدارك:

"ليكن في الغد أفضل!"

"ليكن الغد إذن!"

رد آدم ثم بدأ يسرد على ليلي بطريقة لطيفة للأشياء التي ينبغي عليها أن تزورها في فيينا والأماكن خارج فيينا. قاطع ياسين مخاطباً آدم:

"إن فترتها للأسف قصيرة لم ترغب إلا في القاء إلا لستة
أسابيع!"

ونظر نحو ليلي متابعاً:

"يمكثي أن أمدّها لك من هنا لو أردت!"

قالت:

"تكفي نهايات الأسبوع لرؤية الكثير في فيينا!"

انصرف آدم ومرةً المساء هادئاً، ليلاً اتصلت ليلي بفاروق وبالأولاد للطمأننان قبل سفرهم. فجاءها صوت حاتم ورانياً مبتهجاً، مما جعلها تنفس إحساس الذنب الذي شعرت به تجاههما، ثم حاولت الاسترخاء للتخلص من الإحساس المربيك الذي يلازمها كلما تواجدت في مكان جديد. هب عليها طيف آدم كملائكة جاء ليطيب الروح. فكرت أن تتصل به - على الأقل - لتشكره. مدت يدها إلى الهاتف وضغطت على رقم هاتفه قبل أن تنسحب جرأتها مجدداً، رن جرس التليفون:

"آلو مرحبا يا ليلي!"

"هل أزعجك في هذا الوقت المتأخر؟"

"يسعدني اتصالك كثيراً!"

ارتبتكت لأنها لم توقع أن يعرفها فوراً وهمست كمن أيقظته من النوم،
لكن رده أعاد لها ثقتها وارتباحها، تابعت:

"أحببت أنأشكرك مرتين.. مرة على استقبالك لي في المطار
ومرة على لطفك بإحضار شريحة تليفون خاصة بي!"

"لا تقولي هذا!"

كانت وجنتها تحمران وتنضح بشرتها بسخونة خفيفة كالعذراوات،
أكملت حتى لا يكتشف خجلها:

"هذه لفترة حساسة منك!"

"هل أنت خجولة من حديثنا؟"

سألها ولم ينتظر إجابة، كأنه يراها، ويسعد بهذا الخجل الأنثوي النادر
ثم أكمل:

"أنا سعيد بحضورك إلى فيينا.

قال جملته وصمت، كان صمته حوار مشحون بكل ما لم يقله، حوار
مقصود وخاص، لا تصلح له سوى تلك المساحة الفارغة من الكلام؛
مساحة مليئة ببياض الترقب. هي أيضاً بادلته الصمت، اكتفت بما تشعر
به، حتى إذا لم يكن حقيقة، مستمتعة بقدرة روحها على الشعور. مثل تلك
المشاعر، وقبل أن تنطق باغتها باجابة لسؤال لم تُقله، عندما قال:

"أقني ذلك!"

حاولت أن تسأله عما يتنبه لكتها لم تفعل، فأجابت على سؤال لم يقله:

"نعم أريد أن أزور المتحف!"

فضحك كثيرا قبل أن يقول:

"بالتأكيد لديك أمكنة بعينها ترغبين في رؤيتها!"

"نعم.. أقني زيارة قصر الشونيرون مرة أخرى!"

أجبت بكلمات قصيرة لكتها حاوية:

"وغير ذلك؟ يمكننا أن نبدأ من السبت القادم!"

"شكرا آدم!"

ساد صمت مجددا، ثم انتابت ليلي حالة من البكاء، لم تستطع أن تؤجلها. كانت تشعر أن البكاء في حضرة رجل كآدم نوع من البوح، أو التظاهر، لم تشغل بها كثيرا، كم هي ستراتاح إذا بكت في حضرته على الطرف الآخر من السماuga، وعندما أدرك آدم بلل دمعاتها، لم يحرجها بالسؤال بل تكلم ليسد ثغرة الشجن التي اجتاحتها:

"هذه أروع الأيام للخروج والاستمتاع. ثقي بالوقت يا ليلي، ربما يدخل لك لحظات سعادة لا تتوقعينها."

ثم تابع سريعاً:

"أراكم في الغد كما اتفقنا!"

ردت بخفوت شديد ووجهها يتسم:

"وهو كذلك!"

ما إن أغلقت ليلي الهاتف حتى تركت ليكائنا العنان، أرادت أن تخلص من شحنة انفعالات مكتومة لا يساعد الكلام على تحريرها. بينما هناك على الجانب الآخر في المدينة نفسها تقلب آدم في سريره. كان قلقا عليها. يشعر أن حكاية ما كانت مؤجلة بينه وبينها تبدأ في ممارسة الحياة الآن، وأن دوره محظوظ فيها مهما قاوم. تقلب مرات في سريره. الحلم الذي كتمه لأيام ولم يرغب في أن يفلته من معقله. يتسرّب الآن منه، كلوج ثلج نسي بالخطأ في الشمس. يذوب الحلم النائم في ثلجه الآن وتتسرب حكاياته كجدول رفراق. الحلم يتصدر ذهنه كأنه مر منذ لحظة: الركض خلفها، تهرّبها بإثارة وتدلّل، ضحكتها، صعودها شجرة المانجو، لمسها. عينه التي لم تفارقها. أنفاسها المتهدجة ثم أنفاسه. بذات الصوت الفرح القديم يصبح:

"يا إلهي.. هل هذا معقول؟ ليلي هنا الآن، هنا في فيينا"

نهض ليقف في الشرفة. تذكر ملامحها، ملامح الأمس في المطار وأثناء الغداء. بدت بهية وجميلة. كل تصرفاتها تروق له؛ صوتها، طريقة حديثها، لفانتها، نظرتها الفاتنة الحية. يعرف أنها متزوجة وتحب أولادها.

لا يعرف الكثير عن فاروق، لكنه رأه في رحلته في فيينا، مختلفاً تماماً عنها في كل تصرفاته. تعجب وقتها أنه لم يلحظ أي شيء يربطهما غير الأولاد. أحس أنها امرأة ممتلئة بطاقة وحيوية وفرح بالحياة، وأن روحها تخفي الكثير. لكنها تبدو سارحة في أغلب الأحيان. لاحظ أن شيئاً من الهم يغلف مشاعرها، أحس بهذا في زيارتها الأولى مع العائلة. ارتاح لها آنذاك كثيراً، لذا أراد في الرحلة الأولى أن يخفف عنها ويسعد أولادها ويكون لطيفاً مع فاروق، ويحفظ علاقه الصداقة بينه وبين ياسين التي تحولت مع الزمن لعشرة.

من المهلك أن تحب امرأة متزوجة، وأن تتظرها مثل شاطئ يتضرر موجة. يسحبها البحر إليه مهما أطل المكوث على الشاطئ؛ الشاطئ الذي ليس له سوى الانتظار والصبر وكثير من الوجع!

ظل آدم يراجع ذكرى زيارتها الأولى ويخلطها بالحلم وبالواقع ويتعجب من مسار الأقدار. لم يعرف ما تخبيه الأيام له، لكنه كان فياضاً بالتلهف والشجن والارتباك وكمية لا بأس بها من الشهاد. خرجت إليه إيزيس وتسحت في قدميه بطريقتها المألوفة، فأعادت في لحظة إلى الأرض أفكاره الهائمة في السماء. تنهد - وهو قليلاً ما ينهد - وهذا يعني الكثير. قال لنفسه قبل أن يدخل ويغلق الشرفة:

"ليتك حرة يا ليلى!"

* * *

في اليوم التالي كانت ليلى مستعدة للخروج مساء مع العائلة، شغوفة أكثر بروية آدم. ياسين دعا أهل فاطمة للعشاء معهم على شرف وجود ليلى، وأخيرهما كعادته في آخر لحظة. استاءت فاطمة من تصرفه. ليلى ابتلعت الخبر في صمت وداخلها كدر لم تفصح عنه. تأسف لآدم تليفونيا ودعاه للعشاء معهم، لكن آدم اعتذر في أدب بأنه يرغب في أن يتركهم على حريتهم. مرت الليلة رسمية إلى حد كبير في وجود أهل فاطمة، فهم برغم لطفهم الشديد يتصرفون برسمية كبيرة داخل بيت ابنته، ظلت ليلى سارحة بوجданها طوال الوقت في مكان آخر كانت تمنى الوجود فيه. في الليل، ضغطت على رقم هاتف آدم، ما إن رن جرس التليفون حتى رد على الفور؛ أفرحتها هذه اللهفة التي أحست بها، حدثت نفسها سرا:

"أجل هناك في هذا العالم من يتضرر، ومن كابد الشوق وصبر
أنصفته الأقدار!"

تحدثا كثيرا وقاطعا بعضهما مرات وكان الصمت البهيج بينهما أطول من الكلام؛ صمتا ناسب الانتظار، وترك الكلام المؤجل لوقته المناسب. ختمت ليلى كلامها بالقول:

"ليتك جئت يا آدم! لقد طبخت اليوم صينية مسقعة مصرية
بنفسي، ترور لها بالتأكيد!"

"هذه خيانة لا تغفر يا ليلى.. لابد من عقابك بأن تطبخي مثلها
مرة أخرى!"

مررت الأيام الأولى بيسر في بيت ياسين وفاطمة. باستثناء رهافة مشاعر البدايات التي غلبت تعاملهم معاً، ظل عبد الله طفلاً هادئاً يعيش اللعب بلا هواة مع ليلي ثم يخدع للنوم. فاطمة كانت مواظبة على زيارة المكتبات والأنكاب على أطروحة عن "تدنيس وتقديس الجسد في الفن والدين"، تناقشت مع ليلي عميقاً في هذا الموضوع. تعجبت فاطمة أن ليلي لديها خلفية لا يأس بها عن الموضوع من وجهة نظر الشرق والغرب. كان الوقت يمر لطيفاً مع عبد الله وشيقاً مع فاطمة وكثيراً في وجود ياسين.

منذ أن غادر ياسين القاهرة إلى فيينا بعد أن تأكد من وجود ليلي تحت جناح فاروق، ارتاح كأنه نقل عبئاً إلى مسئول شرعي عليه أن يكمل معها المهمة. سافر إلى أوروبا وتحقق رغبته بالهجرة بأي وسيلة، نزلت إليه ماريانة من السماء لتحقق له الأمنية الدفينة؛ هكذا ياسين منذ مولده، تتحقق رغباته بيسر دون عناء، واستطاعت شخصيته أن تمدد وتنكمش وفق ترمومتر داخلي، وعوامل خارجية مساعدة، ماريانة الجميلة وحيدة أبويها. سارت حياته معها في البداية موفقة رغم اعتماده على يسر عائلتها التي تمتلك محل جزارة، هو محل صغير ولكنهم يكسبون منه جيداً. ساعدته عائلتها بإخلاص وتوقعت منه مستقبلاً طيباً يناسب ابنتهما. عاش لفترة سعيداً معها وتزوجاً حتى قبل أن يجد أي عمل مناسب. لكنهم في المرات النادرة التي احتاجا فيها إلى وجوده ومساعدته في محل الجزارة أو نقل اللحوم كان يتهرب. خجل أن يعمل في محل الجزارة، لم يكن عنده مشكلة

مع لحم الخنزير أبداً، فهي ليست قضية عنده كما كان البعض يتخيّل، بل هو الخجل من المهنة، اعتبارها أقل من مستوىه.

ما أتعجب الأقدار! ياسين اليساري الاشتراكي الليبرالي التقدمي، يستنكف الآن أن يعمل في محل جزارة. الأصح أنه يستنكف العمل أصلاً، لم يكن يرى في عمل ماريـانـه في محل الجزارة أي خجل. استطاع بحـيـلـتـهـ أنـ يـجـدـ حـلاـ يـخـفـ عـنـهـ الـحـرـجـ، قـرـرـ أنـ يـسـتـكـمـلـ دراستـهـ فيـ جـامـعـةـ فيـيـنـاـ، وـاـخـتـارـ درـاسـةـ الـفـلـسـفـةـ، وـسـاعـدـتـهـ العـائـلـةـ وـمـارـيـانـهـ بـتـوـفـيرـ الـوقـتـ وـالـمـالـ، لـكـنـهـ لـمـ يـذـلـ جـهـدـهـ لـتـحـقـقـ هـدـفـهـ، لـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ هـدـفـاـ حـقـيقـيـاـ. لـمـ يـحـقـقـ فـيـ الجـامـعـةـ أـيـ تـقـدـمـ وـأـصـبـحـ المـوقـفـ مـحـرجـاـ لـهـ. تـرـكـ الـدـرـاسـةـ وـلـمـ يـقـيـمـ أـمـامـهـ إـلـاـ الـبـحـثـ بـجـدـيـةـ عـنـ عـمـلـ بـعـيـداـعـنـهـمـ أوـ مـسـاعـدـةـ العـائـلـةـ فـيـ مـحـلـهـ النـاجـحـ، وـلـكـيـ يـتـهـرـبـ مـنـ الـعـمـلـ فـيـ مـحـلـ الـجـازـارـةـ بـحـثـ بـالـفـعـلـ عـنـ عـمـلـ. لـمـ يـكـنـ لـهـ أـصـدـقـاءـ كـثـيـرـونـ. تـفـتـقـ ذـهـنـهـ أـنـ يـذـهـبـ إـلـىـ النـادـيـ الـمـصـرـيـ فـيـ فيـيـنـاـ الـذـيـ يـجـمـعـ جـالـيـةـ كـبـيـرـةـ مـنـ الـمـصـرـيـنـ. هـنـاكـ بـدـأـ يـقـضـيـ وـقـتاـ طـوـيـلاـ، لـمـ يـكـنـ يـقـصـدـ التـقـرـبـ إـلـىـ روـادـ النـادـيـ، هـوـ عـادـةـ يـمـنـحـ كـلـ مـاـ يـفـعـلـهـ سـبـبـاـ نـبـيـلاـ، رـبـماـ اـعـتـقـدـ وـهـ يـفـعـلـ هـذـاـ أـنـهـ يـجـبـ أـنـ يـمـنـحـ وـلـاءـ لـلـمـصـرـيـنـ الـمـقـيـمـينـ فـيـ فيـيـنـاـ كـنـوـعـ مـنـ الـوطـنـيـةـ وـإـعـلـاءـ رـوـحـ الـانـتمـاءـ، كـمـاـ كـانـ يـعـتـقـدـ أـيـضاـ أـنـهـ مـاـ اـبـتـدـعـ عـنـ الـعـمـلـ مـعـ أـهـلـ زـوـجـتـهـ فـيـ مـحـلـ الـجـازـارـةـ إـلـاـ لـأـنـ هـذـاـ شـأنـ عـائـلـيـ يـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ بـعـنـائـيـ عـنـهـ. لـمـ يـكـنـ غـرـيـباـ أـنـ يـصـدـقـهـ الـآخـرـونـ، الغـرـيبـ أـنـهـ كـانـ بـعـدـ حـينـ يـصـدـقـ تـبـرـيرـاتـهـ وـقـدـ يـجـادـلـ مـنـ يـوـاجـهـهـ وـيـتـهـمـهـ بـسـوءـ الـفـهـمـ. ظـلـ يـسـهـرـ وـيـلـعـبـ الطـاـولـةـ

أو الدومينو والشطرنج ويستمع إلى أغاني أم كلثوم وتلاوة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ويتابع مباريات كرة القدم، ثم بدأ للمرة الأولى في عمره يشاركون -من وجهة النظر نفسها- في صلاة الجمعة هناك. توطدت علاقته مع الوقت البعض، فقدموا له المساعدة التي تمناها، استطاع أن يعمل في إحدى السفارات النفطية كمترجم، ثم تحول عمله مع الوقت من مترجم إلى سائق، ومتجم، ثم إلى سائق ومتجم وجالب للطلبات ونقل ما يحتاجون إليه؛ ففي كل مرة يستغدون فيها عن عامل أو موظف، يقسمون العمل على بقية الموجودين، ومن يتذمر منهم يتم استبداله فوراً، دون أي حقوق، ووفقاً للعقد الساري بين الطرفين الذي لا يضمن أي تأمينات اجتماعية ولا أي حق بالمعاشات. كانوا يعاملونه معاملة سخرة. المرتب زهيد للغاية مقارنة باسم المنصب. مع الوقت بدأ يؤكّد ولاءه لهم شكلاً وموضوعاً. طالت ذفنه وبدأ للمرة الأولى يضمن ردوده أحاديث وسوراً يحفظها، واستغنى فجأة عن كل الأقوال الفلسفية واليسارية التي كانت على لسانه كاللوشم. لقي بهذا التحول رضا صاحب العمل بجدارة، فكلّفه بكتابة مقالة مطولة مؤيدة بالصور في إحدى مجلات البلاد، لشخصية الشهر، وشخصية الشهر هذه هي أي شخصية نساوية تحولت إلى الإسلام، يلتقي بها ويحاورها ويكتب مقدمة فاقعة عن هذا التحول النوراني، مشيراً إلى أن العالم يتحول تدريجياً إلى الطريق الصحيح، مع تضمين النص أن هذه الأعداد في تزايد ملحوظ وأنه خلال نصف قرن سيتحول نصف أوروبا للإسلام. كانت مثل هذه الأخبار تلقى صدى عالياً في الدول الإسلامية وتحصص

لها برامج أخرى إضافية لإلقاء الأضواء على الاختراق العظيم، وهكذا أصبحت بعض السفارات تعتقد أن من صلب عملها كسب بعض هؤلاء المتحولين في صفتها، حتى لو جهلوها كل شيء عن هذا الدين الجديد؛ فالانضمام وحده يكفي ويزيد!

ثم حدثت المشكلة التي استعان ياسين حلها بليلي في مصر، عندما اتصل بها في منتصف ليلة شتوية قارصة، لم يراع أنها نائمة في هذا الوقت، بل لم يراع أنها لا تعرف شيئاً عن أصل المشكلة، إنما أخبرها مجرد الاتصال بضرورة إقناع زوجته بالحجاب، حتى قبل أن تعتنق الإسلام! لم تفهم شيئاً، ولم يُرد لها أن تفهم أي شيء، كل ما كان يريده أن تؤدي له هذه المهمة دون الغوص في تفاصيل مشكلته، لكن ليلى اطلعت على كل شيء فيما بعد، واكتملت الصورة. بدأت المشكلة عندما انخرط ياسين في محيطه الجديد، واستطاع أن يكيف شخصيته لتلائم هذا التغيير، ثم طال التغيير شكله وهبته وكل ما له علاقة بتصرفاته، لكنهم أوزعوا إليه أن يُحجب زوجته النمساوية ماريانا بعد أن رأوها معه في أحد الاحتفالات سافرة على غير توقع. وعلى طريقتهم بالتدخل في الخصوصيات وتوجيه النقد غير المباشر له، بدأ الأمر يتعقد. حاول معها، فدب المسamar الأول في نعش العلاقة. حاول أن يقنعها بأهمية تغيير ديانتها. انزعجت وقالت له باحتجاج:

"هل تقبل أن تغير ديانتك؟"

فوجئ بالسؤال:

"هذا ارتداداً فضلاً عن ذلك لا يمكنني أن أغير ديانتي هكذا ببساطة!"

"وتصور أنه يمكنني أن أغير أنا ديانتي بكل بساطة؟!"

كعاده ياسين شعر بالبالغة، فحاول أن يؤجل الحديث في هذا النفق المظلم، لكنها أرادت أن يكمل حديثه معها للنهاية، ولا يغير الموضوع كل مرّة. في السابق استطاع أن ينهي أي حوار بينهما، لم يكن عليه سوى أن يقوم بتزديد بعض الجمل غير المتراقبة. كانت تنسحب من المناقشة وتنهيها، لأنـه - إضافة إلى جملـه غير المتراقبـة تلك - كان يقطع الحوار وقـتاً يـريـد ويـدـوـه بشـكـل آخر وقتـما أرادـ. لكنـ الأمر حـسـاسـ هـذـهـ المرـةـ أـكـثـرـ، خـصـوصـاًـ بـعـدـ أنـ تـجـسـسـواـ عـلـىـ عـمـلـ عـائـلـهـاـ فـيـ مـجـالـ الـجـزاـرـةـ، وـلـمـ يـعـجـبـهـمـ أـنـهـمـ مـتـخـصـصـونـ فـيـ بـيـعـ لـحـمـ الـخـنـزـيرـ بـالـتـحـديـدـ. جـربـواـ مـعـهـ أـنـ يـقـنـعـهـمـ بـأـنـ يـسـتـبـدـلـواـ بـيـعـ لـحـومـ الـخـنـازـيرـ بـيـعـ لـحـومـ الـبـقـرـ، عـلـىـ أـنـ يـقـدـمـواـ الـهـدـمـ مـقـابـلـ هـذـاـ التـنـازـلـ؛ أـنـ يـوـفـرـ لـهـمـ الـكـمـيـاتـ الـتـيـ تـسـتـهـلـكـهاـ السـفـارـةـ، وـعـنـدـمـاـ عـرـضـ الـأـمـرـ عـلـىـ أـبـيهـاـ رـفـضـ بـحـسـمـ، لـأـنـ الـأـمـرـ كـانـ مـسـأـلـةـ مـبـدـأـ. وـفـقـتـ هـيـ أـيـضاـ فـيـ مـقـدـمـةـ الرـفـضـ وـالـاحـجـاجـ. حـتـىـ وـصـلـ التـوتـرـ إـلـىـ مـنـتـهـاهـ.

حقـاـيلـيـ لمـ تـدـخـلـ وـقـتـذاـكـ، وـاعـتـرـتـ طـلـبـ يـاسـينـ مـنـهـاـ نـوعـاـ مـنـ العـتـهـ، أـغـلـقـتـ سـمـاعـةـ الـهـاـفـ وـنـسـيـتـ وـعـدـهـاـ لـهـ بـالـمـسـاعـدـةـ. كـانـتـ عـلـىـ ثـقـةـ أـنـ زـوـجـتـهـ لـنـ تـقـبـلـ تـدـخـلـهـاـ، وـلـنـ تـقـبـلـ الـحـجـابـ أـوـ تـغـيـرـ دـيـانـتـهـاـ بـهـذـهـ الطـرـيقـةـ السـاـذـجـةـ الـمـتـبـجـحةـ، خـاصـةـ وـأـنـ يـاسـينـ أـخـبـرـهـاـ فـيـ لـحظـةـ صـفـاءـ سـابـقـةـ، أـنـ

هؤلاء في السفاراة غير ورعين في الحقيقة، لكن التدين سبب أساسي للبقاء بعيداً عن أي خطر، لا يهم تناولهم للكحول ومعاشرة فتيات الليل، لا يهم خالفه الصوم أو ترك الصلاة إذا كان الأمر بعيداً عن العيون، الأهم لا يطلع أحد على الأفعال، لتظل مثل هذه التصرفات سراً لا يدرره أحد، حتى إذا تشكك الآخرون في أحد، فمن الممكن أن ينفيه، وأن يدعى أن ثمة حاذقين يتقولون عليه بما ليس فيه.

كانت طبيعة ياسين المسيطرة عليه هي استغراقه في الولاء لفكرة يؤيدها ظاهرياً ويعرف بحولها الكثير دون أن يقترب بها من داخله بصدق، حتى ينسى نفسه تماماً وينسى طموحاته وأفكاره. تغير بإفراط مع الوقت ساءت علاقته بها وبعائلتها، أهلها أيضاً شعروا أن جلده انسلاخ ولم يُعد ياسين القديم الذي تعرفوا عليه في القاهرة، هذا الشخص الذكي الحب لتراث بلده وتاريخه والمحافظ على أشياء كثيرة لو اهتم بها لما وصل الحال لما وصل إليه. ماريانه لم تتركه هكذا بسهولة. ظلت مُصرة على محاولاتها لاستعادة زوجها القديم وحياتها معه. كانت تحبه بصدق وتؤمن بقدراته أكثر منه ووقفت في صفة أمام أقاربها ووالديها حتى في أوقات عدم صوابه، لكنه خيب ظنها وأفحمنها، وكان سبباً في أصعب وجع مَرّ في تاريخها، حين خِيَرَها في صلف نهائي بين أن تغير دينها واسمها وتحجج أو أن ينفصلما. تجاوز بهذا التصرف كل الأعراف عند عائلتها، فلم يبق سوى الانفصال.

وكان البديل جاهزاً، بعد فترة قصيرة نصحه رئيسه في العمل بأن

يتزوج امرأة، كانت قد دخلت إلى الإسلام طوعية وغيرت اسمها من كريستا إلى فاطمة. كانت شخصية طيبة وطبيعتها الأصيلة لن تتغير تحت أي دين. تزوجها في المسجد، وهما معاً الآن منذ أربع سنوات. العجيب أنه ارتاح لهذا التغيير، نسي تاريخه الجميل مع ماريانا سريعاً، مرد راحتة كمن في تخلصه من طبيعة زوجته ورفض مجتمعه الجديد لها ولعائلتها وأسئلة العمل الفضولية عن زوجته إن كانت مسلمة أم لا

*

اعتمدت نيلي كل ليلة الاتصال بعائلتها. على الرغم من مشاعرها تجاه فاروق، وسعادتها الغامضة بوجود آدم قربها وصوته الذي يأتيها دافنا عبر الهاتف، كان يحز فيها تجاهل فاروق الاتصال بها. وكعادة الأنثى، كانت تُقرّعه أمام ياسين وتکيل عليه اللعنات، وتجدد أمامه وأمام زوجته رغبة دفينة في تعریته وإظهاره. يظهر من يتجاهل زوجته، ربما لتفرغ ياسين بشكل غير مباشر على ما فعله بها بتزويجه لها، هي لم تشغل بالها كثيراً ولم يؤنبها ضميرها على القيام بهذا، لأن فاروق فعلاً لم يكن يتصل بها، وربما لأن الاتصال بها كان سيكلفه رصيد هاتفه بالكامل إذا حدثها دقيقة واحدة، وهو رصيد كان سيكفيه شهراً كاماً إذا استخدمه للاتصال المحلي! لكنها كانت تتصل عند جدهما في الإسكندرية للاطمئنان على ولديها وعلى سير أمورهما. وبعد أن يريحها الاتصال نسبياً، تبقى ملامح قلق تهيم في غرفتها، فلا تشعر بالملاذ المريح لها إلا حين تتصل قبل النوم بآدم، الذي ما إن يَرْ رقمها على شاشة الموبايل حتى يغلق الخط ليتصل بها بنفسه. كان الاثنان يتظران عطلة نهاية

الأسبوع الأول كتلميذين ينتظران عطلة الصيف بلهفة. تفرع الحديث مرات عن أحداث يومهما وعن بعض المصطلحات والكلمات العامية التي مرت على ليلي في الراديو أو التلفزيون ومعانيها، فكان يضحك معها من نطقها للكلمات ويشرح لها، كما تعلمت من فاطمة الكثير من الكلمات والجمل العامية التي صارت تنطقها بطريقة مضحكة. هذا الاتصال الليلي خفف عنها هواجسها ووحدتها وجعلها تستريح قليلاً في نومها، لكنه لم يجعل آدم يشعر بالارتباط الكامل على الطرف الآخر من المدينة نفسها.

جاءت نهاية الأسبوع سريعة، لكن لسوء الحظ وكان الظروف تشاكسهما، كان هناك ضيوفاً طارئين على مؤتمر اضطر رياسين بسيبه أن يشارك الوفد في تنقلاته ويعمل يومي السبت والأحد. لم يعرف كيف يتصرف لأنّه وعد ليلي بالتنزه نهاية كلّ الأسبوع، ليحررها قليلاً من الالتزام برعاية عبد الله.

اعتذر رياسين مساء الخميس، وارتبتكت فاطمة، فهي وحدها لن تستطيع التصرف مع الطفل الصغير بالبقاء لأربع أو خمس ساعات معه خارج البيت. بادرت ليلي بحل مريح لهما من جانبيها:

"مازلت أذكر المدينة ولديُّ الخريطة إذا استدعي الأمر!"

في قرار نفسها ثمنت لو تقبل رياسين فكرة خروجها للتنزه بنفسها، أن يرحمها من عيني الصقر اللتين كانتا تربانها قديماً، لأنّها ارتكبت فعلًا فاضحاً، يريد أن يتتأكد مما فعلته بوضعها تحت مجهر مراقبته، ظلت بقایا

هذا الإحساس تلازمها كلما خرجا معها، للحظة ثمنت أن تتوه في المدينة العتيقة أو بين الحارات القديمة، أن تشعر أنها تسير في مدينة لا يعرفها فيها أحد، وتصافح وجوها تثق أنها لا تعرفها، يغزوها إحساس الانعتاق تماماً، لن تفعل ما يصنف لدى الآخرين بالعيب أو الخرام، لكن إحساسها بأنها حرة تماماً من كل من يعرفها وترى أنه سبب حرر روحها، ربما فيه نقطة انطلاق جديدة تماماً، بداية جديدة، مفتتح قوس! لم تصدق نفسها عندما وافق ياسين فوراً محرراً نفسه من أي ارتباط قد يكبله هو أو فاطمة بها. لكن فاطمة تخرجت من اندفاع ياسين، وتخلية عن النزهات التي وعد بها ليلي، والتي ربما، ما قبلت المجيء إلى فيينا إلا من أجلها، لذا قررت أن تتفرغ لها بعض الوقت، ترشدها إلى الأماكن التي تفضلها، وتعلمها طريقة جيدة للتحرك بأقل تكلفة إذا ما فكرت في استخدام المواصلات للتنقل. وبتفكير الأوروبيين العملي الحاسم، قالت:

"من الممكن أن أمحك ثلاث ساعات من وقتي وجهدي يا
ليلي.. سخرج معاً."

حكت لأدم في التليفون ليلاً عن التغيرات التي طرأت على خطتهم، واندهش، لأن ياسين لم يحك معه، ولم يكلف نفسه إخباره بانشغاله، لكنه قرر تجاهل عتابه في الأمر نهايأ. أخذهما الحديث هنا وهناك، ونسيم يهب من جهات خافية، تشعر ليلي أن حضور آدم طاغ، فهو من هؤلاء الرجال الذين يستحوذون على العقل مجرد وجودهم، سألتها بعثة:

"لماذا لا تشعرين بالسعادة؟"

لكنها لم ترد، توقفت لأن سلم الصعود انتهى فجأة، سادت لحظات صمت، فعاد آدم للحديث مجددا:

"على كل، أضمن لك أن السعادة على بعد خطوتين منك!"

بدالها كمن يقرأ الطالع فابتسمت دون صوت وكادت تتحدث لولا كلامه:

"أراك تبتسمين.. هل أخطأت؟"

فقالت ضاحكة:

"لم تخطئ!"

"ألم أقل لك.. ارتفعت عني الحجب، وأعرف لماذا تشعرين بالتعاسة، وأثق أن زهور السعادة ستفتح على نافذتك عاجلا!"

وإلى أن انتهت المكالمة، لم يتفقا على اللقاء، ر بما اكتفت أنها أخبرته بوجهتها، واكتفى أنها كانت حريصة على إخباره، ورأيا في هذا اتفاقا ضمنيا على اللقاء.

خرجت ليلي مع فاطمة وعبد الله في صباح السبت للتمشية في الحي الأول. نزلا في ميدان شيفان عند الكاتدرائية. جلسما معا في مقهى أوروبا في الدور الثاني واستمتعت ليلي بأطيب مذاق للقهوة. ثم تمشيا معا وهما يدفعان عبد الله النائم في عربته أمامهما بالتبادل. ذكرت ليلي أنها تريد أن تمشي في طريق "جرابن" لتذهب حتى "بوابة ميخائيلا" مرورا عبر متحف

تاریخ الشعوب حتى مجمع الفنون لتشاهد معرضاً فرأت تنویها عنه في ساحة المطار لا يجرون شيلي الذي تحب لوحاته بجنون.

حين خرجت من ساحة الأبطال طالعها تمثال الإمبراطورة تريزيلا الذي يتوسط ساحة متحف تاريخ الفنون ومتحف التاريخ الطبيعي، اجتاحتها رعشة كهربت بدنها، ففي داخل متحف تاريخ الفنون الذي على اليسار تكررت بودار الرعشة الأولى التي لن تنساها والتي هزتها قبل ثلاثة أعوام وعشرة أيام. الأمكنة ثبت أن لها بالفعل سطوة لا يمكن للزمن أن يغيرها. من هنا مرت روحها وتبدلت،وها هي الآن تمس طيفاً قدماً منها بقى هنا وانتظرها اليوم ليحتضنها بهذا المس الذي رجفها ليعيد لها ذكرى كأنها كانت بالأمس. سرحت، حتى شعرت فاطمة أن كل الكلام الذي قالته في آخر عشر دقائق لم يلق أي استجابة منها. لاحظت أن ليلي قد علقت وجهها ببني المتحف ونسيت الدنيا ظنثها منبهرة بعمارة المهندس البارع سمبرز الذي شيد هذين المتحفين منذ أكثر من قرن في توأم معماري هو من أبدع ما يوجد في فيينا. لم تعد لرشدها إلا عند الوقوف أمام منطقة عبور المشاة، حين تحولت لإشارة إلى حمراء لتوقفهما وتوقف استرجاع ذكرياتها وتتبه أنها تير مع فاطمة. كانت عيناهما متترافقتين بدمع خفيف ملحوظ، قبل أن تفاض فاطمة سر الشجن بسؤال، بادرت ليلي:

"تذكري رانيا وحاتم، كانوا هنا معي قبل سنوات ا"

أكملـا المسافة القصيرة إلى مجمع الفنون في صمت. ليلي كان تفكـر

بالفعل في ثلاثة أشخاص، هم الأقرب لها في الدنيا. داصل المجمع ودعت فاطمة ليلي وتركتها تذهب لمشاهدة المعرض واتجهت للبيت. فكرت أن تجلس لشرب فنجانا من القهوة قبل أن تبدأ جولتها. لم يمض أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى كان آدم يدخل بقامته الفارعة ووسامته الباذخة من الباب الذي دخلت منه. دون كلمة واحدة، كانت يدها تكمل مصادفة الأمس المنقوصة. ينتهي اللهم اللهم والبطء من كليهما. كرر ترحيبه بوجودها كأنه يراها للمرة الأولى، ألغى لقاءاهما السابقة تلك التي كانت في حضور ياسين وزوجته، كأنها لم تكن، وبحساسيته المعهودة، كأنه لم يرها من قبل. بدأت عيناه في تلمس ملامحها، ملمسا ملمسا، كمن ينحتها من جديد، أو يحفرها بأعمقه، نظرته لم تشعرها بخجل بل بنوع من السكينة، في عينيه سطوة تحدّرها وتلمسها في أعمق مكان لا تعرف له اسماء، تلمسها بحنو لم تشعر به مع رجل غيره في عمرها، تراه يعيد تشكيل وجودان محبتها من البداية، وهي مستسلمة بلذة الخلق الجديـد، تقرأ في عينيه كلاما سيقوله لها فيما بعد:

"أناكـد من كـونكـ هي يا ليـلى.. تلكـ التيـ كـمنت صـورـتها
بـداخـلي.. وأخـيراـ وـجـدتـهاـ وـوـجـدتـنيـ!"

أصابها ارتباك، حاولت أن تخفيه بتوجيه الأسئلة إليه، لكنهما أدركا أن إحساس الارتباك المزوج بالنشوة إحساس ممتع، ولا بأس أن يستسلموا له معا، كان كمطلع الربيع، خليطا من روائح الزهور، والتوايل، والنسم، المنعش، والرغبة في الحب، نعم اكتشفا أن الربيع فصل يليق بالحب،

وأن الحب يخلق ربيعه وقتما بدأ، وأينما حل، هكذا كان الحديث الصامت بينهما، استمتعوا ببدايات قصتهما معاً، لا بأس إن كانت شبيهة بكل قصص الحب الخالدة، وربما ستنتهي أيضاً كمعظم القصص، عزاء المحبين أنهم دون غيرهم لمسوا تلك المشاعر الدقيقة كمن يضع يده في ماء نهر للمرة الأولى في عمره، وكما أخذهما الصمت واستمتعوا به، بدأ الحديث دون أن يشعران، عندما بدأت تستفسر عن إنشاء المجمع وطرق مشكلات الفن في مصر في ذاك الوقت والاتجاه المتضاد لمحاولة تدمير التراث وتسويه، وأفكار تأجير التاريخ المصري وبع جزء منه والتنازل عن الثروة القومية من كل الفنون. عنتهى البساطة كأنهم يُورّدون بصلة أوقطاناً. تأسف آدم من أحوال عببية يتبعها. وسألها إن كانت قد سمعت بفينوس فون فيليلين - دورف. وحذّر لها عن هذا التمثال الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه أحد عشر سنتيمتراً لكنه علامة ودليل لتاريخ النمسا، وأن هذا التمثال الصغير قد نال من العناية والأضواء في هذه البلاد ما يحسده عليها تمثال رمسيس الثاني في مصر. (فينوس فون فيليلين - دورف) هذا الاسم العجيب الصعب القراءة في العربية، هو اسم لأشهر تمثال في النمسا من الحجر الجيري ارتفاعه يبلغ 11 سنتيمتراً فقط، ويعود عمره إلى 25 سنة قبل الميلاد، تم اكتشاف التمثال عام 1908 في قرية قرية من نهر الدانوب. هذا التمثال له عشرات الكتب والبرامج التلفزيونية والمعارض التي تقام في العديد من أنحاء البلاد.

من خلال هذا التمثال، الضئيل الحجم العظيم القيمة، تتم غربلة التاريخ

النمساوي والتاريخ الاجتماعي، ويتم بث أصالة هذا التاريخ في كل جيل لربطه بتراث الأجداد واحترام حياتهم كما كانت والتعلم منها لا السخرية أو التقليل من شأنها.

دخل المتحف، فوجئت ليلى برسوم إيجون شيلي الفنان البديع صديق جوستاف كليمنت، إيجون شيلي توفي قبل أن يتم الثلاثين، بعد أن اخترط نفسه طريقاً مميزاً في الانطباعية، وقد سُجن بسبب لوحاته المقلقة لمدة أربعة وعشرين يوماً بتهمة نشر "أعمال غير أخلاقية" أكثر ما أسعدها هو رؤية هذه اللوحات الباذنة بأحجامها الطبيعية خصوصاً للنساء وهذه الجرأة الفنية العالية للغربي، وهذه الأصابع الطويلة المميزة التي راقت لها منذ اللوحة الأولى التي عرفتها له منذ سنوات بعيدة. تذكرت أنها كتبت عنه موضوعاً وهي في الصف الثاني الثانوي، وأن عرضها للوحاته - التي لا تقارن بما تراه الآن - قد أثار حنق ثلاثة زميلات فجاءت شكاؤي من أولياء أمورهن، وتم الرد على تلك الشكاوى بحزم، بأن المدرسة تدرس طوال عمرها الفنون الأوروبية القديمة والحديثة ضمن منهجها، وأن الموضوع يتناول فناناً فريداً له قيمة عالية في النمسا وأوروبا، ومن يريد تدرجين المدرسة على هواه فليبحث عن مدرسة أخرى، يدرس فيها أولاده بعيداً عن الفنون الحديثة. حكت له ليلى الحكاية فضحك.

ثم سأله سؤالاً مختلفاً ومباغتاً:

"هل تفهم الغرب يا آدم؟ هل تخرج منه أحياناً لتأمله
وتنقذه؟"

"لم يسألني أحد من قبل هذا السؤال. من وجهة نظري أرى أن قسوته مستترة خفية مغلقة بالبسمة، معطوفة بالبرير والتغيير والمناورة الناعمة. الغرب يتسم وهو يقتلك وقد يجررك على الابتسام وأنت تحضررين، وحين يفضح التاريخ صورته يمكنه أن يعتذر عنها بتسامح ضمني ليبدو دائماً طيباً وسيتم تجميل الفعل بحرافية عالية!"

"هل في رأيك يختلف الشرق عن ذلك؟"

"الشرق قسوته عليه فخورة معطوفة بكبرياء الأخلاق والتغيير للأقصى إن لزم الأمر. في الشرق تظهر أساير الشر على قاتلك، وحين يجلّي التاريخ مقطع الصورة سيقى الوجه شريراً والعمل أشد شراً!"

صمتت ليلى كثيراً بعد كلامه. فقال:

"الجو ما زال جميلاً.. ما رأيك في غداء شهي مع؟"

قبل أن ينحها حق الموافقة، شرح لها الخطبة التي وضعها لها بعد الغداء، راقها ثقتها في موافقتها على الغداء معه، قال:

"سنذهب معاً لقصر الشونبرون للتمثيسية."

كانت خفيفة وسعيدة وانتابتها أحاسيس غابت عنها لسنوات. كأنها مراهقة. كان كلام آدم عن الشرق والغرب ما زال يبهرها، قالت له في المترو، وهي تقف قبائنه:

"في كلامك شيء يشبهني"

ثم تعمدت - بعد أن توقف المترو في محطة تالية - ألا تمسك أي شيء. بالفعل كادت تسقط بعد أن تحرك المترو فجأة فسقطت في صدره، اعتذرت وشعرت بمرارتها مرة أخرى، لكنها أطلقت لجموها العنان. ثم تمسكت كأن شيئاً لم يكن وسألته:

"هل مازال الشرق يمثل لك شيئاً؟"

نظر لها عميقاً ولم يرد، خشيت أن تكون قد تجاوزت بسوالها منطقة مؤلمة في وجدانه. لكنه طمأنها برده القصير:

"حين نصل سأجيئك!"

بدا لها كأن سحابة حزن مررت على صفحة وجهه، صمتت. أرادت أن تغير الموضوع لكنها لم تجد شيئاً صالحاً للقول. فضلت الصمت ولو هلة أطل وجه رانيا بحزنها وهي تودعها، نسيت هذه المرة عن غير عمد أن تمسك مقبض أو عمود المترو أمسكتها آدم بعفوية من ساعدها. فنظرت من النافذة القرية ولم تجرؤ على تصويب عينيها نحوه. كانت قبضته قوية وضاغطة، لم تحمل أي رغبة أو شبهة تعمد، لكنها كانت قبضة رجل، رجل خلاب وفاتن فحسب.

تمنت لو تأتي محطة قصر الشونبرون بعد عشر محطات أخرى، لكنها كانت المحطة التالية. ما إن نزلنا من المترو، حتى تذكرت ليلي الطريق إلى القصر وقالت له:

"سوف أدلّك على الطريق، مازلت أتذكرة!"

ابتسم وصمت حتى صعدا من المحطة للطريق. وقال:

"لم أنس سؤالك، فهو جدير بالإجابة. كنت أسأل نفسي هذا السؤال كثيراً، لكنني لم أفكّر في الإجابة من قبل.

الشرق يهزم عقلي يا ليلي، لولا قلبي المفتون بالشرق لكررت به. الشرق يكفر بكل خيال، ينتشلني من أجمل الأحلام ليركب لي حلماً على طريقته ويأمرني أن أغفو وأحلم بما أمر. المؤم أن الحالين قهراً يزدادون فأصبحوا مع الوقت غرباء وسط الأهل، في غربة لا يتحملها عقل ولا قلب!"

صمت قليلاً ثم أكمل:

"هل هناك فرق بالنسبة لك يا ليلي؟"

"أكاد أرى أن الفرق بين الغرب والشرق يبدو مثل شخصين: الأول يعمل بجد ثم ينام مرهق البدن، والثاني لا يعمل ثم ينام أيضاً مرهق البال. يصحو الأول فيغضب أنه نام وكان يعکنه أن يعمل أكثر. الثاني يصحو فيغضب أنه لم ي العمل، فينام من الإحباط مرة أخرى! فهل ترى أنت أيضاً الأمر كذلك؟"

"نعم وأكثر من ذلك؛ فمصالح أولي الأمر أشد تنكيلاً؛ أولو الأمر في الشرق آلهة لا تُنتخب بل تُعبد، وتبدل إلهك يعني هلاكك. يستريح أخضرك ويابسك؛ أقصد أهلك وأرضك، وقد

يضطرك للاهتمام بملكته، ويُبقي من تحبين وما تحبين رهنا منك
لديه. إنها مأساة!

في الغرب ليس لهم من الآلهة سوى عروش مؤقتة. آلهة مؤقتة
يأكلونها متى وضعت نفسها على طبق العبادة!

كان آدم قد عرج بها من المدخل نحو اليمين عبر ممر صغير وسط
الزهور، متخذًا طريقة طويلاً تصطف على جانبيه أشجار السرو والجوز
السامقة، طريق يبدو مثل قوس من الظل الأخضر، في أفقه البعيد نور
يعسل العين والروح. قالت له ليلى:

"لا أريد أن أرى غرف القصر. كانت لدى الرغبة في...

"رؤية بيت النخيل الذي سمعت عنه، أليس كذلك؟"

قاطعها فابتسمت. سار معها يحكى لها قصة القصر بالكامل. كانت
خطواتها تتحرف تجاهه يجذبها بإرادتها، أجواء المكان تنقلهما لزمنين
آخرين، كانت تشعر بأنها في المستقبل، أما هو فكان يعود إلى الماضي.
السير في مرات القصر تحت أكمدة الشجيرات، صوت التغريدات المميزة
لطيور الشحرور توّكّد حاضراً يتمنيان أن يتلقيا فيه. تمنى أن يمسك بيدها
في هذه اللحظة؛ أن يعبر بها إلى المستقبل، يتمنى في نفسه أن تمسك بيده
وتعيده للماضي السحيق. وصلا إلى الساحة الأمامية في قلب القصر
بورودها وتنسيقها البديع ورأت بيت النخيل من بعيد. قالت لآدم:

"أود أن أجلس هنا أمام هذه الحديقة قليلاً. هل يمكن ذلك يا
آدم؟"

"بكل سرور!"

"هل لي أن أسألك سؤالاً؟"

"طبعاً!"

"هل ندمت على بقائك هنا؟ هل أضناك الحنين وفكرت في
الرجوع يوماً؟"

"في وقت من الأوقات، شعرت أنه قد الأوان لأحرق سفني
كي أحرق عودتي. لكنني لم آت عبر البحر. ولو كنتُ أتيت
عبر البر لأكلت جملي الذي نقلني. أتيت بالطائرة دون روحي
التي ارتعبت من التحليق في الفضاء للمرة الأولى. بقيتُ في أرض
ميلادي، تأنيبي جزءاً جزءاً كلما اشتاقت لي أو اشتقت لها، لست
متوجعاً ولا نادماً، لكن قدرني جعلني في النهاية أعيش بروح في
مكاني، نصف روح هنا ونصف روح هناك، ومن رحمة الأقدار
أنني أعيش في مكاني وليس بين مكانيين، ومع ذلك فأنا لا أتألم كما
يتألم الناس."

كادت ليلى أن تسأله: كيف؟ لكنها تراجعت عن السؤال، لتراجع
كلامه. شعرت أنها أمام شخص مختلف لديه ماض يستحق الإنصات،
وشعر آدم أنه أمام امرأة مليئة بالأسرار يتشوق للاستماع إلى حكايات
تستحق كل هذا الانتظار؛ وفي آن أمام امرأة تجيد طرح الأسئلة النسية،
 Maherة في تحويل المياه الهادئة لبركة الحياة إلى تيار نهر حي يبدأ صخبه
المندور.

لم يكن البوح العاصف المتسرع من أي منهما مناسباً الآن، بل قد يفسد حالة الاطمئنان ونضج الشوق. الصبر هو أجمل علاج ضد اللهمّة؛ فليق الشغف الشفيف ترأف به الحكايات، والأيام القادمة ربما تكون يوماً ما لهما.

ضاع ذهنها قليلاً داخل بيت التخيل، الجو الساخن جعلها تسرح في أشياء بعيدة وقريبة غير مترابطة. لأول مرة تشم رائحة الأرض في هذه البلاد. قالت ما تشعر به:

"آدم، أشعر بأن الأرض داخل هذا المكان المحبوس تعيش. لها روح تلمسني الآن، لا أعرف كيف!"

قطع آدم حديثه وشرحه عن النباتات وتاريخ المكان، واحترم الصمت والإحساس الذي داهمهما. ترك نفسه لعدوى الصمت معها. الطريق الضيق في الداخل سمح لها بأن تستند مرات على ساعده، وأن يمسك بأناملها برفق لتعبر مدخلاً أو بوابة. التقط لها بعض الصور بالقرب من نخلة ومن مجموعة ورود استوائية.

خرجاً من هناك ببطء شديد!

دعاهما للعودة تمشية عبر طريق الأشجار نفسه. بعد اجتيازه، دعاها على فنجان من القهوة في المكان القديم نفسه في أعلى هضبة من القصر: جلوربيت. أوقفتها جنة الزهور في باحة القصر:

"هل هذا صحيح يا آدم، يضعون سنوايا مائة ألف وردة في هذه الساحة الواسعة؟"

"نعم هذا صحيح!"

لم ترغب من طرح سؤالها في التأكد من معلومة قد يعترضها جيداً، بل أرادت أن توقف الزمن لحظات وتنقل بعينيها من المائة ألف وردة إلى وجهه، أن تهديه إياها بصمت، أن تهديه فرحة مائة ألف وردة تسرب إلى قلبها. وجهها تورّد مثل قلبها وروحها. هكذا رآها آدم أيضاً، فأخرج الكاميرا وبدأ يصورها تلقائياً. اقترب أحد السياح وطلب من آدم أن يلتقط لهما صورة معاً. فعل، ثم سأله الرجل إن كان يريد أن يلتقط لهما أيضاً صورة للذكرى، فسأل ليلى إن كانت لا تمانع، فهزت رأسها بالموافقة. وقفت على مسافة منه لكن رأسها بدا مائلاً نحوه، ولما طلب منها الرجل أن يقتربا أكثر. اقتربا فوضع يده على كتفها تلقائياً. سارا بعدها لدقائق في صمت. كانت المرة الأولى التي يحتويها بذراعه جانبياً ولو برفق، لكنها كانت كافية ليظل الصمت المبهج ثالثهما في طريق الصعود. اللهاث الخفيف لم يكن من أثر ارتفاع الهضبة. تباطأت ليلى فتمهل، زاد تباطؤها. مدّ لها ساعده لستند عليه. سارا فترة لا يتكلمان. وما ضرورة الكلام حين يتهمس الجسدان. ظلّ كل منهما ينظر للآخر بابتسamas خافتة، يشمّهان عمداً في الصعود. ويحتاجهما معاً الإحساس نفسه الذي أعادهما لسنوات بعيدة عند عتبات المراهقة وأول سنوات تجريب خفة القلب الأولى. قال لها:

"اقربنا يا ليلى!"

ابتسمت أجمل ابتسامة منذ شهور طويلة بل ربما منذ سنوات. سكتت.
فقال لها:

"أكاد أقرأ أفكارك، فكري بصوت أهدأ!"
ارتبتكت قليلاً، فضحك. تابع:

"هل تريدين الاتصال بحاتم ورانيا؟"
ابتسامتها كان يصعب وصف جمالها. قالت:

"كيف عرفت؟"

"ما تعريفيش إني أقدر أقرأ أفكارك.. ومن عينكي الخلوة أعرف
كل أسرارك.. هاه هاه هاه هاااه!"

ضحك بشكل مسرحي ليذكّرها بالمشهد الشهير من فيلم (الوردة
البيضاء).

جلسا على أقرب مقعد. أخرجت تليفونها لتتصل بابنيها، ما إن
سمعت صوت رانيا حتى ابتهج صوتها وغابت عنينها لوعة دامعة. غزير من
فرح وحزن واشتياق. ابتعد آدم مسافة عنها حتى يتاح لها حرية الحديث،
ومن مكانه ظل يتأملها بما لا يجعلها تتوتر. لم تشعر بقلق وهو ينظر إليها.
رأى وجهها ينير بومضات فرح ممزوجة بحزن.

لم تتكلّم طويلاً. حادثت حاتم ورانيا. ثم اتصلت بفاطمة تنبئها بأنها
لن تعود للغداء، وأنها في قصر الشونبرون وقد قابلها آدم وهو برفقتها

في بيت النخيل والقصر. تمنت لها وقتا طيبا وأنهت المكالمة. نظرت بعدها لآدم بانشراح كبير، وقفزت كالغزاله لتصعد معه المسافة الأخيرة حتى المقهى. انتبهت أنها تسرع وبهذا ستضيع منها فرصة مساعدته لها. تأخرت من جديد وتباطأت، فاقترب منها رافعا كوعه بمساعدته فتعلقت بيديها الاثنين. وسارا معا إلى أعلى !

لما جلسا في مقهى جلوربيت أخرج الموبايل ونظر في الصور التيقططها لهما السائح المار. قال لها:

"للأسف عيناك مغمضتان في الصورة التي ظهرنا فيها معا!"

اقربت مثل طفلة لتراهما، وضعت كفيها على كفيه لتقلل من سطوع الضوء وانعكاسه واقربت من الشاشة وهو أيضا، جببتها لمست جببته برفق تبادلا في هذه اللحظة شيئا غير مرئي. شعرت بصدهه الخفيف على ندى جببتها. كانت له رائحة جذابة، ولها رائحة شوق يضوع !

لم تكن عيناهما مغمضتين في الصورة، بل كان وجهها وجه امرأة تحمل روحها مائة ألف وردة!

مر الوقت أسرع من المتوقع. كان الحديث شيئا. تمنت لو بقيت في هذا المكان طوال العمر. دعاها بعدها للصعود إلى الدور العلوي لمشاهدة المدينة، قائلًا إنه لا يجوز أن يحضرها إلى هنا دون الصعود إلى أعلى مكان في القصر. صعدا معا، وظل يشرح لها أين يسكن بالتقريب وأين تسكن هي، واتجاهات المدينة عبر العالم التي تعرفها. بدت متنبهة

في البداية ثم راحت تتأمله وهو منشغل في الشرح. تنظر لحركة أصابعه، إلى إشاراته، إلى لفاتها، إلى ابتساماته، إلى أسنانه الناصعة، إلى رشاقة، حركته وشرحة. تنصت لصوته وتتشربه عبر كل جسدها وليس عبر أذنيها فقط.

نزلاء من جلوريت وعبرًا أبسطة الورود متمهلين، يسألها عن أشياء كثيرة وقديمة في مصر، وهي تسأله عن حياته بشكل غير مباشر. اكتشفت أنه متسمق مع نفسه تماماً، لم تجد أي تناقض في كلامه، فهو يعتقد الغرب عن غير كراهية وينتقد الشرق عن محبة. ارتحت كثيراً لنظرته ورؤيتها.

تسرب اليوم الأول منها في جنات فيينا، خرجت إلى الطريق خفيفة كأنها تطير. سألاها إن كانت ترغب في أن ترى متحف تاريخ الفنون في اليوم التالي. وافقت على الفور، وقالت إنها ستلتقيه صباحاً في التاسعة والنصف لو ناسبه ذلك. ثم رافقها حتى بيت ياسين وفاطمة. ودعها دون كلمة واحدة، فقط بابتسامة ومصافحة دافئة. دخلت متثنية سعيدة. ياسين كان مرهقاً ونام مبكراً، هذا ما قالته فاطمة، فأعفها غيابه من إخفاء السعادة الجارفة التي صقلتها. عندما استاذتها فاطمة لترضع الطفل ثم نام، ارتحت ليلي لوجودها وحيدة، فهي لا ترغب في قطع مسار بهجة اليوم، كما تخشى أن يظن بها ياسين بعض الظن، والأكثر راحة أنها أرادت أن تخلد للنوم بأسرع ما يمكن وأن تعطي لنفسها فرصة ما قبل النوم لاستعادة أحداث اليوم من بدايته وجذب آدم لحلمها القريب.

* * *

في صباح اليوم التالي كانت ليلي مرهقة من قلة النوم منتعشة كطفلة تستعد لرحلة مشغوفة إليها. أفطرت مع فاطمة ويسين الذي سألها عن اليوم السابق بلا اكتراث، ثم عرج للسؤال عن آدم سريعاً، كان ينظر إلى الطبق وهو يتحدث، رعا أراد أن يزيل الحرج بالتعجل في تناول الموضوع وإظهار انشغاله الشديد، ولم يُئد أي ارتياح في الأمر. ثم ختم كلامه بعبارة لم تُرِحها قائلاً:

"الأهم أن تكوني سعيدة."

كانت عبارة مستفزة، لم تفهم القصد من قولها وفي هذا الموضوع. لكنها كانت مأخوذة مما ينتظرها مع آدم، فطارت حسب الموعد لتلتقي به أمام متحف تاريخ الفنون كما انفقا.

كان آدم ينتظر في الموعد تماماً، واقفاً متتصباً، سماره ناصع في ضوء النهار، يرتدي بنطلوناً من الجينز ومعطفاً صيفياً أسود أسفله تي شيرت أسود فتحة رقبته على هيئة رقم 7، تبدو رقبته عند اتصالها بالكتف قوية وجذابة، واقفاً كان أمام بوابة المتحف بشعور قديم مربك ومفرح في آن. شعرت بأقدامها تكاد ترکض نحوه دون إرادة منها، أبطأت خطواتها بصعوبة، وحين اقتربت كادت ترمي في حضنه. سلم كلّ منهما على الآخر بارتباك المحبين الجدد. ما إن دخلت لهو المتحف حتى وقفت بابهار زيارتها الأولى نفسه. قال لها:

"لا أعتقد أنك ترغبين في رؤية الآثار المصرية مرة أخرى."

"بلى.. أريد. لن تصدق أنتي مازلت أتذكر حديثنا قبل ستين

حين سألك: كيف تم نقل كل هذا إلى هنا؟ ومن سمح به؟
ويومها قلت أنت: إن الكل تاجر بالتاريخ، باعه بثمن زهيد
لصالح شخصية."

"دعينا ندخل أولاً وسأقول لك فيما بعد ملاحظة عجيبة."

كررت لي مشاهدتها لكل ما شاهدت في المرة الماضية. لم تمل من التطلع لتفاصيل لوحات روبنز وبرويجل وبوش وغيرهم، بل شعرت أنها تستعيد تاريخاً عريقاً من الفن العظيم، يمثل أسلافها جزءاً كبيراً منه.

فجأة قالت له:

"أتمنى أن أشاهد لوحة القبلة لجوستاف كليمت!"

"هي في البرنامج، فليكن ذلك السبت القادم لذهب معاً لقصر البيليفدير، أو اليوم لو أردت!"

"لو أمكن اليوم سأكون أسعداً"

نزلت معه إلى كافية المتحف المستدير. الضوء القديم نفسه ينساب من الطاقات العالية إلى الأرضية المرمية المرسومة بالأسود والأبيض. جلساً في ركن مقابل للركن الذي جلسا فيه قبل ثلاثة أعوام وبضعة أيام وسألها عمّا تشرب، قالت بدلالة:

"واحد بنّي صغير!"

ضحك آدم من سرعة بديهتها، بادرته:

"هل عانيت في بدايتك هنا في هذا البلد؟ أقصد روحيا، وجدا،
نفسيا. النقلة بالتأكيد لم تكن سهلة!"

"نعم. عانيت وأصابني الإحباط مرات. أكثر الوجع كان في
البدايات، في النقلة السريعة؛ أو الانتزاع المفاجئ، في اختلاف
المكان والعادات والتقاليد؛ الإحساس بالاغتراب عندي كان
موقتا. المؤلم هو الفهم البطيء للغة؛ للكلام؛ حتى للإيماءات
والاستثناء عن أهم وأقرب شيء لك في التواصل مع الحياة.
عن لسانك ولغتك الأم. تصبحين فجأة مثل طفل يتعلم الإشارة
ويطلب تكرار الكلام مرارا. ويفق كثيرا على حواف الكلام،
يفهم خطأ مرات فيتصرف خطأ ألف مرة وينفعل الانفعال الخطأ في
الوقت الخطأ والمكان الخطأ، لكنها تجربة ضرورية ومفيدة!"

"وهل عانيت في هذا كثيرا؟"

"ليس كثيرا، لكن عانيت عميقا! لا تخيلك عانيت مرة في
تعاملك مع لغتك، فأنت لم تغاري مصر!"

"لن تصدق لو قلت لك إنه يمكن للمرء أن يعاني أكثر مع اللغة
التي يعرفها ومع أهلها بالأكثر، وهي معاناة أشد أنها من التعامل
مع الأغراط، لاسيما حين لا يفهمك أبدا من تعتقد أو تتوقع أنه
يفهمك!"

تأمل آدم كلامها بإعجاب واهتمام، تابعت:

"والسيّع حين يفهمك الناس خطأ، والأسوأ حين يُصرّون أنهم فهموك ويصادرون توضيحك أو يؤولون شرحتك!"

"هذا فعلًا أشد وطأة يا ليلي!"

"هي مخنة من يفكّر. هذه هي المأساة!"

ثم قامت بتغيير الموضوع فجأة:

"أشعر أنك تبدو منسجمًا ومتصالحًا مع نفسك.

ابتسم آدم:

"ربما أبدو كذلك مظهريًا، لكن هناك أحيان كثيرة لا أفهم فيها تصرفاتي تمامًا. مشاعري تسقفي فأنا صرف قبل أن أفكّر، وبقي على العقل فيما بعد المراجعة، وإنما الارتياح أو الندم، لكنني لا أجيء للدفاع عن تصرفاتي.

"الشخص الكامل ليس صديقاً محبوياً على الدوام. المشارك في ارتكاب أخطاء وحمقات بل وخطايا مثل الآخرين، هي مفتاح للتواصل المحبب مع الكثرين.

ردت ليلي لتوئمن على كلامه من زاوية أخرى.

مع كل لقاء بآدم تكتشف ليلي فيه ما تحب وما تخشى في آن. تخشى

أن يكون في جفاء فاروق ما يدفعها لأن ترى كل تعامل رقيق منه على أنه رجل استثنائي، وتخشى أن تغوص أكثر في حبه وهو يعاملها بعفوية جذابة لا انفلات منها. لكنها مطمئنة لشيء واحد يعطيها يقينها الآمن، أنها لا تكذب على نفسها ولن تفعل ذلك لمشاعرها مهما كان. آدم من ناحية أخرى جرب الكثير في حياته وتعرف على الكثيرات، كان يجد في كل واحدة شيئاً ي يجعله، لكنه لم يجد المرأة المتكاملة. يوقن أنه لا يوجد شيء اسمه المرأة المتكاملة. هذا مجرد اختراع ذهني لتخدير الأمنيات. الشخص المتكامل لن يحتاج لمن يكمله، سيكتفي بذاته. وستكون كل علاقة به من الخارج مجرد ذيكور مؤقت إضافي وغير أصيل، لكنه يشعر بصدق أن في ليلي قيساً منه، بمجرد أن تقترب منه تتغير كيماء جسده وروحه. تخشى ليلي من أي تصريح مبكر قد يؤدي لحرق سفنها قبل أن تبحر من مينائها. وهو يخشى التورط في علاقة مع امرأة متزوجة ولها حياتها التي لا يعرف عنها إلا القليل. كلاهما يفكر هكذا ويعرف أن الآخر يفكر بالطريقة نفسها، بدا آدم وهو سارح في مربعات الأرضية السوداء كمن يقرأ تاريخاً شخصياً محيراً بالكتابة حتى فاض سواده وسداد. وبدت ليلي في سرحانها كأنها اختارت المربعات البيضاء المعبرة عن خواء كبير يحتاج لكتابتها. لم يعرفاً أن هذا الاختيار المتضاد في السرحان وحده كفيل بخلق عالم جديد ينسجane على مهل.

سألها ليخفف من رتابة الصمت:

"هل تفضلين التمشية؟"

"لماذا لا نتمشى إلى قصر اليلفیدیر، فهو حسب الخريطة لا يبعد
بعيداً.

"لو حداوْك يسمح بالمشي، يمكن أن نقطع المسافة في أربعين دقيقة.
"هيا بنا!"

خرجا من المتحف متوجهين لطريق "الرخج" الدائري الذي يحيط بالحي
الأول ويحتويه في قلبه. وحين اقتربا من تمثال جوته، قال لها:

"هل سمعت عن هذه الحكاية عن جوته؟"

"أي حكاية؟"

"أنه وقع في غرام فتاة شرقية، ولم يعرف كيف يصل إليها، وما
سألها عن مرادها لترضى عنه، قالت له: 'أنت مثل الجميع لا
تعرف شيئاً عن حياتنا ولا تقاليدنا ولا عاداتنا، أنا في رأسك مثل
تواجل جديدة تريد أن تتذوقها ولا تعرف من أي أرض نبت. أنت
مثل الآخرين في عالمك العالى المعالى تسمع ولا ترى و حين تنا
ل لك الفرصة لترى، ترى ولا تسمع!' هذا الكلام أثاره وجعله يقرأ
الكثير من آداب الشرق من أجلها."

"يا لها من محظوظة! يبدو أن جمالها كان فتانا فاكا.
أتخيّل أن عقلها كان فتانا فاكا لتهزم سطوة غرور وتكشف
المحجوب.

وقفا عند التمثال قليلا وهي تتأمله، بينما كان آدم يختلس صورا لها بالموبايل. عند الأوبرا قال لها:

"أوبرا فيينا أيضا تنتظر تشريفك لها. لو تحبين الأوبرا فسأقتني تذكرين لتشاهدي عرضا حيا لبحيرة البحرين يعرض حاليا لا يجب أن يفوتك!"

"سأوافق بشرط وحيد!"

"ما هو؟"

"أن أدفع قيمة البطاقتين وأدعوك بعدها لعشاء!"

"طيب أوافق على العشاء، لكن ما الداعي لدفع قيمة البطاقتين؟"

"هذا شرطي الذي لا يتحمل المساومة؛ إما توافق وإما أن تقبل..
اختر ما تريدا"

ضحك آدم مجددا فألحت لسماع الإجابة:

"هاه.. ماذا قلت؟"

"أنا حائز يا ليلى هل أوفق أفضل أم أقبل.. يبدو أنني سأقبل!"

مشيا معا وآدم يشرح من جديد بعض المعلومات الضرورية عن المدينة، وإلى أي الطرق تؤدي هذه المفارق والشوارع وتاريخها، ويُشير لها على البيوت التي عاشت فيها شخصيات شهيرة.

وصلا إلى قصر البيلفيدير في التقدير الذي حده آدم، دخلا، كانت هناك مجموعة كبيرة من لوحات جوستاف كليمت، ما إن وصلت إلى لوحة القبلة حتى توقفت ليلي وصمتت في صلاة عشق. لم يشاً آدم أن يشوش على تواصلها مع اللوحة، لكنه شعر أنه يربد الوقوف أقرب ما يمكن إليها. وقف خلفها تماماً. تأملت اللوحة بسرحان واستمتاع، كأنها غاصلت في حلم قديم. سأله عن كليمت وراجعت معه معلوماتها القديمة عنه. لا تعرف السبب الذي جعلها منذ هذه اللحظة تعمق في تأمل شفتيه وهو يتكلم أو وهو صامت. شعور ما من اللوحة انتقل إليها بما يشبه العدوى. كانت لديها رغبة كبيرة في تقبيله.

نزلاء بعد الفرجة على لوحات كليمت وبعض اللوحات الأخرى إلى المقهى في الدور الأرضي، اشتري لها آدم كتاباً عن جوستاف كليمت حياته ولوحاته وبطاقة مميزة لللوحة القبلة. كتب عليها أثناء تناول القهوة (ترى متى يقبل آدم حواء؟) أخذتها ليلي لتقرأ ما كتبه، أصابتها كلماته ببرحة، وعندما رفعت وجهها إلى وجهه، كانت عيناه تتأمل شفتيها بشهوة جارفة، وقبل أن يعود لهدوئه سحبتها من يدها وخرجا.

تمشيا في الطريق الدائري ثم عبر معها حدائق المدينة، وقفت هناك لتأمل مثال "شتراوس" الذهبي ثم عبرا بركة الماء. كان المحبون يتشارون على حواف البركة وعلى حشائش الحديقة. يجلس كل حبيبين متقاربين أو يقبل كل منهما الآخر. كل شيء متناسق ووادع. الغريب أنها رغم هذا الهدوء راودتها حياة القاهرة بصخبها وجذونها واشتاقت للحظة لهذا

البعث القاهري المجنون. التقط لها آدم بعض الصور، لم تتبه للكثير منها واستكملاً للسير عبر "أورانيا" فنزل بها إلى ضفة قناة الدانوب. أعجبها المكان كثيراً وأرادت أن تجلس قال لها:

"ما رأيك سنتمشي من هنا حتى البيت؟"

راق لها آدم يسألها رأيها فيما ينوي فعله. سلوك مهذب لم تجده من أحد في حياتها من قبل. روق كان يقرر كل شيء دون أن يلتفت مرة إلى رغباتها، يقوم بما يحب هو، على اعتبار أن لرغباته الأولوية وأن اختياراته - كرب عائلة - سوف تروق لآخرين دون نقاش، لكنها أيضاً فكرت في اللحظة التالية، أن آدم لو كان ديكتاتوراً في قراراته حتى، لراق لها، ولأصبح للتعنت والسطوة والانفراد بالرأي هوى في نفسها.

كأنها ثمنت أمنية تحفقت لها في ليلة القدر. سألها:

"ما رأيك في تذوق الآيس كريم من (آيس صالون)؟ هذا أشهر محلات الآيس هنا."

ابتسامتها أحاببت بنعم وعيناها أحاببتا برد متكرر دائم يُرى ولا يقال: "أحبوك" صعداً من ضفة القناة، متوجهين نحو المحل، قال لها:

"اعتدت أنأشترى الآيس من هنا وأكله وأنا أقشى، يجب أن
تجربني طريقي؟"

في أحيان كثيرة لا تستطيع أن تجيئه سوى بابتسامة رائقة نابعة من كل روحها.

"انتظرني هنا!"

أشار لها أن تجلس على أحد المقاعد المتناثرة بالقرب. كان الازدحام شديدا كالعادة؛ فتأخر قليلا. لما عاد، لم يرها في مكانها. ظل يدور حول نفسه. قلق عليها وهو يمسك في كل يد بالآيس كريم الذي بدأ يسيل من بين أصابعه للأرض. استمر الأمر لدقائق لكيها كانت أطول من اللازم ليشعر بقلق أكثر من اختفائها المفاجئ. فجأة جاءته ترکض. نظر إليها ذات نظرة الجسم التي لن تنساها، يوم تركته في المتحف لسؤال النادلة عن دورة المياه. توقعت صوته الآمر خارجا من بين شفتيه في لحظات. اكتست برعشة الخشية والسطوة، قالت بصوت لا يكاد يخرج:

"آسفة رأيت محلا لفساتين العرائس في الفترينة القرية فانجذبت إليها وأخذتني التصميمات في الفترينة الأخرى في المدخل، ونسرت نفسي قليلا!"

نظرته كانت وافية. رمى الآيس كريم الذي سال من بين يديه:

"سأشتري غيره حالا!"

نظف يديه بمنديل ورقى. وسجّبها من يدها كتلميذة، قائلا:

"ابقِي هنا إلى جواري! لا تتحرّكي!"

كان أجمل أمر سمعته في حياتها. وقفّت تتأمل غضبه وأوامره وقد خدرها كلامه مثل فريسة في غابة. تخيلت أول غضبة لآدم من حواء في أول الخلقة.

تمشيا معا، فبادرته:

"عادة المرأة أنها لا تُسرّ لرجل بما سأقوله لك، لكنني أشعر أنني منجدبة لقوتك. هذا الجسم يروق لي، من أعماقي أشعر بالحاجة لأن يستعبدني من أحبه. شخص يعرف كيف يسترقني بمهارة الحب وسطرة القلب. معك أشعر بحاجتي للاستعباد منك، أن أتذلل لك عن طواعية هل فيما قلت، شيء من الشذوذ؟"

"لن تصدقيني، إن في أغوار نفسي إحساساً بالسيطرة لا أنكره، وأود أن أمارس هذه الغريزة مع من تستحق، وهي أنت، وأنت فقط. ربما يبدو كلامي غريباً أو متناقضاً، لكنني أشعر أنني أكمل بسطوتي عليك، وأن سطوة العاشق عندي تكتمل بطاعة وامتثال المعشوق عندك!"

نهدت ليلي بصوت عالٍ:

"أرجوتي! كنت أخشى أن تكون في نفسي علة. مشاعري تبني على أن المرأة في أغوار نفسها لا يمكن أن ترکن لرجل لا يكمل نقصها داخلها، ليس النقص الذي شوّهه التاريخ الأخلاقي، بل النقص الباحث عن اكمال الذات، ومشاعري تبني أيضاً بأن الرجل لا يمكنه أن يرکن لامرأة تشعره باكتمالها دونه. إنها دائرة عشق أبدية، لا يعيشها بتوافق وصفاء إلا قلة!"

قضيا وقتاً جميلاً في التمشية على ضفاف قناة الدانوب. ثم كرر سؤاله

الذي بدأت تعشقه وتمنى سمعه:

"جلس هنا على هذه الباخرة.

وافقت على الفور. كان الجو رائعا، استأذنته للاتصال بفاطمة لطمئن عليها وتأكد لها أنها تستمتع بوقتها.

"هل تروق لك الحياة في فيينا يا آدم؟"

سألته فصمت قليلا ونظر نحو الماء، ثم قال:

"فيينا تبدو أحيانا مثل جدة تغنو علي وأحيانا مثل عاشقة جميلة لا تتركني، لكنها تحول أحيانا مثل عين رصد كبيرة تشعر أن كل من يسير عليها غريب، لكنها في النهاية مدينة صالحة لمارسة التأمل والاستمتاع بالحياة!"

"وهل تروق لك الحياة في القاهرة يا ليلى؟"

"هناك فرق بين روح القاهرة التي لا تتغير وبين هويتها التي تتغير على الدوام، تقبض فتقبض معها وتتبسط فتبسط معها. تبدو أحيانا مثل ملكة فرعونية تحب الجميع وتفيض بعطفها عليهم وأحيانا مثل ساحرة شريرة يضر سحرها الجميع، لكنها الآن مدينة غير صالحة لمارسة التأمل أو الاستمتاع بالحياة!"

مر الوقت هينا هينا بين عصف من الأسئلة يدور بينهما بلا هواة وبين أسئلة تحوم كطيور في فضاء الحرج، تود أن تسأله أسئلة شخصية لكنها

تخشى التعجل فيها فتحرجه، وتخشى في آن تأجيل الأسئلة، فالوقت في فيينا ليس في صالحها. غامر بسؤال ماكر:

"ما هو الفارق في رأيك بين المرأة الأوروبية والمرأة الشرقية؟"

ضحك آدم ضحكة عذبة راقت لها لكنها أربكتها، ظنت أن سؤالها ساذج:

"سؤال ليس سهلاً، أظن أنني لن أنجح في الجواب؛ ففي ظني أن الفارق وهمي وظاهري. أرى السؤال يلوح بالعلاقة مع الرجل لأكون صادقاً.

راق لليلى هذا التصنيف الذي وضعه؛ فهذا تماماً ما تسعى إليه، وهو بهذا اختصر سؤالين إضافيين على الأقل. أوّلها برأسها فتابع:

"المرأة الغربية واحدة من اثنين، امرأة تعرف ما ت يريد وامرأة تجهل ما ت يريد وهذا قد يكون خيراً أو شراً لهما!"

"والشرقية؟"

"المرأة الشرقية واحدة من اثنين، امرأة تريـد ما تعرف وامرأة تـريـد ما تجهـل وهذا قد يكون خيراً أو شراً لهـما!"

"ـحيـرتـنيـ، وماـفـارـقـ إـذـنـ؟ـ"

"ـلـيـسـ هـنـاكـ فـارـقـ صـدـقـيـ.ـ نـحـنـ نـتوـهـمـ الفـرـوـقـ،ـ لـأـنـاـ نـتـجـاـوـزـ التـارـيـخـ مـرـةـ أـوـ نـتـجـاـوـزـ شـرـوـطـ المـجـتمـعـ مـرـاتـ!"

"وفي أي التصنيفين أقع أنا من وجهة نظرك؟"

ضحك آدم وقال:

"أظن أنك امرأة تعرف ما تجهل فتريد ما تريده، وهذا نادر
وجميل!"

استمر الحديث مشوقاً لكتلتهما؛ آدم سعيد فهو منذ زمن طويل لم يتناقش بلغته العربية بثراء يشبع ما لديه من شوق قديم لعالم بعيد، ولily سعيدة بنقاش ممتع يلمس شيئاً فيها يهざها. تشعر بالجذب لا تحفيه عينها ولا ميلها الدائم بجسدها تجاهه واقترابها البطيء كلما أنشقت إليه، لتسمع كلامه متحججة بضجيج وهي غير موجود في هذه المدينة، وهو يعشق منها هذا القرب ويعلن بهمس مقصود كي تقترب. في هذه اللحظة صمتا للمرة الأولى. نظر كل منهما في عيني الآخر، فباح الصمت بالساكن وفاضت مشاعرهما المحبوسة في اختلاج التنفس؛ فخبط على يدها بربات حنونة أن يقوما لأن الوقت تأخر عليها.

في الطريق للبيت تمشيا والصمت يغلف مسيرتهما بدقق المشاعر. عند إشارات المرور كان يمسك بيدها ليعبر بها الطريق؛ فكانت تعطل عمداً كل مرة ليسحبها برفق، يده تطلب يدها، فتمتد اليه بالقبول وتسكن في كفه، كل إشارة خضراء في ذاك المساء كانت تعني أن يمد كفه لكتفها لتسكن فيه ويعبر بها للجانب الآخر، حتى وصلوا أمام البناءة التي يسكن فيها أخوها ياسين. تمنى أن يقبل وجنتيها على الطريقة

الفيناوية في الوداع، وتنبت هي من داخلها لو قبلها في الشارع أو حتى أمام البيت كما رأى - عشرات المرات في هذه المدينة - عشق المحبين في كل الأعمار، ولن يهمها أي شيء؛ فهذا الرجل الذي في قلبها وضعه الله في طريقها لم يكن عبيداً، فلا يمكن أن يخترها فيما تحب إلا بما يحب ويرضى، ولا يمكن أن يطعمها جرعات من الجنة ليمهد لها طريقاً إلى النار، وما قدره لها لن يكون بمعصية ليغذبها بها، بل ليسعدها بها.

قبل أن تفلسف الحالة وتحوّل بهجة اليوم التي ملأت كيانها. ودعته سلام باليد التي عاشت اليوم أجمل أمان عرفته وأعذب تصافح في عمرها. أبقت يدها في يده لوقت أطول من المعتاد في المصادفة!

افترقا وهي لم تفتح البوابة بعد. انتظرت وهي تلوح له، حتى غاب عن العين، أحسست بتسارع نبضها كلما ابتعد، بخلاف من وله الفرح والحزن. همست لنفسها:

"ما أجمل هذا اليوم! ما أجمل القرب منك يا آدم!"

ثم كررتها بصوت عال وهي تفتح البوابة وتصعد مرحة، تفكّر في الاتصال برانيا وحاتم ولم تهتم بما سيواجهها من أسئلة ياسين أو فاطمة.

آدم ودعها وزاحمه زخم من الأفكار، تنبه بعد مسافة ليست قصيرة أنه يسير في اتجاه عكسي نحو منزله وأنه يعود إلى الطريق الذي عاد توا منه، كمن يلمّل العطر منه زاداً له. احتوت ليلي ذهنه وأضاعت منه

بوصلة العودة. شعر بقلق كبير، جاهد في محاولة طرد الأفكار أو محاولة تخليلها: امرأة متزوجة ولها أولاد وتعيش في مكان بعيد وشبه عالم آخر، وأولاً وأخيراً أخوها صديقه. كل هذا يعد هذه العلاقة من بدايتها وينقطع أواصر أي رباط، لكن الآلة لن تجعل قلبه يهناً بوجودها هكذا دون حكمة، بعض النظر عن أي معارف أخلاقية رافضة. الله هو الذي سيحدد الاختيار والمصير. الناس ليس لهم علم بحكمة الله سيتصرفون فيما يتعلق بالأحساس وفق ماض لم يتعلموا منه ووفق منطق لا منطق فيه. ستتحكم فيهم غريزة الانتقام قبل غريزة التراحم والقبول.

* *

كان ياسين وفاطمة جالسين في غرفة المعيشة يتحدىان بصوت هادئ حين فتحت ليلي الباب. رحبا بها. وسألها عن يومها كيف كان وإن كانت استمتعت. اختصرت اليوم عند نقاط معينة محايدة وأبدت فرحتها أكثر بما شاهدت، ذكرت اسم آدم بشكل عرضي وشكرت تفضله بمصاحبتها. فاطمة بمشاعر وجمسات المرأة أحست بليلي، رأت لمعة البهجة الطافية على الوجه، لم تكن بهجة مشاهدة معالم ومتاحف المدينة بقدر ما كانت بهجة الوصول لأعتاب سعادة ما. ياسين صمت. نظر إليها ملياً كأنه يسرير غورها، ثم عاد لاحتساء كوب الشاي بهدوء، شعرت أن نوازع داخله تربكه و يجعله يريد أن يسأل عن شيء ما يقلقه. ليلي ظلت على صمتها البعض الوقت ولسبب غامض في نفسها ارتأت لعدم إقدامه على إخرج أي سؤال.

كالمئومة تحدثت ليلي إليهما، الضوء الخافت جعلها تتمكن من التخفف من نظرات الفضول ومن استعادة اليوم في ذهنها من بدايته كشريط فيلم. صورة آدم كانت مركز تخيلاتها؛ كل فعل وحركة ولفتة منه، بينما لسانها يحكي تفاصيل أخرى محايدة. بعد أن خفت الحديث، استاذنت منها لتأخذ حماما قبل النوم كما تعودت.

على الجانب الآخر من المدينة كان آدم غائبا في البانيو الساخن، يسترجع اليوم بإحساس قلب هاني وارتباك مهيمن لذين يؤرقه تداخلهما. كان قد أخذ هاتفه معه ووضعه إلى جوار البانيو وترك نفسه للماء الساخن يجلي له الذكريات القرية ويتبتها. ليلي كانت أيضا غائبة في البانيو محاولة إنقاذ كفها اليمنى من أي بلل. اليد التي احتضنت كفه في ذاك اليوم مرات. تشممت كفها لستحضره ومسحت بها على وجهها، قبلت آثار يده التي في يدها، وأخيرا بعد أن سرى في جسدها استسلمت لوضعها في الماء.

ما إن دخلت غرفتها حتى دق هاتفها، لم يكن سوى صوت آدم المخون:

"شعرت بالفقد بمجرد أن تركتك.. ليتنا بقينا معا!"

لم تجرب فأكمل:

"قليل من الوقت أفضل من اللا وقت!"

كان كلامه هامسا، حاملا بحة حزن مميزة. فكرت هل عاشت كل

هذا العمر لنجد الحب أخيراً؟ عندما صارت نفسها بالكلمة شعرت بخوف وريبة، ترى هل ما تشعر به حياله حب فعلاً؟ أم مجرد تجربة لوقت مستقطع لتهون عليها أيامها؟ أخذتها الأفكار، على الرغم من وجود آدم على الطرف الآخر. خمنت أن الأفكار نفسها تداهمه. فاجأها صوته قائلاً:

"تصبحين على حب يا ليلي!"

قالها وأغلق قبل أن تجيب.

مر الأسبوع الثاني بطينا. روتين شبه صارم. صحو مبكر وإفطار شبه صامت، حاولت فاطمة أن تلطف. الأجواء الصباحية لكن ياسين يظل دائمًا صامتاً، يشيع بتجهمه جواً من الارتباك المشوب بالحيرة. أما عبد الله، فاستطاعت ليلي بعد يومين أن تكون صديقته الحميمة التي يهرع إليها، حتى بعد عودة أمه وتجهيزها الغداء، يظل ملتصقاً بليلي. فاطمة تدخل بعد الانتهاء من تناول الطعام إلى غرفة المكتب لتكتب في أطروحتها. تشغل ليلي في القراءة ومتابعة عبد الله ورؤيه بعض البرامج التلفزيونية.

على قناة أخرى خفية في ذهنها ترى عالمين آخرين، عالم فيه حاتم ورانيا يلهوان وصورة باهتة الملامح لفاروق، وعالم يتحرك فيه آدم في فيينا قريباً منها. في المساء، يعود ياسين ويتم تحضير العشاء. يتناولون الطعام في جو يماثل كابة الصباح ذاتها أو تزيد. لم يكن مدھشاً لليلي أنه لا يحكى

عن عمله شيئاً مترابطاً ومفهوماً، ما أدهشها قبول زوجته أسلوبه، وقدرتها على التعايش معه. كأنه يؤدي دوراً لا يحبه ولا يحب أن يستعيده.

في إحدى محادثات آدم الليلية، أبدت له اهتمامها بطبيعة عمله وبرغبتها في الاطلاع على طريقة ترميم أحد الأعمال. عرض عليها فوراً زيارته في نهاية الأسبوع التالي لو لم يكن لديها أي برنامج عائلي، لتأتي إليه في ورشة الترميم التابعة للمكتبة وتزكيه كيف يرمي الكتب أو المخطوطات. قال كلامه بلا حرج، لم يجد أنه يقصد استدراجها لينفرد بها. "يبدو أنه لا يمتلك روح المتحرش ككل من عرفهم من الرجال في السابق!" هذا ما قالته ل نفسها وهي تسمع عرضه. لم تجد بداخلها صدى للرفض، لكن الأصعب بالنسبة إليها كان كيفية إخبار أخيها برغبتها في الذهاب إليه دون أن تبدو في عينيها أمنيتها في إقدام آدم على التحرش بها. ظلت متربدة كلما التقت بيسين على الطعام صباحاً ومساءً، كيف تخرج صوتها لتخبره دون أي مشاعر تشم عما تشعر به. فولاذية وجهه كانت تشيه عن فتح الحوار، لكنها أفصحت أخيراً قبل الموعد بساعات، وفوجئت بأنه لم يقل سوى:

"سأراففك حتى مكتبـه ثم أغادر!"

كان منظره مثيراً للشفقة وهو يخبرها بهذا، لم تفهم تحديداً ما الأفكار التي يصوغها بداخله وتجعله يجد بهذه الهيئة، لكنها لم تهتم. في الصباح فعل ما قاله بالضبط، وعند باب مكتب آدم صافحها بنظرته وتركها بمفردها.

فرح آدم بوجودها، لكنه أغتم عندما علم بما فعله ياسين، توقع عندما أخبرته ليلي مساء في الهاتف أنه لن يترك ليلي قبل أن يسلم عليه، ثم غير الموضع قائلاً:

"رما لديه ما يشغلة!"

بهذه الجملة قررا أن يتناصيا حنقه على لقائهما، أو يؤجلان الحديث عنه، فرراً ألا يفسد طيفه بهجة النهار، ووجودهما معاً. كان قد جهز كتاباً في حاجة للترميم، كتاباً قدما متهرئاً لكنه لم يدخلها إلى ورشته قبل أن يقول:

"أفقدتك!"

لم تجحب فأكمل:

"أعرف أنك شعرت بافتقادي أيضاً.

ثم سحبها من يدها ودخلها ورشته، شعرت بكفه التي تعرف جسمها عليها فاستكان إليها وسكنها، تغيرت شخصيته بمجرد عبور الباب ليتحدث بجدية عن عمله كأنه شخص آخر تماماً:

"أول ما نفعله، أنا نفتح الأغلفة وكثيراً ما نجدها محشوة بصفحات من الكتاب نفسه، فيها أخطاء في النسخ أو مكررة تُستخدم كبطانة، ونفضل أن نستخرجها ونحوّل الأغلفة بحشو حديث أكثر متانة!"

من حظ ليلى أن الغلاف كان به فعلاً بعض من هذه الصفحات. أخرجها آدم بشرط حاد كمن يجري عملية جراحية دقيقة، ثم وضعها لدقائق داخل صندوق زجاجي مفرغ للهواء وهو جهاز لمعالجة أوراق المخطوطات والكتب وفكها. أخرج بعد قليل الصفحات وقدمها لليلي. كانت منسوخة بحبر أسود يميل في بعض المقاطع إلى اللون البني الغامق مع وجود بعض الرسوم في شكل مربعات ومستويات ودوائر عن الفلك، بعض الصفحات بدت كمسودة بها بقع حبر أخفت مقاطع منها، و يبدو أن هذا هو السبب الذي جعلها تخفي من المتن لتصبح حشوا.

ليلى أبدت اهتماماً كبيراً بالعمل وبالجهاز وبطريقة فض الصفحات ثم بالنصوص، مما جعله يستغرق في الشرح كأنه في قاعة الدرس وليلي تلميذة تكشف بهجة العلم التطبيقي.

اهتمام آدم بليلى لم يعد خافياً، لكنهما لم يدخلان إلى هذه المنطقة الملغمة بأي تلميح ولو غير مباشر. التعامل بهذه الطريقة أربكها، بعد أن استعدته في بداية فترة مجئها، لكن صمتهمما على الرغم من إحساسهما جعلها تشعر بأن ثمة مؤامرة تحاك ضدها، ولم يمهلها ياسين لتعتقد خطأ ما فكرت فيه، بل واجهها بشكل مباشر عند المواجهة الأولى، ولم يترك لحسن الظن مكاناً بينهما. تقدمت فاطمة في الأطروحة في وقت وجيز، وظللت ليلى تلتقي بآدم في نهاية كل أسبوع، لم تكن تدري أن كل لقاء بينهما لا يعني سوى أن الفترة المقدرة لها في فيينا تناكل. تغضى ياسين تدريجياً عن الاستفسار

من ليلي عن آدم المرافق شبه الدائم لها، ولم يستفسر منها عن تأخرها أطول من المعتاد كلما تركت خبراً مفاده أن آدم بصحبتها. كانت تعود منشرحة متألقة بشجن فريد يغلفها. حينها فكر ياسين في أن يمدد لها وقت إقامتها في فيينا لتبقى في خدمة صغيره لأطول وقت ممكن، مستغلًا حالة البهجة في تواجدها مع آدم. صارحها برغبته في مساء عادت فيه تزف انشاراً عنها، وتألقها في غلالة غير خفية، صمتت وهي لا تستطيع أن تخسم أمرها، نازعتها فكرة البقاء، هاجس يهمس لها بأن الأقدار تقدم لها هدية نادرة وتحصها بشيء سيعوضها عن حياتها الخاوية. لكنها فجأة شعرت في ياسين بخدعة مستترة لإبقائها في فيينا لمصلحته فقط. لم ينافش ياسين معها أي شيء من أحاسيسها، ولا حتى ظنه بوجود شرخ ما في حياتها العائلية يستشعره ولا يرغب في الاقتراب منه. شعرت بشيء من الرجع الخفي؛ فأخوها بأنانية حمقاء يتغاضى عن كل شيء من أجل أن تبقى. لا تهمه أخته ولا أحاسيسها ولا حاجتها لموازرة صادقة ولو بأقل مشاركة في حوار!

سألته ب المباشرة بصوت هادئ و كلمات حادة لم تعرف كيف تجمعت
بداخلها كبركة مياه آسنة:

"هل تريدين أن أبقى لأنني سعيدة بصحبة آدم يا ياسين؟"

فقال بصرامة تزيد على صراحتها وتفجعها:

"ولم لا؟ آدم شخص لطيف.. فلِم تستعجلين العودة؟ مازلنا
بحاجة إليك!"

"أنت تريدين أن أبقى لأنكم بحاجة إلى فقط؟"

فقال ببرود لا يناسب فجيئتها:

"وأنت تسعدين بالبقاء من أجل آدم يا ليلي.. المسألة تبادل منفعة..

"تبادل المنفعة بهذه الطريقة عملية تستغني عن الحس السليم للبشر، انتهاز الفرص فيها للأقوى!"

"أمازاتم في عالمكم العربي تضخمون الأمور.. وتخلون - تحت الشعارات الرائفة - عن سعادتكم؟"

لم تجده ما تقوله. فقط صمتت، فتركتها إلى غرفته لينام، لم تكن فاطمة موجودة عندما عرض عليها البقاء، لكن ليلي لم تستبعد معرفتها بالعرض، هما يشبهان بعضهما البعض، وإلا كيف بقيا معاً وسيقيان؟ هذا ما راودها.

دخلت غرفتها، لا تعرف كيف اتصلت بآدم، وحكت له ما حدث بينها وبين أخيها، على الرغم من أنهما لم يمنحا ما يشعران به اسم "حب"، ظلت علاقتهما طوال الفترة السابقة صداقه علنية وميّلاً مستترًا، إضافة إلى مشاعر أخرى غير معلومة، كالبهارات في الطعام، لا يهم اسمها كثيراً. فوجئت بآدم يقول لها:

"ولماذا لا تبقى يا ليلي؟"

"هل يروق لك تفكير ياسين؟"

"لا، على الإطلاق، لكنه يريد بطريقته الفجة ما نريده نحن
بمشاعرنا الصادقة."

"لا تقبل روحني هذه المعادلة يا آدم!"

"نحن نخلق دستورنا وشرعيتها فيما بيننا، لا تهم التسميات، لن
يهمنا الآخرون، ألا تريدين البقاء بقربي؟"

فجأة اكتشفت أنها أخبرته بكل ما تشعر به، لكن على لسان أخيها،
كأنها صرحت له أنها تحبه عندما أخبرته بما قاله ياسين، وفي المقابل، هو
صرح لها بحبه، عندما باح بالمشاعر الصادقة بالبقاء بقربه.

"أليس القدر عجياً يا ليلي؟"

انتشدلا من أفكارها بهذه الجملة، فلم تجد سوى البكاء رداً عليه.

عندما أغفلت الهاتف عادت إلى اكتئابها وشعورها بالحزن على ياسين،
كانت شخصيته سبباً في كل ما مر بها من حوادث مؤلمة، ولم يهاجر قبل
أن يقضى عليها تماماً، لم يسألها عن حياتها ولو مرة بعد أن ورطها في
زوجة غير سعيدة ليتحرر، مع أنه كان في ذاك الوقت من أعتى المنادين
بتحرر المرأة. في الخارج كان ينادي بشعاراته الطنانة وفي الداخل ينفذ
دستوراً مخالفها. الآن يلعب الدور نفسه وها هو يعود لاستعمالها لتحقيق
مصلحته بقسوة. حياته حلقات منفصلة تماماً عن بعضها البعض، كأنها

لعدة أشخاص يختلفون في كل الصفات والأفكار، يُخلص للمرحلة التي يعيشها إخلاصا حتى تكاد تعتقد أنه قد وهب كل وجданه لها، لكنه حين يتنقل لطور آخر يمحو الطور القديم بكماله. لا يعرف أحد هل يستعين على الأقل بخبراته السابقة أم يحرقها أيضا كما يحرق في كل مرة مراكب وصوله لكل أرض جديدة.

هذه الصدمة المستترة الموحّدة، منحتها ليلة مسهدة ظلت فيها تفكّر فيما ححدث طوال حياتها، وانتهى الأمر بعصف ذهنها لتفكير فيما قاله آدم في نهاية حديثهما منذ ساعات، هل تستطيع أن تكون "هي بلا أعباء أناية الآخرين التي ترثح على أكتافها طيلة الحياة؛ أن تهتم بكينونتها التي تسيل منها كتمثال من الشمع جنب أفران الذكرة. كادت أن تحسم الأمر بالبقاء فترة إضافية في فيينا، لا لتجعله يدرك من الآن أنها على علاقة بآدم، وقتلته بهذه الفكرة الطائشة كما فكرت في بداية الليلة، ولا لأن تستفزه ليواجهها مرة لتخرج ما بداخليها وتتوقف عن الحياة على هامش الحياة، بل لأنه باقتراح الحل الذي يحقق مصلحته، وجد لها حلا لم تكن لنفكّر فيه مهما أعيت فكرها.

تركت برامجها الأسبوعية لآدم يرتبها لها كما يشاء. يعرف أنها تعشق الموسيقى، فأخذتها عدة مرات إلى الكونسرت - هاوس في فيينا، استمعت وشاهدت ثلاثة من أجمل العروض في حياتها الثلاثة من عمالقة الموسيقى، بدأ معها بحفل كونسيرت للموسيقار يوهان سباستيان باخ. مقطوعاته التي جلبت إليها أحاسيس أجمل ما فاتها من الزمن القديم، هكذا شعرت مع

موسيقاه الأزلية وحدثه فيما بعد، خصوصاً "منوعات جولييرج" على البيانو.

في تلك الليلة الفريدة في عمرها لم تقدر أن تمنع نفسها عن نهنهة مكتومة طوال العرض. أحس بها ولم يسألها ولم يوقفها عن بكائها. كل ما فعله أن أمسك بكفها لوقت طويل وتركها تغسل بدموعها. غسلتها الموسيقى بما لم تخيل أو تتوقع. قال ليوكد لها شيئاً سرتبه له فيما بعد:

"هذه القطعة رقمها 797 لباخ، وهناك أيضاً مقطوعة شهرة
لشوبرت بالرقم نفسه سوف أهديها لك، لقارني بينهما!"

في المرة الثانية دعاها للكونسيرت هاوس لعرض موسيقى للموسيقار النمساوي الأشهر فولفجانج أماديوس موتسارت. استمعت هذه المرة بفرح كبير إلى "سيمفونية جوبير 41" التي نقلتها إلى أرجوحة في القضاء، ثم مقطوعة "الناي السحري" التي ذكرتها - دون أن تدري ولا تعرف لماذا - بطفولة وعبث ومرأفة الشباب، ثم مقطوعة دون جيبوفاني الرهيبة التي هزت أعماقها، وأخيراً مقطوعة "فان جوخ" الخرافية التي أعادتها إلى كل أحلامها الجميلة. قالت بعد تلك الأمسية لآدم:

"لم أكن أتخيل يوماً أنَّ للموسيقى هذا الفعل السحري،
موتسارت هذا أحضرني وثبتني في الحاضر بأجمل ما شعرت
به في حياتي!"

في المرة الثالثة حضرت معه عرضاً موسيقى لودفيج فان بيتهوفن، لم

تستطع أن تغالب دموعها والفرقة تنتقل إلى مقطوعة (سوناتا ضوء القمر) ثم إلى مقطوعة (أنشودة الفرح). شعرت بأطوار جديدة، كأنها انتقلت للمستقبل، سكينة وتأمل وإحساس بطعم الحياة، اختتم العرض بالمقطوعة القصيرة الأشهر (إلى إلزا). قالت أحاسيسها لآدم، أسعده كلامها ووعدها بأن يهديها كل السيمفونيات التسع إضافة إلى أسطوانات الكونشيرتو الخمس المعروفة. سأله:

"هل صحيح أن مقطوعة (إلى إلزا) كانت لإحدى تلميذاته التي
هام بها وتنى الزواج منها لكنها فارقته وتزوجت أحد البلاء،
أم كتبها لشابة صغيرة كانت قد تعرضت لمرض؟"

"ما أذكره هو ما قيل عن أنه في العام 1808 قابل مغنية اسمها
إليزابيث روكل وأن هذه القطعة كتبت من أجلها، لكن هذا قول
غير مؤكداً المهم أن القطعة أصبحت خالدة رغم قصرها، فهي تطلق
أحاسيس عميقة في الوجدان في كل مرة يستمع الماء إليها، ألم تفعل
فيك هذا الفعل؟"

"لا يمكنك أن تخيل ما فعلت في الموسيقى في فيينا. لو قيل لي إن
الجنة ستكون بلا موسيقى؛ فلن أرغب في الذهاب إليها!"

في كل لقاء كان آدم يحمل لها أسطوانات سي دي جديدة لما تعرفه وما
لم تستمع إليه من قبل، نقلها بين موتسارت وتشايكوفסקי وشتراوس
وبيتهوفن وباخ وشومان وفاجنر وبرامز وسكلارتி وفيردي وفيفالدي

وهايدن وتيلمان. ينتهي السهولة والبساطة وبحكايات شيقة عن حياتهم وموسيقاهم. ثم عرفها على موسيقى الجاز وحضرت معه بعض الحفلات الجميلة في (بورجي أند بيس)^(١) في الحي الأول. نقلها على سحابات الموسيقى حتى كادت ترفض النزول إلى الواقع من شدة التعلق بها!

في أوبرا فيينا شاهدت للمرة الأولى باليه (بحيرة البحص)، كانت تنهض بانفعال وتشهق بطريقتها المكتومة، الإحساس الذي غمرها فيما ورث المشاهدة فاق خيالها وهز أعماق مكان في وجданها. شاركها آدم الإحساس وأمسك كفها مرات، بل قبل كفها بمحبة صادقة أثناء العرض.

فتح لها آدم دهاليز المدن وروح الفن، فتح لها بوابات جنة كادت تغلت منها. كان يصون مشاعرها كما يليق بها، لا يستبق أي شيء، يرد على أسئلتها الصامتة الكثيرة بإشارة لللوحة في معرض أو متحف أو بمشاركة إشباع المشاعر من جدول أو شجرة أو زهرة أو جبل أو حيوان أو طائر في الطبيعة أو حتى بحركة طفل بريء في الطريق. ينبهها بالإشارة أو الإيماءة فقط لأن تتابع. ذهبت معه إلى مدينة سالتسبورج وإلى بحيرة القمر الرائعة وإلى بيت موتسارت وإلى مدينة جراتس، وإلى مدينة كريمس على الدانوب ورأت جنات الكروم السابحة فوق الهضاب وتتدلى إلى النهر، استمتعت بالصعود لجبال الألب وتأمل

(١) Borgy & Bess: من أشهر قاعات موسيقى الجاز في فيينا، تأسست عام 1993 ويعزف ويغني فيها أشهر الفنانين في العالم.

الدنيا من هذا العلو. زارا معاً مدن الشمال المتاخمة لحدود جمهورية التشيك لي BOTH الفلاحين الرائعة، تعرفت على صديقانه وأصدقائه الذين احتفوا بها كأنها صديقة قديمة عادت إليهم. قضت أياماً شكلها فيها من جديد.

عبد الله الصغير هو الذي أبقياها في علاقة متوازنة من الانهيار والانفجار في وجه ياسين. ولو لا المسحة الإنسانية التي ربطت فاطمة بها، وحبها الجارف غير المتوقع لعبد الله لانتقلت في تهور فاضح للإقامة مع آدم.

تجربة انكشاف ياسين خلقت صدعاً عميقاً بداخلها لم تعرف كيف سترّمه.

قالت لنفسها:

"أنا حرة أيضاً يا ياسين! من الآن لن أغلق نفسي على مشانق مثل هذا النوع من الرجال. كدت أفقد ثقتي في وجود رجل وحيد لم تلوثه الحياة بخلل رجولي لا يدركه."

جلست ليلياً على طرف سريرها. للمرة الأولى لم تتصل برانيا ولا حاتم ولا آدم. لم تذر بها الدنيا. بل هي التي أدارت الدنيا بنفسها في تلك اللحظة من بدايتها، رمت الأسى عن ذهنها وفكرت في أن تزور آدم في اليوم التالي في شقته؛ أن تخسم أمراً معلقاً لا يصل لسماء فيها رب يرحم ولا ينزل على أرض فتحيا أو تموت.

ستكون في الغد مع آدم وستقول له كلاماً حبيساً منذ الأزل، وعليه أن

يقبله أو يرفضه أو يبقى محايدها، لكم تود أن تصرح له بجملة واحدة حملتها كل نساء العالم منذ الأزل! لا تهم النتيجة. المهم أن تخرجها للدنيا قبل أن تموت. ثلاثة الآن هم محور حياتها: في قلبها وفي روحها وفي جسدها: حاتم ورانيا وآدم!

في القاهرة في جلستها على طرف السرير ، بعد أن دارت في مخيلتها سيرة حياتها مع فاروق ، لم تعثر على أسبوع وحيد في حياتها تتذكره يسعدها ، حتى اللحظات التي حاولت أن تسحبها من الذاكرة عنوة ، ظهر لها مع هذا العمر الطويل زيفها وكذب فاروق على مشاعرها طوال هذه السنوات . إنسان وحيد الخلية يعيش لنفسه فقط . كادت في لحظة أن تكفر بكل رجال العالم ، لو لا بصيص من أمل الحياة بزغ في حياتها ليعيد لها آدميتها ، ولو لا حاتم ورانيا لاستسلمت لقدرها وذابت في أمراض نفسية وغابت عن الدنيا .

إذن أنا حرّة يا فاروق كما قلت ، وأنا أقول لها لك منذ هذه الساعة وأمام ربى الذي سيقبلها مني مهما قال الناس ، ومهما اتهمت بسببيها !

"أنت حرّة!"

يا لها من كلمة قصيرة قاتلة . تخرج ليلي من الصالة حانقة ، وتدخل غرفة النوم . لا يتسع المكان لروحها الحائرة . تجلس على طرف السرير توقف دموعها التي بدأت تسرب وتقول لنفسها :

"أشهدك يا ربِّي، أُنني أطلق زوجي فاروق طلاقاً بائنا لا رجعة
فيه منذ هذه الساعة وأُنني محمرة عليه!"

توقفت دموع ليلى فجأة بعد قولها هذه الجملة. شعور عجيب سرى
في روحها وخفف عنها. رأت الغرفة المظلمة مبهجة. سمعت فجأة
صوت فاروق في الصالة كصوت الغريب الذي لا يعنيها، شعرت أنها
في الوقت الذي تخلصت فيه من فاروق، وأنها استعادت إحساساً عميقاً
بنفسها وبالحياة.

للمرة الأولى نام ليلى في الصالة ليلاً وفاروق في غرفة النوم.

صدى الجملة ما زال يرن في رأسها، حتى نبست هي بالجملة في
خفوت أشبه بالخلص من كابوس يزهق الروح:

"أنت حرة!"

يا لها من كلمة قصيرة قاتلة! مسحت دموعها التي بدأت تتسرب
ووقالت لنفسها:

"هل كان علىَّ أن أسمع جملة (أنت حرة) ألف مرة منك يا
فاروق حتى أطبقها فعلاً!"

٩

"قالوا لي: إذا لم تتمكنني من الزواج من أحببت، فبحبي من ستتزوجين ا"

"هذه حكمة منقوصة. لكن في أي معاذلة منها نجحت يا ليلي؟"

"لم أنجح في أن أتزوج من أحببت، فعانيت مع من تزوجت، لم يجعلني أستطيع أن أحبه. فشلت في الاثنين يا آدم. هل تعرف ماذا يعني هذا؟"

"طبعا! تعasse بلا حدود!"

"التعاسة إحساس هيّن لما تعانيه المرأة مع فشل مركب كهذا؛
 فهي تظل حبيسة ماض مكدس بالغم لا يفارق ذاكرتها، وحاضر
 يتسرّب كلاماء من بين الأصابع ويسقط في إناء الماضي، وفي رعب
 من مستقبل تخشاه!"

"أنا ما زلت مصرًا على أن الحاضر هو الأهم وهو الجدير
 بالعيش!"

"هذا كلام رجل حر يا آدم!"

"وهل هناك فرق في نظرك؟"

"التحرر هو الفرق، تحرر المرأة يُفهم في عالمنا الشرقي دائمًا على
 أنه تفكك وإباحية وتهتك وقاموس رديء من الصفات السلبية.
 إنه فرق مصطلح يحمل إرثاً من القهر والتعسف.

"أنت حرّة بأخطاء لكن بلا خطيئة!"

"كيف؟"

"كل إنسان حر يخطئ، ومن يدرك خطأه قد يسلم من
 الخطيئة!"

"وهل تسمح لنا الحياة أن غير عبرها بلا خطيئة؟ أم أنا نخدع
 أنفسنا؟"

"نحن نخلط بين الخطأ والخطيئة في الحب.

"كيف؟"

"الشخص الذي يكفر في الحب يقترف خطأ، والشخص الذي يبرر مكره ويخدع في الحب يرتكب الخطيئة، بعيداً عن المفاهيم الأخلاقية رغم استعانتنا بكلماتها.

كانت ليلي تفكّر في كلامه فتّصمت، وترجع حياتها عبر معانيها. شعر بتوترها فكرر جملة مهمة هي فصل الكلام عنده، قال:

"أنت في أعماقك حرّة بأخطاء لكن بلا خطيئة وأعتبر نفسي
مثلك!"

ساد صمت طويلاً نسبياً، صمت مريح لكلّهما، محوا فيه معافترة من الماضي وشعرَا بإحساس خسارة الزمن الذي مضى من عمرهما دون أن يلتقيا، كأنه أنصت إلى صوت شعورها الداخلي قال دون سبب واضح، مثل جملة اعتراضية:

"تعرف فجأة على أشخاص، ونظن أن التعارف قد جاء في وقت متأخر، ولو تأملنا يصدق فإن ساعة واحدة معهم كافية
لنشكر كل الحياة!"

ردّها كان نظرة إليه وهي تشرب كلماته في سكون. قطعت الصمت بسؤال حاسم وضروري ومحضّر:

"هل تخبني؟"

"كانت أمنيتي أن أجده امرأة خيالية تخرج على من الواقع وليس امرأة واقعية تولد من الخيال. لا تنسى أن بعض البشر شر على الآلهة!"

انتظرتك وأنا لا أعرف من ستكونين لكنني كنت موقدا بوجودك وصبرا على حضورك، وبأن هناك إلها يرتب لنا لقاء! كيف لا أحبك وأنت تعيشين في دمي منذ ولدتك دون أن أعرف كيف أجده نفسي في نفسي.

"أعاهدك منذ اللحظة أن أكون شقيقة روحك؛ أن أكون فواداً ينبع دفنا لفوادك وأن أبقى على العهد الذي بيتنا ما حبيت!"

هذه المناجاة بينهما كانت صادقة وضرورية لرأب صدع الزمن عند ليلي وشرخ المسافة عند آدم، كانت عهدا إضافيا حرا يتجدد برباط شفوي، لا يهم أن يكون أرضينا أو سماويا. في إحساسهما العميق كانا يدركان أن الخالق لم يخلق مثل هذا اللقاء لسبب عبشي، ولو تصافرت الجهود لإخفاق التلاقي بينهما، لفاز مَنْ خلق المحبة بنصر وصالهما. كانت ليلى ترى آدم في كل لقاء أبيه. تمسح بوجوهه كل آثار فاروق الخاسرة وكل الخيبات التي سبقته وكل من ترك في روحها ندبة. تراه بعين اليقين فاتنا، فيه من قبس الآلهة رحمة. هو أيضا كان يراها أزهى امرأة في الوجود. كان ينحدر في مرمر تألق شخصيتها كل يوم ليكتشف كنزا لن يتنازل عنه، كنزا ردمت عليه أزمنة أرقتها بالرجل بلا رحمة.

"كانت أمنية حياتي أن أتمكن من التسلب إلى مخي، لأعمو منه أياما

بكاملها، بل سنوات. كنت على استعداد لمحو أكثر من نصف عمري حتى ولو بقي رأسي بأقل الذكريات، أن أجد قلبي هذا الإحساس بالوخز في كل لحظة والمارارة الملازمة لكل حلو يعبرني وأنا مغيبة. تنبت أيامًا محايدة في عمري تمنعني بعض الركون إلى الراحة؛ أيامًا لا تشعل في حياتي حرائق الذكريات الموجعة!"

كانا معاً في لحظات استثنائية من الزمن يصفيان عمرهما معاً، ينخلان عنهم الشوائب ويمزجانها في عمر واحد لما تبقى من العمر. عرجت ليلى على سؤال كل امرأة تعشق وتغار و تستوثق وتعبر عن وجودها وعن حرصها على الحبيب:

"كيف مرت النساء في حياتك؟ ألم تسرق قلبك واحدة منهن،
كي تفكر مرة في البقاء معها للأبد؟"

"أتعفين يا ليلى! لقد ارتكبت حماقات بعده شعر رأسي ولم أتعلم منها، فالماء يتعلم من الأخطاء أكثر من تعلمها من الحماقات؛ فهو يكتشف الحماقات بعد وقت أطول من اللازم وفي الغالب يكتابر ويدافع عنها. لم أرتكب إثما يؤئنني عليه ضميري بعيار المكان والزمان، بعض الناس يظنون أنني حكيم، لكنني أقبض على نفسي متلبساً بحماقات يتغاضون هم عنها، ربما لأنهم يمارسون مثلها، والاعتياد ^{يُ} بهم الحماقات والتكرار يُلبيها تدريجياً ثوب القبول والإباحة، وقد ترفعها ممارسة الجماعة إلى فضيلة!"

تحتاج ليلى لضمة حنان، ولعله هو الذي يشعر بحاجته لأن يحتويها في

صدره ليس مع رجة قلبها فيه.

"أنا لم أشعر يوماً بطاقة جسمي الفائرة وعنفوانى النائم كبر كان
مثلكما أشعر بهما معك. أذوب وأتشكل من جديد بعد كل نظرة
منك، بعد كل لمسة، جسمى يفور بقربك يطلبك ويعشقك
ويحس بسيطرتك، ولا أحجل من أحاسيسى بل أنزوى فىك
ليكون قلبي معك وتكون روحي منك. في وجودك أترك جسمى
العنان ليطلبك مثلكما لم أفعل في عمري.

أنا امرأة بجسم مهزوم من التاريخ، بقلب محروم ونصف روح،
لم أفهم جسمى، فتعدبتُ وتشوهتْ علاقتى به. لم أشعر أن هناك
من أحبه بل من استعمله بأنانية وقسوة، فانفجر برakan كراهيتى
عارماً، وحين حاولت أن أعطى قلبي لأى منهم، لم يكن مستعداً
لهذا النجح، فاروق أيضاً، ظل طوال هذه السنوات يعتبرنى مخلوقاً
ناقصاً؛ فاعتبرته بالمقابل مخلوقاً زائداً. أما ما تبقى من روحي فقد
حار ما بين جسم لا يستقر فيه وقلب لا يسعه، فبقيت روحي تحوم
في فضاء بلا أرض تقف عليها حتى استقرت أخيراً عندك وفيك
يا آدم!"

"هل كانت لك علاقة مع رجل آخر أثناء زواجك؟"

صمتت ليلى، على الرغم من نيتها التي بيت لها قبل لقائهما في أن
تخبره بعلاقتها مع رجل الظلام ذاك، الذي وضعته صديقتها كحل مؤقت
للضجر، إلا أنها عجزت عن الكلام. نظر آدم إليها مطولاً، وهي توجه

رأسها بعيداً كيلا تلتقي نظراتهما، قال:

"لا يأس خنت جسمي مرات أيضاً، لكنني خرجت من هذه التجارب بحكمة أن الامتناع عن مقاربة ما لا تشتهيه روحي سمو وصلة لها، وليس حرماناً."

طلت كما هي شاردة فأكمل:

"تعلمت من الحياة أن الجسم الحالي من الرغبة في الحبيب هو جسم خاو من حيوية وجوده، وأن ممارسة الجنس الحالية من رباط الروح هي مجرد غريزة منقوصة. الجنس دنس بالغضب من مختصب ولو كان حبيباً، والإشباع الذي يشبع القلب وبهله باللوجد ويوقف له الروح هو أصل الحياة. أظن أن من لم يجرب - بعد العهد الرابط بينه وبين من يعشق - ممارسة غريزة الجسم بعنعة القلب وفيض الروح لن يصل لمنتهى اللوجد ولن يرتاح. أراها علاقة عاشق بمحشوق؛ الشاما وانسجاماً، لو ضلت حار صاحبها أو مارس العنف أو ارتد على نفسه بعزلة خاملة، دائراً في متاهة لذات مؤقتة قاصرة!"

دفعها كلامه الهدائى إلى العودة إلى الحوار، متجاوزة ما كان يناقشه إلى نقطة أخرى:

"هناك شيء يقلقني، سأكون صريحة معك، لن أخفى عنك رغبتي وجئني وتوقى لك، ولن أؤجل مشاعري المتأججة أو ولهي بك؛ لكن لا أدرى لم ترُوقي لي الرقة في الحبيب حتى أذوب

"فيها ولم أشهي منه القسوة، لم هذا التاقض الذي أتوقف إلهي؟"

"كأن المرأة مخلوقة من نار وطين يا ليلي، نارها قد تحتاج لرقعة للسيطرة عليها، ويحتاج طينها لقصوة إعادة التشكيل، أو رعاية تحتاج نارها لقصوة للسيطرة عليها، وطينها يحتاج لرقعة إعادة التشكيل. أتخيل أنه في أعماق كل امرأة احتياج إلى رجل شاعري يغلفها بالعشق ويدبّيها بالرقعة، وتحتاج في آن لرجل شهوانى بدائي بمعنى البدائية المجبولة على الميل للتوجه. رجل يُفلت جنون طينها ونارها. يطفى أغلب النار ويترك جذوة الحريق الشهوانى متأهلاً للاندلاع، وأن يشكل طينها بعون الآلهة لتكون على مقاس روحه.

تبعد حركة شفتيه وهو يتابع بهدوء وثقة:

"أظن أن المرأة تحتاج القطبين في رجل واحد، وسعيدة الحظ هي التي توقف في أن يكونا معاً في واحد، وهي تشغف بهذا المركب الرجولي وتتمناه. الرجل أيضاً مهما أنكر نوازعه؛ يحتاج إلى امرأة فاضلة ومنفلته في آن، لكن غروره يستر رغبته، فيعاقب المنفلته إن انفلتت في الوقت الذي يراه خطأ، ويقهر الفاضلة إن تمسكت بالفضيلة في وقت طلبه هو للانفلات! هل أسرفت في الكلام أو تفلست يا ليلي؟"

التقطت أنفاسها وابتسمت بانبهار قائلة:

"أسمعك بكل كياني. كلامك يغزوني وفكرك يبهوني. أمرّضتني

بغايابك وغَرَّضني توا بحضورك، فأشتاهيك وأشتاق إليك ولا أشبع من وجودك. ما أسعد امرأة تعب عن شهوتها للحياة لمن تحبه ويحبها ويفهمها! أنا أعيشك في نومي وأحلم بك في صحيوي يا آدم، وسيأتي الوقت الذي أسرد لك فيه كل أحلامي لأنها لك، ثم أعيشها معك واقعا؛ فالحلم أيضاً قسمة الواقع!"

"لابد أن أسرد عليك حلماً، وأعترف بداية بأنك صرت سر أحلامي منذ وقت لا أستطيع تحديده بالضبط، فقبل شهور قليلة حلمت بك ذات ليلة. حاولتُ بعدها مرات استدعاء أي طرف من الحلم دون جدوٍ، أردت أن أتعرف عليك أكثر عبر الحلم، وأن أغوص في شخصيتك لكنني لا أؤمن بتفسير الأحلام، بل بعثها توقفت منذ ذاك الحلم عن ممارسة الجنس، كدت شرها عن سأم، أما ممارسة الجنس كفشل فوضوي. لم يتحقق لي الجنس أبداً إشباع لأنه كان في اتجاه واحد، فرغبات مثل الجوع والعطش يشعها اتجاه واحد، لكن الجنس يحتاج لإشباع متبادل: أخذ وعطاء، ويدوأني كنت أعطي ولا آخذ، أو آخذ بلا انتباٌه فأبذدر العطاء بحمق. أتذكر أسماء كل من مارست معهن الجنس ولا أذكر شكل أجسامهن. أتعزز لم صفتلك وأنا أرتعش عليك للمرة الأولى؛ لأنني أردتُ أن أفيق من حلمي عبر جسمي الذي كان سارياً وراسياً فيك، ولأنني أدركت جسمك الذي تأوه فتوجعت أنا، فرسوت على ميناء سرك وعرفت مستقرني. أردت أن أتأكد أنك هنا وأنني جزء من كيانك. أردت أن أوقف جسمي

بصدمة إفاقه ليبيض، أن تعidi الحياة إليه، وهذا هو سبب خواري الشاهق المستلذ المتوجع المفتون المجنون الذي كان.

رأيت عينيك يا ليلى. رأيت كيف تنظررين إلى بربع الحشوع والرغبة الحرة، فصرت أصلئ على جسمك بخشوّع أكبر ورغبة أكبر. وغضضتك هذه العضة التي ستبقى وشما على كتفك. كنت أعض نفسي. حستك بها وطعّمتك ضد أي جسم يقترب. انتهى جسمك إلى فعدت أنا إلى صواب جسمي ورشد فحولتي، إليك أنت فقط.

كانا يتلامسان أثناء الحديث ليخففا من شحنة العشق، يحتضنها ليتدوّق حنان طراوتها وطلاؤتها، تتعاشق أصابعهما ويترك أنفاسه ترعى مع أنفاسها في مروج الرغبات القادمة. على عينيها سؤال يخرج لينا من بين شفتيها:

"هل تشعر بندم ما عن علاقاتك مع النساء؟"

"ليس ندعا. ظنت فقط مرات أنتي أضعت زمني في مكان غير صحيح أو مع نساء خطأ. معظم من **القُيُّون** كان بهن شيء ما أحبيته لكن غاب عنهن أغلب ما ثنيت، لذا لم ألتقي بأمرأة كاملة من وجهة نظري ورغبة قلبي وروحي.

أفرحتها هذه الإيجابة، ولم تظن أنها كاملة من وجهة نظره، بل كفافها الشعور باختلافها؛ بملئها ثغرات بكرها في نفس آدم نقصته لأعوام، لكنها عادت لسؤال المرأة الذي لا تخفت جمرته:

"هل تجدني مختلفة؟"

رد وهو يهم بتقبيلها وتسيد ظهر كفها النائم في بطن كفه:

"أنت تختلفين يا ليلي في الأهم؛ معك أفكـر فيما ينـقصـني، مع الآخـريـات ظـلـلت طـوال الـوقـت أـفـكـرـ فيما يـنـقصـهنـ. لـعـلـ الـقـدـرـ وضعـكـ في طـرـيقـي لأـكـتـشـفـ نـفـسـيـ في مـرـآـتـكـ وأـعـرـفـ ذاتـيـ عـبرـ لـغـتـيـ الأـصـلـيةـ.

ارتاحت ليلي لتعبير آدم، لتحققـتهـ النـهـائـيـةـ بـهـاـ،ـ أـدرـكـتـ أنـ قـدـرـ آـدـمـ كانـ أـنـ يـحـجـ فيـ الأـزـمـنـةـ وـالأـمـكـنـةـ وـأـنـ مـعاـشـرـتـهـ لـكـثـيرـاتـ لمـ يـكـنـ عـبـثـاـ،ـ بلـ ضـرـورـةـ لـاـكـتسـابـ مـعـارـفـ إـنـسـانـيـةـ تـصـوـغـهـ عـلـىـ ماـ هوـ عـلـىـ الـآنـ،ـ لـتـكـونـ ثـمـرـتـهـ النـاضـجـةـ لـهـاـ،ـ وـلـيـمـنـحـهـ هـوـ لـهـاـ طـوـاعـيـةـ.ـ تـشـكـرـ اللـهـ عـلـىـ هـبـةـ تـدـرـكـ الـآنـ مـعـناـهـاـ الصـحـيـحـ وـالـعـادـلـ لـحـكـمـةـ الـربـاطـ بـيـنـ الذـكـرـ وـالـأـنـثـيـ!ـ كـانـ آـدـمـ يـشـعـرـ باـسـقـرـارـ نـفـسـيـ فـيـ تـلـاقـيـ نـصـفـ رـوـحـهـ الـحـائـرـةـ مـعـ نـصـفـ الرـوـحـ الـمـتـوـجـعـةـ لـلـلـيـلـيـ لـتـكـونـ لـهـ أـيـضـاـ تـلـكـ الثـمـرـةـ النـاضـجـةـ،ـ التـيـ دـلـهـ حـسـهـ الدـفـينـ أـنـهـاـ فـيـ مـكـانـ مـاـ مـنـ هـذـهـ الـأـرـضـ،ـ وـأـنـهـاـ قـدـ بـدـأـتـ مـنـذـ زـمـنـ بـعـدـ فـيـ السـيـرـ نـحـوهـ لـتـجـازـ اـخـتـبـارـاتـ إـلـهـيـةـ لـتـصـلـ إـلـىـ رـوـحـهـ!

لم تنس ليلي السـؤـالـ المـتـحـفـزـ الذـيـ يـرـاـودـهـاـ مـنـذـ حـدـيـثـهـ عـنـ الـحـلـمـ؛ـ فـالـأـحـلـامـ لـهـاـ مـثـلـمـاـ هـيـ لـهـ -ـ لـيـسـتـ عـبـثـاـ،ـ وـلـأـتـأـيـ منـ فـرـاغـ وـلـاـ تـذـهـبـ لـفـرـاغـ،ـ يـنـظـرـانـ لـلـأـحـلـامـ بـتـبـاـيـنـ جـمـيلـ.ـ هـوـ لـاـ يـفـسـرـ الـأـحـلـامـ التـيـ يـتـلـقـاـهـاـ وـيـعـتـرـهـاـ عـمـراـ إـضـافـيـاـ مـنـحـهـ إـيـاهـاـ الـنـنـامـ،ـ وـهـيـ تـقـسـرـ الـأـحـلـامـ بـحـسـ الـمـرـأـةـ الـبـاحـثـةـ عـنـ الـمـسـتـقـبـلـ.ـ أـفـلـتـ السـؤـالـ مـنـهـاـ خـفـيـفاـ حـرـاـ:

"كيف حلمت بي؟ ومتى؟"

"كأجمل ما يحلم حبيب بحبيبته! كنا معاً عند شجرة، أستدك
لتأكلي فاكهة لم تكن محمرة. رفعتك لها وأنا أقرأ جسمك الصاحب
بكفيّ وعبيّ، أسكب دلالك الفياض على جسمي حتى منتهي
النشوة، وأشكّل مرمر جسمك قريباً لجسمي، أحضنك وأشم
فيك رائحة ثمار المانجو، يا... ياه على صدرك تفرّ نصجاً وامتلاء،
فأغور في صهدك الحريري الدافئ المرتعش، لينسرب مني ماء الحياة
فأسمع صوتك مبحوهاً: آدم. آآاه دم! فأقوم من سريري بعد
صحوتي إلى 'إيشاربك' الأزرق المعلق على الحائط منذ ثلاثة أعوام
وثلاثة أسابيع وثلاثة أيام بالتمام والكمال، أشم رائحته؛ رائحتك
يا ليلي! رائحتك التي بقية في روحي إلى الأبد!"

"نبحث يا آدم فيما لم أتوقع أن أجده فيه طوال عمري. نقلتني
لأعيش في الحاضر الذي أهملته. الآن لا يهمني القادم. يكفي
أنني عشت أيامًا معك هي بالعمر كلها!"

"لكننا سنكون معاً.

"صدقني أجمل ما في عمري أننا 'الآن' معاً! لقد تذوقت معنى
الحياة. أحسست بالحياة تمر بداخلني وتعصف بي أجمل عصف،
ولم تعد تمر بي كمتفرجة.

"سأرتب لأكون في القاهرة كل حين من أجلك لأنني أريد ولأنني
أريدك!"

"سأكون أسعد مخلوق لو أكملنا عمرينا معاً"

بهذا الوصال الاستثنائي بين ليلي وآدم، بدأت فيينا تعيد إليها ديون الحياة القديمة عن العلاقات المشوهة التي تحملتها، وتدفع في آن لآدم عائد الانتظار الطويل عن العلاقات المتوردة. عاشا فيها أياماً لا يمكن وصفها إلا بكونها مزيجاً من شهد الحياة وثمار الصبر. مطر صيف هذه المدينة - الذي راق لليلي أن تسير تحته مراها بلا مظلة فقلدها آدم في تحرر طفولي مبهج - كان يغسل عنها غبار السنوات لتنتصع لهما وتشف، موسيقى المدينة نسجت في الروح عشقًا أبدية لن يغيب، لوحات الجبال ومزراع الكروم والغابات والورود والأنهار والبحيرات والمتاحف والطرق والميا狄ن والناس والكائنات، أهدتها معنى الحياة. كانا يسيران في المدينة مثل ملائكة هبطا توا، ولن تنسى رحلتها معه للغاية ذات عصر، حين سارا مُسْيَرُين وسط أشجار البتولا والصنوبر والصفصاف الحور ليدخلان منه إلى مرج منبسط، كمن يعودان إلى بيتهما الذي يعرفانه، وفي وسط هذا المرج الأخضر النائي عن أي عن، خلعا ملابسهما وتوسداها، ظلا زمانا طويلاً عاريين يتأملان السماء والطبيعة وبعض الغزلان والأرانب البرية التي اقتربت والطيور التي حومت، تصرّفاً كأنهما يكرران طقساً أزلياً محظوماً، حتى وجدا نفسيهما يلبيان نداء الطبيعة داخل الطبيعة، ليحول آدم ليلي في لحظات إلى حواء، ولتعيد هي إليه آدميته الأولى، للمرة الأولى تنتصب ليلي نحيباً مرجفاً.

كان صوتها يعلو بالنشيج وآدم يحتضن رجفتها ويشاركها وصولها
عنتبه الوله.

وفي هذا البيت العالي شهدنا معاً رباطاً أبداً ووعداً وعهداً. لم تنس
ليلي حياتها هناك ولم ينس آدم حياته هنا. اعتبر آدم ليلي زوجته منذ أنباءه
بتحررها من فاروق ومن ياسين وأخبرته بكل التفاصيل. واعتبرت ليلي
آدم زوجها منذ عهدها له وتزويجهها نفسها له. تغاضى ياسين عن الوداع
الأخير عمداً لأنَّه عرف أنه قد لُفظ من أرضها، بقي له هامش واهن
يكفيه لرباط أوهن بالزمن القديم ومستقبل علاقتهم معاً، وعليه وحده أن
يحافظ على ما تبقى منه دون التزام منها؛ هامش. يعني أنَّ يتركها في سلام
بعد هذا العمر المريء، بدلاً من الاستمرار في طيها تحت إمارته الوهمية
وإفساد حياتها التي تدخل فيها مرات بارث رجولته الأرعنة. هي الآن
تقرر لنفسها كل شيء، بيدها عصمة حياتها: الطلاق، التحرر، الزواج،
استعادة الحياة.

أصرت ليلي أن تعود دون رفقة ياسين إلى مطار فيينا. ودعته هو وفاطمة
وعبد الله في البيت!

تلك الرحلة إلى فيينا صارت مصيرية دون أن تتوقع؛ فإنْ تلقي عن
كماهلها رزح رجلين - في غضون أسبوعين قليلة وعلى أرض أخرى - لم
يكن ليأتياها حتى كهابس. صحيح تأخرت على تحررها من فاروق خوفاً
على حاتم ورانيا، وخشيَّة من إثر معقد من العلاقات الاجتماعية لم تفكِّر
في الخوض في بحره، لكنَّ الآن لا مناص من ذلك هذا الرباط الوهمي

البائس من أجلهما أيضاً؛ من أجل استعادة أمًّ كانت مغيبة ومهزومة. هي تؤمن أنه لا فرق عند فاروق إلا ما سيقوله الناس، ولا فرق عند العائلة إلا كلام الناس، ولا فرق عند ياسين سوى صورته الأنانية لنفسه. يعني كل الفروق المصيرية في حياتها هي من أجل الناس فقط، هي مجرد صورة تكميلية وتجميلية تريح الناس كي يشعروا بالتشابه الكاذب المطمئن؛ بأنها جندي في معسكر العائلات الأبدى بالزي الموحد نفسه، مجند يتلقى الأوامر وينفذ مثل سلالة إنسان آلي دون امتعاض وإلا تعرض للجزاء. علت نبرة غضبها لتسمع صوتها يردد:

"اللعنة على كل الناس إن كانوا يهدمون حياتي تحت مسمى
الأسرة الوهمي وتبعات العادات والتقاليد"

آدم اقترب منها لأنَّه كان لابد له أن يقترب. كل شيء كان يسير على حساب علاقة ستتحبني مع ياسين، علاقة صارت - من قبل - مع تغير ياسين الراديكالي تنتقل من بوابة الصداقة إلى نوافذ العشرة. عاشا شباباً جميلاً في هذه المدينة فيه كثير من الحماقات والتجارب، عاشا الحياة كما يجب أن تعاش. ارتد فيها ياسين فجأة إلى وضع مناقض لم يكن يتوقعه آدم، واعتبر نفسه قد نجا من دار الكفر إلى دار الإيمان. خسر تدريجياً كل الأصدقاء القدامى والصداقات وبقي آدم كآخر الأصدقاء؛ آدم هو الذي لم يتخل عنه، بقي واضحاً كما هو ثابتًا في مكانه واثقاً من نفسه. لم يعد يفهم ياسين خسائره البشرية المتلاحقة ولا كنوز الصداقات القديمة التي فرط فيها بكرم أخرق، مقابل مكاسب غيبية صارمة ومستجدة من شخص

تمرس قد يدا على إعمال عقله دائمًا في أمور الشك واليقين. أصبح له زملاء وأصدقاء يتغيرون وفق طقوس متغيرات حياتهم!

وقفا ينظران إلى الأفق البعيد وقت الغروب. إلى البيوت والأسطح، وإلى جدران الشوارع البعيدة التي ترصعت بالأضواء. كان شمس الغروب قد أدى مهمتها شاهدا لهما وعليهما، تباطأت في النزول في الأفق البعيد وهي تسلم نفسها وديعة للليل. كانوا ينظران معاً للغسق ويداهما متعاشقتان. انتبهما لطفل يحادث طفلة تقف وتشب بقدميها على السطح المقابل، كان الأطفال يضحكان بصوت طفولي خلاب تنقله الريح إليهما. أرمت ليلي بظهرها في حضنه وضربات قلبها تدب في ظهرها. أغمضت عينيها فأحسست بروحها تعانق روحه، ثم تلشم معها في روح واحدة. حتماً قام آدم وحواء بالطقس نفسه في لقائهما الأول على أرض الله!

ختمية العودة إلى القاهرة من فيينا غزلت شجناً جديداً لـ المشاعر ليلي، المشاعر التي حملت بها في الزيارة الأولى ثم ولدت على أرض فيينا في تلك الزيارة المصيرية. عودة بنصف روح بعد أن أدركت فيها وجود النصف الآخر. كانت فرحة بالعودة إلى حاتم ورانيا. صورة فاروق انزاحت تماماً من إطار الفرح، ثم سقطت. قال لها: "أنت حرة؟؛ فصارت حرة فعلاً، بإرادتها هي، آدم رافقها في طريق العودة حتى المطار، ورافق قسمة

روحها العائدة إلى القاهرة، طمأنها أن ما حدث لم يكن وهمًا، بث فيها الأمان؛ الأمان الذي تحتاجه المرأة وتمناه. كم كانت ممتنة لهذه المدينة! المدينة التي سجلت معها تاريخاً لاستعادة الحياة المسروقة، التي منحتها - في آخر لحظاتها فيها - حضناً عامراً وقبلة من رجل اسمه آدم، دون أن ينظر لها أي شخص استهجاناً. تركت نفسها له ليربت على روحها وقلبها وسط دموع تسري في وجه ريان بالبهجة والامتنان. لم تكن دموع الفرح المفاجي التي خرتها ولا دموع الحزن العاصف التي عايشتها، بل دموعاً أعمق تجلّى الشجن والوله المتناهي، دموعاً تنبثق من منبع آخر وتسحب معها مشاعر معطلة فيها لم تعرف لها من قبل سبيلاً. تمنت منذ هذه اللحظة أن تكون كل دموع عمرها الآتي مثل هذه الدموع، كي تخفف بها من خزین العمر الحزين. كانت تحضنه كطفلة يودعها أبوها لغياب طويل. لما تركت آدم صارت تتأخر، تعطل، تتلکأ، نادى الميكروفون الداخلي على رقم وجهة رحلتها راجياً سرعة التوجه إلى بوابة المغادرة. لا تسمع ولا يسمع. حتى وصلها اسمها شخصياً بسرعة التوجه لبوابة المغادرة. حينها انفكَا من بعضهما. قبّلها ورجع خطوة فذهبت إليه، ثم انصرفت فعاد يجري إليها ليحضنها؛ كأنهما في رقصة عشق بتلاقٍ وانفصال، لا يريان في المطار أحداً ولا يهمهما بشر، أبقت أطراف أناملها معلقة بأطرافه حتى النزع الأخير. أسرعت للأمام ورأسها للخلف، عاتبته قدماه على أمره لهما بالثبات، عبرت الحاجز، وقفَت في الداخل ورفعت يدها للوداع، وأشار لها أن تسرع مخالفًا كل مشاعره، فاختفت جسماً عن عينيه، وبقي طيفها واقفاً أمامه. فك سراح ثبيت قدميه فدار في مكانه كالمدبوح.

اتصلت من داخل الطائرة وطمأنته أن كل الأمور سارت بسلام، وأنها مضطربة لإغلاق الهاتف فوراً. قال الجملة نفسها في الوقت نفسه بهمس من روضة في جنة ما زالت آثارها في الروح:

"أحبك!"

في الطائرة شعرت بأنها لا ت يريد أن تأكل شيئاً، ولا ترغب في القراءة، شعرت فقط برغبتها في تثبيت ألف ساعة وساعة بالتمام قضتها في هذه المدينة حتى هذه اللحظة. طلبت كوباً من الماء. وركبت رأسها على النافذة وسرحت عينيها في الفضاء. لا حاجة لاستدعاء أي حلم الآن، الواقع أجمل وأروع في استذكاره. الحنين كبير لرانيا وحاتم، والشوق بمثال لأدم الذي ينطلق بسيارته عائداً لبيته منصتاً للأغنية أم كلثوم التي استمعا لها مراراً في رحلاتهما. تذكرت ليلى فوراً أن هناك محطة للأغانيات القديمة في راديو الطائرة الداخلي، استمعت لآخر كلمات أغنية ليالي الأنس في فيينا، لتليها أغنية (انت الحب) لأم كلثوم. في الفضاء كانت تستمع للأغنية بشجن ودموع وتفكير في حبيب عائد الآن بسيارته لبيته حاملاً قلبها معه. على الأرض كان هو ينصت للأغنية نفسها، ويدرك أن في الفضاء روحان منه حلقة حاملة معها قلبها. قالت بصوت هامس من كل روحها ووجدانها ومن بين دموعها:

"شكراً لك يا إلهي يا سميرا يا مجيد دعواطي.. رب احفظه لي
واحفظ لي كل من أحب!"

ما إن لمست قدمها أرض مصر حتى شعرت بال الحاجة لتخلص نفسها من البكاء المحبوس اشتياقاً للمكان، لبست نظارتها الغامقة، تركت مشاعرها تتدفق، تهلت، حتى وصلت أمام ضابط الجوازات. خرجت. لم يكن فاروق في انتظارها، بل حاتم ورانيا مع جدهما آتين معاً من الإسكندرية حسب رغبتها.

كانت أحضاناً مماثلة في عمقها وشجنها لحضن آدم، وهي تسقط حقيقة يدها على الأرض باستعجال وتفتح ذراعيها لحضن حاتم ورانيا، لتسد بهما شرخ الغياب الطويل. ثم احتضنت أباها بإحساس طفولي قديم غاب عنها دهراً. أراحها هذا الإحساس. شعرت بشبه امتلاء واكتمال. جلست في السيارة في الخلف محضنة الاثنين، يسألانها عن الهدايا، فتذكر متعللة بأن الوقت كان ضيقاً ولم تتمكن من إحضار أي شيء. ينظران لعينيها بتوهج طفولي عذب، فتخونها صرامة الكذب وتضحك. شعرت أنها اغتسلت في غيابها لصالح ولديها وأن العلاقة قد دووبيت بالمسافة ووعولجت بالحب الحقيقي الغامر لقلبها وروحها، أدركت أخيراً أن الجنات هنا على الأرض قبل أن تكون هناك في سموات الغياب. للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة تشعر بالحضن الذي يرآب الصدع. تشعر بأنها عادت وأنها أقوى وأن طاقتها تجددت وتفيض، وأن الخواء غادر روحها. بكاء راحة البال يعود إليها في وجهها المتسم، بينما أبوها يسألها عن عبد الله ويسين وفاطمة. تجيب في اقتضاب وتكرار: "الحمد لله.. بخير!"، تسرح مع زحام الطريق وتلقي فيه نفيات أفكارها؛ ها هي الآن ممحو من رأسها جزءاً مما تمنت وتبتسم!

أخرجت تليفونها واتصلت بآدم. سمعت صوته المريخ وهو ينطق
باسمها:

‘ليلي’

نقطت باسمه ولم تزد. تركت السماعة مفتوحة ولم تتحدث، تركته
يسمع قلبها والأصوات التي ترافقها والضجيج الذي يغلف المكان.
الصمت الذي كان يصلها منه وسط هذا الحشد كانت بحاجة إليه
ليشعرها بالسکينة، والضجيج الذي وصله في سكونه هناك كان بحاجة
إليه ليشعره بأنه في الحياة. تبادلا الأحساس بصمت. قال في سره كلاما
كثيرا وصلها ورددت عليه بالمثل؛ فالآرواح المحبة لها لغة صامتة تتواصل
كأسرة أطول مسافة، وغاية في أبعد زمان!

فيينا، بيروت، فيينا

(١) نوفمبر ٢٠١٢ حتى ٣١ مارس ٢٠١٣

المؤلف في سطور

طارق الطيب

- من مواليد القاهرة (عين شمس، تسجيل ميلاد: باب الشعرية) في الثاني من يناير 1959. انتقل في عام 1984 إلى فيينا حيث أنهى دراسته في فلسفة الاقتصاد وهو يعيش الآن فيها ويعمل إلى جانب الكتابة الأدبية بالتدريس في ثلاث جامعات بها.
- نشر حتى الآن روايتين ومجموعتين قصصيتين وخمس مجموعات شعرية ومسرحية واحدة وكتاب في السيرة الذاتية.
- نشرت ترجمات لكتبه في اللغات التالية على الترتيب: الألمانية، الفرنسية، المقدونية، الصربية، الإنجليزية، الإسبانية، الرومانية، ثم الإيطالية. كما له ترجمات في لغات أخرى لنصوص أدبية في العديد من الانطولوجيات والمجلات والدوريات العالمية.
- شارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية.
- حصل على العديد من المنح الكبرى والجوائز منها منحة إلياس كانطي (Elias Canetti) الكبرى في فيينا عام 2005 والجائزة الكبرى للشعر في رومانيا في العام 2007.

تم تعيينه كسفير للنمسا لعام الحوار الثقافي الأوروبي (EJID) في العام 2008.

حصل على وسام الجمهورية التنساوية تقديرًا للأعمال في مجال الأدب والتواصل الأدبي داخلياً وعالمياً، في العام نفسه 2008.

- حاصل على زمالة "برنامج الكتابة العالمي وبرنامج "بين السطور بجامعة أйوا في أميركا، في العام 2008.

صدر له مؤخرًا: (بعنا الأرض وفرحنا بالغار) بيروت 2010، (... ليس إنما) القاهرة 2011، و(محطات من السيرة الذاتية) القاهرة، دار العين 2012.

عنوان صفحته الشخصية:

www.eltayeb.at

٧٩٧ الرحلة

المترجمة إلى فيينا

للمرة الأولى تعطيل النظر في عيني رجل وترى لونهما وعمقهما، فتشعر أن النظرة تروي عطشاً بعدها مزمنا لم تتبه له، وأنها تزيد التزيد. للمرة الأولى يقترب منها رجل فيشعر جسمها ويرتجف ويزلزلها دون أن يلمسها. يجذبها إليه بسحر غامض فستجيئ بغيرزة مسحورة.

للمرة الأولى يشعر هو أنه مسيرة ولأول مرة تشعر هي أنها محيرة. في لحظة يخلع كل منهما للأخر ملابسه. كأن كليهما يخلص أحدهما الآخر من أسر ما.

أنا امرأة بجسم مهزوم من التاريخ، بقلب مجروح ونصف روح، لم أفهم جسمي، فعدبت وتشوهت علاقتي به. لم أشعر أن هناك من أحبه بل من استعمله بأنانية وقسوة، فاروق أيها، طل طوال هذه السنوات يعبرني مخلوقاً ناقصاً؛ فاعتبرته بالمقابل مخلقاً زائداً. أما ما تبقى من روحي فقد حار ما بين جسم لا يستقر فيه وقلب لا يسعد، فقيمت روحي تحوم في فضاء بلا أرض تقف عليها حتى استقرت أخيراً عندك وفيك يا آدم!



9 789774 902663

